

دار الشريعة



دار الشريعة

الكوميديا الأرضية

الطبعة الثانية

١٤٠٣م - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت، ص ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١١ - ريف، كاهنوك - تلكن، SHOROK 20175 LE
القاهرة، ١٦ شارع مزاد حسي - هاتف: ٧٧٤٨١١ - شرق، كاهنوك - تلكن، SHOROK UN 93001

الدكتور زكي نجيب محمود

الأكوسيتيكا الأرضية

دار الشروق

المحتويات

الصفحة	
٥	عند سفح الجبل
١٤	نفس عارية
٢٢	الكوميديا الأرضية
٢٩	خيوط العنكبوت
٣٨	الكراهية الصامتة
٤٧	عروس المولد
٥٦	إلى سادتي الحكام
٦٤	أبناء الظلام
٧٢	عالم قلق
٧٩	نفوس فقيرة
٨٧	مصباح علاء الدين
٩٣	مقومات الحياة
١٠١	عزمات الإرادة
١٠٩	هاروت وماروت
١١٦	رهان
١٢٤	نظرة الطائر
١٣١	تمثال فيدياس

الصفحة

١٣٧	الأفراد ! الأفراد !
١٤٩	آباء وأبناء
١٥٨	سيئات الموتى
١٦٨	ندوة الخميس
١٧٨	ابتسامة الساخر
١٨٧	أنتيجونا
١٩٦	نشر القديم
٢٠٦	سَلِّم القيم
٢١٥	نموذج المتمدن
٢٢٦	الحس المشترك
٢٣٤	الفكرة الواضحة
٢٤٣	جناية الألفاظ
٢٥٤	مهمة الكاتب
٢٦٤	إعانة المجلات العلمية
٢٧١	جناية الأدباء

عند سفح الجبل

هو جبل شاهق ، يعلو بقمته على مستوى السحاب ، فلئن اعتاد أهل الأرض أن ينظروا إلى السحاب منسابة فوق رؤوسهم ، فأهل تلك القمة العالية ينظرون إليه صاعداً أو هابطاً تحت أقدامهم ، إذ لا يجاوز ثلاثة أرباع الجبل صعوداً ، حتى إذا ما كثف الغمام نظر الواقف هنالك ، فإذا هو على جزيرة ناتئة حولها بحر من دخان ، تتدافع أجزاءه في صمت ، كأنه الموج الأخرس ، يرتفع حيناً ويهبط حيناً ، وهو في معظم الحالات من الكثافة بحيث يستحيل على ساكن القمة العالية أن يرى شيئاً من السفح ، وقليل ما يصفو الفضاء فيتبدى سفح الجبل من أعلاه إلى أدناه ، بصخوره البارزة الغليظة ، وشعابه الخشنة الممزقة .

فالقمة مشمسة طيلة النهار سماؤها صحو أبداً وعليها قامت قرية صغيرة أمرها عجب ، فهي نظيفة البيوت نظيفة الشوارع ؛ نعم إن شوارعها ملتوية كالأفاعي ، تكاد لا تستقيم في موضع ، إلا أنها مرصوفة كلها ، نظيفة كلها ، وعلى جوانبها صفوف من المنازل الجميلة الأنيقة ، مختلفة الطرز منسقة البساتين ؛ وأهل القرية على درجة ملحوظة من نظافة الثياب وسلامة

الدوق ، وإن يكن مما يلفت النظر فيهم بدانة وترهل وبطء حركة .
ولست ترى هنالك خدماً ولا دكا كين ، فتعجب من أين تأتيهم حاجاتهم ، ومن ذا يعاونهم على تنظيف الشوارع والبيوت ؛ ولذلك قلما تسمع في طرقاتها صوتاً ، ومن النادر أن ينبعث صوت من هذا البيت أو ذاك ، بل قليلاً ما يصادفك في أنحائها رائح أو غاد ، كأنهم جميعاً قد قروا في بيوتهم لا يبرحونها لنزهة أو عمل .
هكذا كانت الحال كما وصفها محدثي الرحالة ، وكما بدت له عند أول صعوده ذلك الجبل إلى قمته ، ثم ما لبث أن التقى من أهل القرية برجل ، قصد إلى لقائه بتوصية من صديق ، حتى تبين له — بهداية هذا الزميل — نشاط عجيب حاد عنيف داخل الجدران ، ذلك أن هذه القرية كثيرة النوادي ، كثيرة ليس لها نظير فيما نعرف من مدن الأرض الواقعة في مستوى البحر ، ومن تلك النوادي ما هو خاص ، ومنها ما هو عام ، لكن النوادي الخاصة هي التي كانت موطن النشاط العجيب الذي أشرنا إليه ؛ وهي صنوف مختلفة ، منها النوادي السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والرياضية وغير ذلك ، بل قد يختص النادي الواحد بناحية غريبة واحدة لا يتعداها بنشاطه ، فمن أمثلة ذلك ناد لسباق الأرانب وناد لتدخين الرجيلة ، وناد لصيد البط ، وآخر لصيد الإوز وهكذا .

وأخذ يصف لي محدثي الرحالة ما لقيه في نوادي القرية وهو بصحبة
جليه ؛ فهذا ناد سياسي ، تدخل من بابه الخارجي إلى البهو ، فلا حركة
ولا صوت ، صمت شامل وهدوء جميل ، حتى إذا ما انفتح لك باب غرفة
الاجتماع ، جاءتك الأصوات كالرعود ؛ ويقول محدثي : إن أول
ما عجبت له عند ما دخلت مع دليلي متسللا على أطراف قدمي ، أني
رأيت أصحاب الأبدان السمينة والحركات البطيئة والأطراف المسترخية ، قد
دبت فيهم حرارة المناقشة كأنها شعلة من نار ، فالوجوه محترقة ، والعيون
محمرة ، والأجسام متحفزة والأطراف مرتعشة ؛ وكانت كلمة « الشعب »
أكثر الكلمات وروداً في مناقشاتهم الحادة الحارة ؛ وقد سألت نفسي
عندئذ ؛ أي « شعب » يا ترى يقصدون ؟ لأنني لم أجد في القرية شعباً
بقدر ما وجدت سادة ؛ أف يكون هذا المجتمع الغريب رأساً بلا بدن ؟
لكنني لم أطل التفكير في هذا وما كنت لأستطيع أن أطيله ، لأن شدة
التحمس ترغم السامع إرضاماً على مسaire الحديث وهم يتراشقون فيه بالحجج
كأنها الحجارة أو أشد صلابة ؛ ويظنون كذلك حتى يفوتهم أوان الغداء
إن كان الوقت نهراً ، وأوان العشاء إن كان الوقت ليلاً ، وهنا كذلك
سألت نفسي : من أين هؤلاء الزاهدين في الطعام هذه الأبدان السمينة ؟
لكنني مرة أخرى لم أطل التفكير في هذا ، وما كنت لأستطيع أن
أطيله ، لأنني إزاء تيار دافق من الكلام ، يستحيل معه لإنسان أن

يقف لحظة واحدة يفكر أثناءها لنفسه في هذا أو ذاك بما عساه أن .
يستوقف نظره أو سمعه .

ومضى محدثي الرحالة يقول : الحق أنهم في تلك الندوة السياسية التي
زرتها ، كانوا يناقشون موضوعاً ظريفاً ظريفاً وهو : هل يستورد الإصلاح
الدستوري « للشعب » — قلت إن كلمة « الشعب » كانت كثيرة
الورود — من فرنسا أو من بلجيكا ؟ فالبضاعة الفرنسية — بما في ذلك
الدستور والقوانين — فيها جمال لكنها رقيقة إلى حد الهزال والضعف ،
والبضاعة البلجيكية على شيء من متانة البناء ، لكنها عسرة الهضم متعذرة
القبول ؛ و « الشعب » عندنا — هكذا روى الرحاله محدثي عن خطباء
الندوة السياسية على قمة الجبل — لا ترضيه الرقة الفرنسية ولا تقنعه الغلظة
البلجيكية . وقال قائل : لماذا لا تمزج عناصر من هنا بعناصر من هناك ؟
فجاءت فكرة مزج العناصر كالتقبلة الداوية ، لأنها نقلت الحديث كله إلى
موضوع جديد هو : هل يمكن للعناصر أن تمزج ؟ وأي المقادير يجعل
النسبة صحيحة مناسبة للمزج ؟ ولبثوا في ذلك حتى انفض الاجتماع ليعود إلى
البحث مرة أخرى .

وزار محدثي الرحالة ندوة ثقافية في تلك القمة العالية التي لا تعكر
صفوها سحابة في نهار أو ليل ، لأن القمة تعلو على مستوى السحاب

وها هنا — بداهة — لم يجد صخباً ولا ضجيجاً ؛ كان البهو صامتاً ،
وانفتح الباب عن غرفة الاجتماع فإذا فيها صمت هامس ؛ وكان موضوع
الحديث هو : ماذا يكون أساس الفن كله بما في ذلك الأدب ؟ يجعلون
الفن للفن ، أم يخدمون به « الشعب » — كانت كلمة « الشعب » هنا
أيضاً دائرة على ألسنة المتكلمين في كثرة ملحوظة — وكانت كثرتهم
الغالبية مع « الشعب » ؛ لا بد أن يصور المصور للشعب ، وأن يعزف
الموسيقي للشعب ، وينشد الشاعر شعره للشعب ، وينحت المثال تماثيله
للشعب ، ويقوم المهندس المعماري عمارته للشعب ؛ وعبثاً حاول منهم فريق
ضئيل أن يبين للحاضرين أن القطعة الفنية مخلوق قائم بذاته . ولا يقال
عن المخلوق الذي كملت خلقته ماذا يحقق من أغراض ؟ لأنه لا غرض
عن الكائن التام التكوين إلا أنه كائن تام التكوين وكفى ؛ هل
تقول ما الغاية من هذه الفراشة ، وما الغاية من هذا العصفور وما الغاية
من هذه الوردة ؟ كذلك لا ينبغي أن تقول ما الغاية من هذه القصيدة
وما الغاية من هذه القطعة الموسيقية وما الغاية من هذه الصورة أو التمثال ؛
إنها جميعاً كائنات خلقها خالقوها فأحسنوا خلقاً ، وفي ذلك الكفاية .

لكن فكرة « الشعب » — كما قلت — كانت لها الغلبة
والرجحان ، ففي سبيل الشعب ما يخلق الفنان .

وخرج محدثي الرحاله — كما روى — من الندوة الثقافية معجباً أشد إعجاب ، لأن تبادل الرأي قد تم في هدوء ورحابة صدر ؛ أين منهما شهده في الندوة السياسية من نيران مستعرة في الأعين والوجوه والأطراف — وقصد لتوه ندوة اجتماعية ولم يشأ أن يرجىء الزيارة إلى يوم آخر لقصر مقامه هناك ، فقد كان لابد له من الهبوط إلى السفح في صبيحة اليوم التالي.

وكانت الندوة الاجتماعية في منتصف نشاطها عندما زارها صاحبي ، لم يشهد الحديث من أوله ، لكن المصادفة قد شاءت أن تكون أول كلمة يسمعا عند افتتاح الباب ، هي كلمة « الشعب » ، ولم يسعه عندئذ إلا أن يعاود السؤال من جديد : أين يا ترى هذا الشعب الذي يشير إليه كل متحدث إذا ما انفرجت شفتاه عن حديث مهما قصر؟ إنها — فيما رأى — قرية صغيرة كلها منسق نظيف ، لا خدم فيها ولا باعة ولا مارة إلا في القليل النادر ، لكنه سرعان ما طرح هذا التيار الداخلي في نفسه لينصت .

كان الخطيب الذي يتكلم في نحو الثلاثين من عمره ، تميزه حركات بذراعيه وجذعه تتناسب مع المعاني التي يعبر عنها في حديثه ؛ وخلاصة كلامه أنه متألم لحال الشعب لأن حياته تكاد تخلو خلواً تاماً من أسباب اللهو البريء ؛ فهل عملت الحكومة في القرى على الترويح عن هؤلاء

العاملين المنهوكى القوى ؟ هل أعدت لهم شيئاً مما يدفع في الشتاء ويخفف
عناء الحر في الصيف ؟ .

وما إن خرج محدثى الرحالة — هكذا روى — من تلك الندوة ،
حتى سأل دليله في حذر وتلعم : أين الشعب هنا ؟ فقال الدليل — الشعب ؟
ليس هنا ، إنه هناك ، هناك عند سفح الجبل ، ها هنا القمة ، قمة الصفوة
المتازة ، ألم تصعد إلينا من سفح الجبل حيث أفراد الشعب يعملون
ويقيمون ؟

فأجاب الرحالة في ارتباك واضطراب : نعم ، نعم ، رأيتهم هناك ،
لكننى ظننت أنهم ...

فسأل الدليل : ظننت ماذا ؟

فقال الرحالة : ظننتهم أفراد شعب لا ينتمى إلى هذه القمة وأهلها ؛
كانت غفلة منى وكان سهواً لأن العلاقة بين القمة والسفح واضحة ، واضحة لا
تحتاج إلى بيان ؛ فما على السائر إلا أن يصعد مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو
في القمة المشمسة ، أو يهبط مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو عند سفح الجبل .
وفي ضحى اليوم التالى ، هبط رحالتنا إلى السفح في طريق عودته
فكان أول من لقيه من الناس امرأة عجوز متهدمة جلست على جانب
الطريق ، وأمامها صندوق خشبي صغير تناثرت على ظهره سبع قطع من

الحلوى ، فأما المرأة فكومة من أسمال سوداء ، تكاد لا تميز فيها رأساً من صدر ، حتى إذا ما رفعت وجهها ، رأيت شيئاً قريب الشبه بمجامع الموتى ، غطاء جلد داكن متغضن ، وكأنما كانت ترتعش بجسدها كله رعشة متصلة ، وأما حلواها فسل عنها أقدر الذباب .

ترى كم مليا تريح هذه المسكينة في يومها ؟ أين تسكن وعلى أى كومة من التراب والحصى تضع جنبها سواد الليل ؟ ماذا تأكل ، وكيف تغطي جسدها إذا ما اشتد برد الشتاء ؟ أين وكيف تغسل جسدها ومن ذا يجيئها إن تأوهت من ألم كما شاء الله لعباده المرضى أن يتأوهوا كلما اشتد بهم الألم ؟

وأبطأ صاحبي الرحالة خطاه أمام بائعة الحلوى ، وهو يفكر في أمرها ، ويسأل نفسه هذه الأسئلة عنها ، فظنته المسكينة شاريّاً لبضاعتها ، فقالت في أنفاس متقطعة واهنة : « حلاوة يازباين » .

قال الرحالة : بكم تبيعين القطعة يا أمى ؟

قالت : القطعة بمليم .

قال : سأشترى منك حلواك كلها لأولادى .

وكان « البائعة » لم تصدق قول « زبونها » فراحت — قبل

أن تجمع له « البضاعة » — تدعوه ولأولاده بطول البقاء ، ناظرة إلى السماء ، بأسطة كفيها النحيلتين المعروقتين المرتعشتين .

فقال لها صاحبنا وهو يدفع لها قرشاً كاملاً ثمن حلواها — وحقها سبعة سليات — لا تنسى يا أمي أن تطلبي من رب السماء رحمة بأولئك الذين يرعون مصالحك فوق قمة الجبل ؛ لقد رأيتهم هناك بعيني رأسي ، يتحمسون لك ولا يدخرون من وسعهم وسعاً ، فقد كانوا يتجادلون في نوع الإصلاح الدستوري الذي يستوردونه لك من فرنسا وبلجيكا ، وكانوا يتناقشون في هل يخلق الفنان فنه لنفسه أو يصوغه ويوجهه إليك ، ورأيتهم يبعثون كيف يهيتون لك مصيفاً تستمتعين فيه بهواء عليل حين تشتد الحرارة هنا في يوليو وأغسطس ...

فرفعت المرأة عينيها مرة أخرى نحو السماء ، وبسطت كفيها ، وقالت « يارب بارك لنا فيهم أجمعين » .

نفس عارية *

— « لا ، إني لا أريد أن أكون سعيداً ، لا أريد اطمئنان النفس وراحة البال ، وإني لأسى دَوباً إلى الشقاء والعناء والتعب ، وأبحث عن أسباب البؤس والنكد ؛ كذِبٌ كله هذا الذي يكتبونه في الكتب ويعظون به في المحافل عن طلب الإنسان لسعادة نفسه ؛ إنهم لا يعلمون عن النفس الإنسانية شيئاً أولئك الذين يحسبون الناس جادين في طلب السعادة وراحة البال ، ويظنونهم جادين حقاً في التماس الرفاهية والخير .

« إني أريد لنفسي الألم ، وأريده للناس ؛ أريد لها ولهم أن يتعذبوا... ومنافق أنا مع سائر المنافقين حين أدعى بهتاناً وزوراً أنني كاره حقاً للألم ينزل بي ، وبالناس ، ويشتملني ويشتملهم جسداً وروحاً . . . إني لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذي رأيته مرة يبكي على لعبة أفسدتها له أخته ، فجاءت أمه تمسح له الدموع عن عينيه ، وترضيه بحلو كلامها ، فقال لها وهو يدفعها عنه بيديه الصغيرتين غاضباً : عنى لا تمسحى دموعى لأننى أريد أن أبكى ولا أستطيع البكاء بغير دموع . . . لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذى أصاب من حقيقة النفس الإنسانية بفطرته الشفافة ،

(*) كتبت بمناسبة حريق القاهرة التى شبت يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

ما لم يصبه أصحاب الكتب والمواعظ الذين قد راهوا حتى أفسدهم الرياء ،
وناققوا حتى أنساهم النفاق أنهم مناققون ؛ إن الإنسان يريد أن يتألم
ويبكي ، ويبعث في الخفاء عما يثير فيه ذلك الألم وهذا البكاء ، وكذب
كله هذا الذي يقولونه ويكتبونه من أن الإنسان ينشد لنفسه وللناس
راحة وطمأنينة وسعادة .

« أنظر إلى هذه القطعة من الحلوى قد وضعت لي على المائدة منذ
أمس ، وهممت أن آكلها مرات عدة في غضون النهار ، ثم أمسكت
لأنني آثرت لنفسي الحرمان . . . »

بمثل هذه الدفعة العجيبة راح صديقي يحدثني عند ما زرته فوجدته
في داره وحيداً ، فلا أمه هناك ولا خادمته ، وكانت الدار مغلقة النوافذ ،
والضوء فيها قبيل الغروب خافتاً بين الظلام والنور .

فتح لي الباب ولم يفرح للقائى كما دتته ، لأنه — فيما بدا لي — قد
كان يريد الوحدة ؛ بل لم يكفه أن يكون في الدار وحيداً ، فانتبذ من
داره هذه الخالية ركناً أبعد ما تكون أرجاؤها عن مصادر الضوء
والصوت ؛ كان في مستطاعه أن يضيء المصباح وأن يدير المذياع ، لكنه
لم يفعل .

وجلست إلى جواره فيما هو أشبه بظلام الليل منه إلى ضوء النهار ؛
لا أجرؤ على إضاءة المصباح لأنى ضيفه ، وليس للضيف أن يغير من أوضاع

الدار التي تضيفه ، أو أن يلاحظ عليها شيئاً إلا أن يكون استحساناً ومدحاً ، وظل هو إلى جانبي صامتاً يفرك يديه ، ويطلق أصابعه ، ولم يمنع خفوت الضوء من رؤية شفثيه الراجنتين وعينيه البارقتين وأطرافه المختلجة .

قلت له : لست أراك في وحدتك هذه سعيداً .

فاندفع يجيني متدفقاً بالعبارة التي أسلفت بعضها : « لا ، إني لا أريد أن أكون سعيداً . . . »

واتهزت لحظة قصيرة وقف فيها تياره الدافق ، وقلت : هل لك أن تذكر لي ما حدث لك اليوم حتى أتعب ثورتك هذه إلى أصولها؟ وسرى عندئذ أنها ثورة مؤقتة مرهونة بأسبابها ، حتى إذا ما زالت الأسباب ، عاد إلى النفس هدوؤها وبقاؤها ؛ فالأصل في الإنسان أن يكون هادئاً ساكناً سعيداً ، والشذوذ أن يضطرب ويشقى .

فقاطعتني قائلاً : هذا حديث شاعر يسبح في أحلامه الجميلة مغمض العينين ؛ أولى لك أن تصيح بالرياح : أن اسكتي يا رياح حتى يهدأ البحر فلا يموج ، أو أن تهتف بالشمس ساعة غروب جميل أن قيني يا شمس حتى لا يغيب عنا هذا الجمال . . . إن مثيرات النفس قائمة لنا في كل خطوة من الطريق وفي كل منعطف بها ؛ سرٌّ هنا فهنا ما يثيرك ، وسرٌّ هناك فهناك ما يثيرك ، ومِلْ نحو اليمين أو ملْ نحو اليسار ، تجد

مثيرات النفس تتلقفك يميناً ويساراً ، فإذا أنت صانع إذا أردت لنفسك
الطمأنينة والهدوء ؟ بل ارجع إلى دارك وغلّق من دونك بابها ونوافذها
كما ترانى أفعل الآن ، وستلاحقك المثيرات ، حين تستعيد بالذاكرة
ما رأيت وما سمعت ، وحين تضيف إلى كل هذا الذى قد رأيت وسمعت
جديداً من عندك تسرُّ به إلى نفسك .

فسأله : ماذا تعنى ؟

فقال : ألم تلاحظ فى نفسك كيف تتوهم بخيالك أنك تتحدث إلى
فلان أو علان ، فيقول لك كذا فتقول له كيت ، ويفعل كذا فتفعل
كيت ؛ وما تزالان — فى خيالك — تتخاصمان بالقول وتتقاتلان بالفعل ،
حتى تنظر ، فإذا أنت قد احتدمت فى نفسك الثورة واشتد بك الغضب ؟
فقلت : كأنما عداوات العالم الواقع لم تكفنا فزيدها بخيالنا عداوة
وكأنما مثيرات الدنيا من حولنا لم تشبع نفوسنا ، فألهبناها بأوهامنا
حرارة وسعيراً .

فقال — وقد هدأ بعض الشيء — نعم . . . لكن الخير كل الخير
فى أن تنكشف للناس هذه الخواطر الدفينة ، حتى يعلموا حقائق نفوسهم
وما يدور فيها ؛ إنك قد تقاتل خصمك فى خيالك قتالاً ينتهى بك فعلاً
إلى غضبة حقيقية تندفع معها إلى الأخذ بالانتقام والثأر . . . أليس جديراً
بالناس أحياناً أن يضعوا نفوسهم عارية أمامهم لا يجب مكنونها

حجاب ، فلعل ذلك يفتح أعينهم على حقائق مجهولتها فيحورون من سلوكهم بعضهم إزاء بعض بما قد يحد من هذه الضغائن والسخائم التي يكتنونها في أنفسهم كارهين .

وصت صديقي قليلا ثم قال : ولماذا لا أبدأ بنفسى ؟ هذه هى نفسى أضعها أمامك عارية كما وجدتها طوال ساعات العصر — لن أستحي من مكنونها وخبيثها مها يكن خبيثا ، فكل الناس هذا الخبيث — لكنه الرياء يستر ويخفى ..

رأيت ظهر اليوم طفلا أمام الدار يلعب « بالنحلة » فيلف طرف الخيط حول نحلته الخشبية ثم يقذف بها ، فتدور النحلة على سنها فوق بلاط الإفريز دورانا شديدا ، لكن الطفل يخشى على دورانها الفتور والضعف ، فيظل يضربها بعذبة سوطه ضربا متلاحقا ، حتى تدور ولا تكف عن الدوران .. وعدت إلى هنا ، فما هو إلا أن تنزو بنفسى الخواطر المثيرة ، إذ صورت لنفسى فلانا وقد قذف بي على الأرض قذف الطفل لنحلته ، وراح يلهني بعذبات سياطه حتى أدور ولا أكف عن الدوران لنفعه هو ومتعته ، ولا عليه أن أدوخ وأتعب .

إنتى تلك النحلة الدائرة لمتعة غيرها ، أضرب بالسياط لئلا أقف فتقطع متعة المتمتعين — لا تقل إنه وهمك وخيالك ، لأنه عندئذ لا فرق

بين حقيقة وخيال ؛ فانطلقت خواطري متلاحقة ساعات العصر سوداء
قائمة . كأنها أسراب الغربان تحوم في الهواء سابحة متعاقبة ، ثم تدور دورتها
لتعود من جديد ... انطلقت خواطري السوداء متلاحقة فلا أرى الناس
إلا معدّبا بعضهم بعضا — كذب وتفاق هذا الذي يكتبونه في الكتب
ويعظون به في المحافل من أن الإنسان يرجو لغيره الراحة والخير ، فأنت
مشاهد في كل خطوة تخطوها وفي كل ثنية ينعرج بك الطريق فيها ،
دليلا شاهداً على أن الناس يمقت بعضهم بعضا ويوقع بعضهم ببعض
الضر والأذى .

وخطر لي خاطر عجيب ، وهو أن أمزق كتباً عندي تمتلئ صفحاتها
مثل هذا الكذب الذي يكتبه الكاتبون على سبيل الوعظ والتقويم ،
أو لست أدري لماذا يكتبونه وهم يعلمون أنه كذب — أو لعلمهم
لا يعلمون .

لكن خاطر التمزيق لم يكد يطوف برأسي ، حتى اشتدت سرعة
الخواطر الهدامة المشتعلة بالحقد والانتقام — رأيت نفسي أنتظر حتى
ينسدل ظلام الليل فأتمخني تحت ستاره وأقصد إلى دار خصمي الذي يتسم
لي رياء ، والذي تصورته يضربني بعذبة سوطه لأدور كما كان الصبي
يضرب نملته على بلاط الإفريز — أقصد إلى دار خصمي ذاك فأشعل

فيها النار ثم أجرى إلى التليفون القريب لأنادى رجال المطاوع ،
والعجيب أنى استشعرت الراحة للصورتين معا : لصورة النار أشعلها
انتقاما ، ولصورة الشهامة أبدىها في محاوله الإنقاذ ..

قلت لصديقي : ليس عليك من بأس ، فأنت خير حالا من شيطانة
دوستويشكي لأنك هدمت وأصلحت ، أما هي ...

فسألني : وما شيطانة دوستويشكي ؟

فقلت : هي « ليز » الفتاة التي أحبت « أليوشا » في قصة الإخوان
كارامازوف ، ثم أخذتها هذه الدفعة الجامحة بحوارتكاب الشر وإيقاع
الأذى حتى بنفسها ، فأرسلت إلى « اليوشا » — وهو الشاب المتبتل
الورع — فلما سأها : ماذا تريدني ؟ قالت : أردت أن أعبر لك عن
شوق شديد بنفسى ، وهو أن يتزوجنى زوج ليعذبني ثم يخذعنى ويفر
عنى هاربا . إنى لا أريد أن أكون سعيدة .

فقال لها « اليوشا » : أنتشدين السوء ؟ فأجابته : أن نعم ، وما أنتك
راغبة فى إشعال النار فى بيتى ، بحيث لا يدرك الناس الخطر إلا بعد
فوات الأوان فيحترق كل شيء .

قال صديقى — وقد اطمأن نفساً أن يرى الناس فى ذلك سواء —
يظهر أن هنالك لحظات يجب الإنسان فيها ارتكاب الشر وينزع إلى

إلى الجريمة ، ليس الناس ملائكة ولا قديسين ، لكن ما الذى دفع
« ليز » فى قصة دستويشكى أن تنزع إلى هذا الشركه ؟

قلت : لعله مرضها ، كانت كسيحة ثم برئت ، لكنها لم تبرأ كل
البرء ، فربما أشعلت العلة فى نفسها نار الحقد والرغبة فى الانتقام .

قال : انتقام ممن ؟ لقد أرادت أن تشعل النار فى دارها هى ، فهى

الخاسرة .

قلت : نعم ، هذا هو الإنسان وهذه هى طبيعته ، يشتد به الضيق
فيشق ثيابه ويمزقها ، ويضرب رأسه فى الجدار ليتورم ، بل قد يزهق نفسه
بيديه . . . لقد ضاقت « ليز » نفساً حتى طردت حبيبها من الدار ،
وأغلقت الباب على إصبعها عامدة ، ثم أخرجت إصبعها وهو ينز بالدم من
أسفل الظفر ، فراحت تتأوه من الألم وتفرح فى دخيلة نفسها أن أوقعت
بنفسها ذلك الألم . . . إنه الإنسان وطبيعته ، يضيق نفساً فينزل الأذى
بالناس وبنفسه .

هنا قام صديقى وأنا مصباحه — وكان الظلام قد اشتد سواده —
وعاد إلى مكانه منبسط الجبين ، كأنما اطمأن على نفسه من شذوذ ظنه
بها ، وقال : لو لم تسكن « ليز » مريضة لما أحدثت شراً ولا اقترفت إثماً ،
فماذا أنت قائل فيمن نزل بهم المرض مضافاً إليه عرى وجوع وتشريد ؟

الكوميديا الأرضية

يحكى أن شاعراً كان اسمه « دانتى » ، عاش في قديم الزمان
وسالف العصر والأوان ، قد كتب قصيدة طويلة عظيمة أسماها له
الناس من بعده « الكوميديا الإلهية » ، طاف فيها بصحبة أستاذه له
قديم من الشعراء الأولين ، هو « فرجيل » ، طاف بالبحر فوصف
من شهدته فيها من الآمنين وما شهدته من نصباً عليهم هناك من عذاب أليم .
ثم شاء الله — ولا راد لمشيئة الله إذا شاء — أن يبعث « دانتى »
حياً شاعراً كما كان ، وأن يبعث معه « فرجيل » دليلاً هادياً كما
كان أيضاً ؛ وعادت لدانتى شهوته القديمة في وصف الأهوال ، فكان
أن زار بلداً يقال عنه إنه بلد العجائب ، حتى إذا ما رجع إلى بلاده
عمد تَوَّأ إلى ما كان قد كتبه في حياته الأولى ، وأدخل عليه تغييراً
وتحويراً يناسب العصر الحديث ، مستفيداً بما علمته التجربة في بلد
العجائب ، وإدراكاً منه بأن الشاعر الحق لا مندوحة له عن مسامرة
الزمن ؛ لكنه هذه المرة أطلق العنوان بنفسه على قصيدته ، ولم يترك
ذلك للأجيال القادمة ، كما قد فعل أول مرة ، ثم اختار عبارة « الكوميديا
الأرضية » عنواناً لقصيدته الجديدة .

وهاك خلاصة وافية لوصف الجحيم في « الكوميديا الأرضية » كما كتبها الشاعر القديم الحديث .

يقص علينا « دانتى » كيف سار في صحبة دليله « فرجيل » حتى بلغا باب الجحيم الأرضى ، فقرأ على قمة الباب هذه الأسطر الآتية مكتوبة بماء الذهب : « ادخلوا إلى مدينة الأحران ؛ ادخلوا إلى أرض العذاب ؛ ادخلوا بين من ضات بهم السيل إلى أبد الأبدين ؛ فأيها الداخلون انفضوا عن أنفسكم — عند مدخلى — كل رجاء » .

ويدخل الرجلان فإذا بالجحيم هوة سحيقة في هيئة واد طويل مديد ، رأسه عند مركز الأرض وقدمه على حافة البحر ، وجوانبه مدرجة درجات عراضاً ، وعلى هذا الدرج حشر الآثمون ؛ ولا يكاد الشاعران يدخلان أبواب الجحيم حتى يبلغا نهراً يسمى بنهر الأسف والأسى ، وعلى شطه ألفيا نفراً يريد العبور إلى الشاطئ الآخر ؛ وكان العبور تحت إشراف حارس فظيع بشع يجذب الناس جذباً قاسياً عنيفاً ، وعيناه تدوران في رأسه كأنهما حلقتان من نار ؛ فلا يحتمل دانتى هذا المشهد الرهيب ، ويسقط في إغماءة لا يفيق منها إلا على صوت رعد يقصف قصفاً شديداً ، وعندئذ يعلم أنه وزميله قد عبرا نهر الأسف والأسى ، حيث انتهى بهما العبور إلى أولى حلقات الجحيم ، وهاهنا وجدنا عبدة المبادئ الذين أنكروا قوام وأضاعوا حيواتهم في سبيل مبادئهم ؛ ولذلك فقد حق

عليهم الحرمان من نعيم الفردوس ، وأخذت تلدغهم الزناير في وجوههم
وأعناقهم ، فيصيحون من الألم ، ولا يعرفون إلى الطمأنينة والراحة
سيلا . ويمتاز الشاعران هذه المرحلة ليجدا أمامهما فريقاً من الآئمين
المجرمين ، وهو فريق أولئك الذين شغلهم في الدنيا عقولهم عن إشباع
شهوات أجسادهم ؛ وإذا بهؤلاء قد عصفت بهم ريح شديدة فأخذتهم
الراجفة كأنهم الكراكي في العاصفة ، وهنا يقول دانتى : « ها هنا
بدأت أسمع صيحات الحزن والأسى ، فهأنا قد أتيت إلى حيث الأثامات
الشاكيات ، تفرع أذنى فتؤذيها ، إذ ها هنا قد أتيت إلى مكان خفت
فيه الضوء وزمجرت رياح عواصف ، كأنه البحر مزقته العاصفة برياحها
الموج ، وهبت في جنبات الجحيم رياح عاتية أخذت في سورة الغضب
تسوق أمامها هؤلاء الآئمين سوقاً فتدور بأجسادهم حتى الدوار ، وتدفعهم
دفعاً عنيفاً موجماً . . . الخ » .

وهنا سقط شاعرنا « دانتى » في إغماءة أخرى ، لأنه رقيق الحس
كسائر الشعراء ، حتى إذا ما أفاق ألغى نفسه في الحلقة الثالثة من حلقات
الجحيم — في هذه الحلقة الثالثة أعد العقاب لمن عف فلم يلحف في السؤال
عن حقه لدى أصحاب السلطان ، فشهد الشاعران أولئك الخائبين
الخاسرين وهم يتمرغون في حمأة من الطين تحت وابل من المطر والثلج
والصقيع ؛ بينما وقف صف من كلاب وحشية تنبح في وجوههم وتعوى

وتمزق جلودهم تمزيقاً بأنيابها ومخالبها .

وبعدئذ سار الشاعران إلى حيث الحلقة الرابعة من حلقات الجحيم ،
فوجدوا جماعة كانت تشتغل بالإصلاح فتفسد على غيرهم نعاسهم وأحلامهم
ولذلك حقت عليهم اللعنة ونزل العقاب ؛ فرآهم الزائران هناك يدحرجون
جلاميد صخر عاتيات في اتجاهين متقابلين ، ثم لا تلبث جلاميدهم أن
يصدم بعضها بعضاً ، ويعود كل جلود كما كان أول أمره ، فينفجر
الأشقياء المجرمون بالغضب من كثرة ما نالهم من نصب وإعياء ، ويلعن
غريق منهم فريقاً ، لأن كل فريق يعتقد أن الفريق الثاني هو الذي
أتلف عليه ما صنع .

وينتقل الزائران إلى الحلقة الخامسة من حلقات الجحيم ، وقد
خصصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملاً إلى غد ،
ويغضب ويحزن إذا ما رأى من المستهتر تراخياً وتفريطاً — كان هؤلاء
للغفلون يسكنون في الجحيم قاع بحيرة من وحل ، يتهدون تنتفخ على
سطح البحيرة فقاقيع لا تلبث أن تنفجر ؛ وقد قال منهم قائل حين أحس
مرور الشاعرين إلى جانب البحيرة : « كنا ذات يوم حزاناً على القوضى
الضاربة في أرجاء البلاد . كنا رغم الهواء الحلو الذي كانت تبهجه أشعة
الشمس ، نحمل في أجوافنا نفوساً مظلمة وضباباً ثقيلاً ، لذلك حق علينا
الحزن في هذا المكان القاتم » .

وبعدئذ وصل الشاعران إلى مكان الحلقة السادسة حيث أبصرا خلال الضباب الكثيف أبراجاً وقباباً متوهجة بألسنة اللهب ، فقيل لهم إن هذا مدخل مدينة الشيطان ، وكانت طائفة من الجن قائمة على حراسة أبوابها ، ويدخل الرجالن باباً فإذا هما يشهدان سهلاً فسيحاً ملائته أجداث مكشوفة لا يسترها غطاء ، تتأجج في كل منها نار تلتهمه لأن صاحبه كان حراً في رأيه يعلنه كيف شاء ، فحقت عليهم جميعاً هذه الفضيحة المنكرة لجرأتهم الشنعاء .

وبلغ الراحلان حدود الحلقة السابعة من حلقات الجحيم فهبطاها خلال شق من صخور ممزقة الجوانب ، حتى اتبها إلى نهر من دماء وقف في لججه أولئك الحمقى الذين كانوا يتورعون في حياتهم عن اعتراك الأحزاب السياسية ، ويقفون في ركن هادىء يفكرون ، أو يمضون في سبيلهم الجاد ينشئون ويعملون .

وكانت الحلقة السابعة ذات شقين ، فدخل الشاعران شقها الثانى ، وأبصرا فريقاً آخر من المغفلين الذين أخذتهم الغيرة في سبيل الضعفاء والمرضى والمعوزين ، فهؤلاء قد انقلبوا فى الجحيم أشجاراً جافة قصيرة ، تتدلى منها ثمار مسمومة ، وكان كلما انكسر فرع من شجرة تدفق الدم كأنه ينصب من جسم مجروح ، وذلك جزاء ما أحدثوه من قلق فى نفوس كانت آمنة مطمئنة .

وفي الحلقة الثامنة من حلقات الجحيم حشدت طائفة أولئك الذين كانوا لا يراءون ولا ينافقون في عالم خلقه الله للرياء والنفاق ، فحق على هؤلاء الكفار عقاب شديد ، إذ غمسوا في حفرة ملئت ببقار يغلي ؛ وقد يحدث الفينة بعد الفينة أن يعلو الآثم بظهره فوق سطح القار من لدغ الألم ، ثم يمتد في سرعة أين منها لمحة البرق الخاطف . فكما تقف الضفادع من بركة الماء عند حاققتها ، لا يبدو فوق الماء منها غير خياشيمها ، كذلك وقف هؤلاء الآثمون في لجة القار ، ولكن سرعان ما يأتيهم الحارس فيغوص الجفاة تحت الموج .

وقد شهد « دانتي » هنالك مشهداً رهيباً ، إذ شهد أحد الجناة يطفو ويطيل الظهور على سطح القار يعض الشيء ، فجاءه الحارس وأمسك بمخصلات شعره وجذبها جذباً شديداً ، ثم ألقى به في عنف طريماً حتى بدا له كأنه كلب من كلاب الماء .

وفي الحلقة التاسعة حشر أولئك المجانين الأقدام البلهاء الذين استنصحوها في حياتهم فنصحوها بالحق ، فكل فرد من هؤلاء قد ألبسوه هناك قلنسوة ثقيلة من رصاص زخرفوه له بالذهب ، وكلما ثقلت القلنسوة على رأس المذنب حتى مال عنقه إلى صدره ، أهبه الحارس بسوطه على ظهره ، قائلاً له : اعتدل فإن على رأسك طلاء من ذهب هو علامة الصدق في القول والإخلاص في العمل .

وفي الحلقة العاشرة والأخيرة من حلقات الجحيم ، شهد الشاعران — وياهو ما شهدا — شهدا فريقاً من الناس أتوا في حياتهم أمراً إذا ، واقتروا جريمة هيات أن تجدها عند الله غفراناً ، هؤلاء هم الذين لم يتشفعوا بشفيح أو يتوسطوا بوسيط وعلوا في صمت ، مع أن الله قد أراد لهم أن يصيحوا ويملأوا الدنيا جلبة كلما خطوا خطوة أو نطقوا كلمة . فكان جزاؤهم في جهنم أن ينزلوا في قاع الجحيم ، وهو بحر من ثلوج تبدو فيه أشباح المعذنين كأنما هي ذباب يضطرب في وعاء من البللور ؛ وكتب عليهم هناك أن يقرض بعضهم عظام بعض من الجوع كما تفعل الكلاب الجائعة ؛ فهذا جزاء من يعمل صامتاً معتمداً على نفسه ؛ فلماذا خلق الله للناس آذاناً إذا لم يسمعوا بها صياح الصائحين ، ولماذا خلق لهم قلوباً إذا لم ترق لشفاعة المتشفعين ؟

وكانت الكروب عندئذ قد أضاقت صدر «داتى» وطلب من دليله أن يسرع به إلى حيث الفردوس ونعيمه . فها هو إلا أن وجد مركبة مغطاة بالزهر ؛ حملته مع زميله بين مروج من الخضرة اليانعة والقصور الشائخة والأكل الطيب وطمانينة النفس وراحة البال — فها هنا يقيم من رضى عنهم الله من المنافقين أصحاب الشهوة المسعورة والكذب المبين والخداع والرياء . وأفاق «داتى» وهمس لزميله فرحاً مستبشراً ، فقال : ادع لنا الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بهذا النعيم .

خيوط العنكبوت

هذه الصديقة الفاتنة الثائرة لست أدري كيف أنجو من لحظها الساحر،
فإني حيالها لسكالصيد الذي يمرح في حبال صائده . . . عيناها اللامعتان
الصافيتان هما البحر السحيق العميق يغرى ضحيته بهدوئه الساكن ، فيغوص
وراء الآلىء والأصداف ، وإذا هو في لحظة قصيرة بين المغرقين . . . فمن
هاتين العينين تفيض خيوط رفيعة من الضوء ، غزلتها ملائكة أو
شياطين ، وتظل الخيوط الرفيعة اللائاة فياضة تغمرني هنا وهنا وهناك ،
فما هو إلا أن أرانى بين يديها مغلولاً مسحوراً فلا اختيار ولا إرادة .
إنه لولا حبي لهذه الفاتنة لقلت إنها هي بعينها — بل بعينها — تلك
الأفعى التي قالت عنها الأساطير . . . قالت الأساطير إن ثعباناً رقد على
بيضة باضها ديك ، فخرجت من البيضة هذه الأفعى المسحورة الساحرة ،
خرجت ذات رأسين ، في كل رأس منها عين ، فإذا هي نظرت ذات
اليمين برأسها الأيمن أو ذات اليسار برأسها الأيسر ، فقل سلاماً على من
وقعت عليه نظرتها ! إن أسير نظرتها هو إلى الأبد مغلول مشلول منقود
الإرادة ، والويل لمن حدج ناظرها بناظره . . . وفاتنقى الثائرة هي
هذه الساحرة ، غير أن أسيرها ينعم بأسره في حبالها المقزولة من ضوء
عينها .

ليت شعري : هل أدركت هذه الفاتنة كم أضعف لجمال العينين ؟
إنه ضعف أعزوه إلى ما في عيني من علة وكلال . . . كان « نيتشه »
عليلا هزيلا ، وكان ذات يوم واقفاً ليشهد صفوف الجند تضرب الأرض
بأقدام قوية ، وتهز الأذرع هزا عنيفاً ، وتبرز بصدورها بروز الشباب
الفتى المتحدى ، فأوحى له هذا المنظر بما أوحى ، وراح منذ تلك الساعة
يتغنى « بالإنسان الأعلى » ويحلم بيوم يزول فيه الضعف لتمام مكانه قوة
وفتوة ؛ وكان ذلك كله حسرة على ضعفه وهزاله . . . أفىكون عجباً منى
أن أنظر إلى العينين أول ما أنظر ، وأن يأتينى من العينين أول الفتنة ؟
فما بالك والعينان قاتلتان فاتكتان تستحلان سفك الدماء فى الأشهر
الحرام ؟

ولقد اعتادت صديقتى الثائرة ذات العينين الساحرتين — إذا
ما أرادت أمراً — أن تنظر إلى بعينها هنيهة وهى باسمه صامته ، ثم تلقى
أمرها ، فإذا هو بين جنبي الحافز الذى لا تسكن غمزاته حتى يكون لها
ما أمرت به . . . وقد التقينا منذ حين فسألتنى :

— لماذا أغمدت القلم فى غطاءه أشهراً طوالا ، ورقدت رقدة أهل
الكهف أو شبهها ؟ لقد تغير وجه الدنيا ودالت دولة وقامت دولة . . .
قلت :

— وماذا تريدن ؟

— فنظرت إلى بعينيها الواسعتين لحظة ، ثم قالت : اكتب ، اكتب في نقلة الناس من حال إلى حال ؛ فضيت عنها ، لا أدري كيف أهمل أمرها ولا كيف أنهذه ، وعدت إلى مكتبي أقلب الصفحات لعلها تلهمني بما أقول ؛ أو أستلقي على الفراش متفكراً متأملاً ، لكنك تعلم كيف تكون الحال حين يحف مداد القلم وينضب منه المعين ، فتأمل عندئذ ما شئت ، وفكر ما حلا لك التفكير ، فلن تنت الأرض الجذباء شيئاً إلا الحسك اليابس هنا وهناك .

قلت لنفسي : أخرج إلى الطبيعة النقية النسيحة ، فإلا يكن لك منها وحى فعافية ؛ وكان الوقت أول المساء ، وكان القمر قد أوشك على الاكتمال ؛ وكان الجو طرياً رخياً لا برد فيه ؛ فقصدت إلى حضن الهرم الكبير ، وهناك جلست وحدي على صحرة عاتية ، أنظر إلى الفضاء الذي غمره الضوء الفضى ، وإلى المدينة العظيمة الواسعة وقد لمعت مصابيحها التي تقاربت مع المسافة البعيدة ، حتى اختلطت كلها في سحابة خفيفة من الوهج الأصفر ؛ ليس السكون شاملاً ، فأقدام هنالك أخذت تطلق على الحصى آناً بعد آن ، وأصوات يعلو صداها على سفح الهرم ، قد حسبها أصحابها همساً خفياً فإذا هي موجات عريضة متتابعة من الصوت يصطدم بالصخر كما تصطدم أمواج البحر على رمال الشاطئ في ليلة ساكنة الريح ، ثم نق خفيف يقال لى عنه إنه فعل الصراصير ، وخيل إلى أن

بعضه قريب منى ، فنظرت إلى موقع الصخرة من الأرض ، فلم أجد
صرصوراً بل وجدت عُنكباً في خيوطه المنسوجة هادئاً كأنما أسكره
ضوء القمر .

دنوت أتأمل نسيج العنكبوت بخيوطه الرفيعة الواهية . . . واهية ؟ !
سل الذبابة المسكينة التي تتعثر أقدامها في تلك الخيوط أواهية هي ؟ وهل
كنت أستطيع أن أتصور حينئذ الفريسة إذا ما وقعت في تلك الحبال
« الواهية » دون أن أتذكر موقفي إزاء الخيوط النورانية الرفيعة الدقيقة
السيالة التي تنبعث لى من عيني صديقتى ، فتوثقني كأنها أغلظ السلاسل
التي صنعت من أصلب الحديد . ١٢ .

لقد نسجت العنكبوت خيوطها « الواهية » هذه في شكل هندسى
بديع لتحميا ، وأقام « خوفو » هذا الهرم الضخم الأشم ليموت ! فأيهما أحكم
يا أيها الإنسان المغرور ! .

وعدت إلى جلستي فوق الصخرة الكبيرة ، وشخصت ببصرى إلى
القمر ، فامتلات عيني بخيال عجيب ، حاولت عبثاً أن أصرفه عنى فلم
ينصرف ، وظل ماثلاً أمامى يحجب الواقع عنى حتى صار هو الواقع الذى
عشت فيه ما جلست على تلك الصخرة العاتية فى حوض الهرم . . . رأيت
القمر عنكباً ضخماً قد تدلت منه وأحاطت به شبكة من خيوط رفيعة دقيقة
اتسعت وانتشرت حتى ملأت كل أرجاء الفضاء ؛ وعلى الخيوط الممتدة

هنا وهناك رأيت ذبابا يمسك بتلك الخيوط صاعدا عليها في طريقه إلى العنكبوت الضخمة الرابضة في قمة السماء ؛ والذباب الصاعد متفاوت السرعة ، فهذه تصعد في سرعة كأنما هي تنزلق هابطة على سطح أملس وهذه مبطئة ، وتلك متعثره تتقدم حيناً وتتأخر حيناً . . . وكثيراً ما تلتقي ذبابتان في طريق واحد ، ولا يكفيهما الخيط الواحد أن يصعدا معاً جنباً إلى جنب ، فتتشابكان بالأطراف ، وتظل كل منهما تدفع الأخرى إلى أسفل ، هذه تنقلب على ظهرها مرة ثم تستقيم على أرجلها لتسرع الخطى حتى تلحق بزميلتها التي ظنت أن قد خلا لها طريق الصعود ، وما تكاد تمسك بأطرافها الخلفية حتى تشدها شدة عنيفة توشك أن توقعها في الفضاء لولا مهارة تسعفها فتعلق بذراعيها وتتأرجح بجسمها في الهواء ، محاولة أن تثني بدننها إلى أعلى رافعة أرجلها الخلفية حتى تمسك بالخيط من جديد وتأخذ في الصعود مرة أخرى .

الذباب كل صاعد على خيوط العنكبوت ، إن صعوده هذا يكلفه الجهد والمشقة والعناء ، لكنه مريح فرح بصعوده ، ليس في ذلك من شك ، إنه مريح واضح في الذبابة التي تسلت من الزحمة الكثيفة عند أوائل الخيوط السفلى ، فانفسح الطريق أمامها وحدها ، ولم يعد بينها وبين العنكبوت حائل ، وهو مريح واضح كذلك في هذا الذباب المنقاتل المتعارك حين يضيق به الطريق ، وتريد كل واحدة أن يكون طريق الصعود لها قبل زميلاتها .

أنظر إلى الخيوط عند أطرافها السفلى ، حيث أقلها يمس الأرض
وأكثرها يرتفع عنها قليلاً ؛ من أين جاءت هذه الألوف المؤلفة من الذباب
المحتشد المتزاحم ؟ ! لقد كان الهواء صافياً نقياً عند أول قدومي إلى هذا
المكان ؟ أأكون يا رباه في حلم عجيب ، أم أنى في عالم مسحور ؟ أم أنا
كما أناواع يقظان ؟ هاأنذا ألمس الصخرة بأصابعي ، وأخبط الأرض بقدمي ؛
هذا هو الهرم كما ألفته وعرفته ، وهذه هي القاهرة العظيمة بأضواء مصابيحها
كما رأيتها عندما استويت على الصخرة أول مرة ! إلا إن العين إذا توهمت
فالمس لا وهم فيه كما قال شكسبير على لسان ماكبث وهو يتلمس الخنجر..
كلا ، فإنى فى وعى ويقظة بشهادة الحواس كلها ؛ وهذه الألوف المؤلفة
من الذباب المزدهم المحتشد عند أطراف الخيوط السفلى ، حقيقة واقعة
لا شك فيها ؛ وهذه الشبكة التى تملأ أرجاء الفضاء حقيقة لا شك فيها ،
والعنكبوت الرابض فى قمة السماء ناشراً أطرافه الخفيفة حقيقة لا شك
فيها . . .

لكن الألوف المتزاحمة من الذباب ساعية إلى الصعود ، ولما كانت
الزحمة شديدة كثيفة ، كان يستحيل على ذبابة أن تمسك بأول الخيط
— إن كان طرفه مرفوعاً عن الأرض لا يمسها — إلا إذا صعدت على
أكداس من الذباب الساقط ؛ فانظر نحو أطراف الخيوط السفلى تجد
عجيباً ؛ إنه قتال لا ينتضى بين الذباب ؛ والذبابة الظافرة هى التى عرفت

كيف تصرع كذا مائة أو كذا ألفاً من الزميلات ، لتتخذ من أجسادها
سلماً ترتفع به إلى أول الخيط ؟ فلو قد أمسكت بطرف الخيط ، زالت من
أمامها أعقد الحوائل وأعسر العقبات ، ولا يبقى بعد ذلك إلا ذبابات قليلات
يعترضنها في بعض الطريق

إنه طريق إلى العنكبوت الرابض هنالك في قمة السماء ، يلتهم
ما تتناوله أطرافه الممتدة من الذباب الصاعد ؛ لكن الطريق قد زين
في أعين الذباب حتى بدا لها كأنه طريق المجد الذي لا طريق إلى
مجد سواه .

أمعنتُ النظر في المعركة الدائرة بين الذباب عند أطراف الخيوط
السفلى ، فأخذني دوار خفيف حين امتلأت أذني بطينها الممل القبيح ،
فأنمضت عيني بكفي وأدرت رأسي إلى أعلى حتى يخف هذا الطين البشع
القبيح ؛ فارتسمت أمام عقلي صورة واضحة ، أجهدت نفسي بعدئذ لعاني
أتذكر أين رأيتها ، حتى أدركت أنها صورة رسمها شاعر في قصيدة كنت
قرأتها منذ حين بعيد .

هي صورة امرأة تعيش في كهف صخري معزولة عن الناس ، فكانت
تشعل لنفسها ناراً وتجلس أمامها مستدفئة وهي تغزل غزلها الرفيع الدقيق
الذي يشبه خيوط العنكبوت ؛ إنها امرأة عجيبة ولعلها أن تكون ساحرة
لأن لها وجه الفتاة الشابة وشعر العجوز الأشيب ؛ وذات مساء طرق بابها

زائر غريب ، فحيتته بابتسامة ومضت في غزلها ، وراحت تغنى وهي تغزل ،
فيلمع الخيط في وهج النار كأنه سلك الذهب ؛ ولولا لمعة الضوء على الخيط
لما رآته عينا بشر لأنه رفيع دقيق يشبه خيوط العنكبوت ؛ وجلس الشاب
الغريب يرقب الخيط ، ورأت فيه المرأة الساحرة نظرة المتعجب المشدود ؛
فطلبت إليه أن يلفه حول يديه قائلة إنه خيط ضئيل دقيق رفيع ، لكنه
قوى شديد ؛ وشخصت المرأة بعينيها الزرقاوين البراقتين إلى الشاب الغريب
وابتسمت له ابتسامة رقيقة لم يلاحظ فيها شراً ؛ وتناول الخيط منها وأخذ
يلفه حول يديه ؛ ثم ضحكت المرأة الساحرة ضحكة شيطانية فزع لها الشاب
الغريب ، وحاول أن يفك الخيط عن يديه ، لكن هيهات ؛ لأن الخيط
قد نسجته يدان سحريتان . . وعندئذ قامت المرأة فانزعجت من الشاب
خصلة من شعره الفاحم ، وقذفت بها في النار ، وصاحت والشعر يحترق :

« أختاه ! أختاه ! اسمعي صيحتي !

أختاه ! أختاه ! تعالى واشمتي !

لقد وقع الشاب في خيطي الرفيع أسيراً » .

* * *

ورفعت كفي عن عيني ، فإذا السماء صافية راتقة ، وإذا القمر ضاحك
باسم ، ينتقش نوره الفضي في أحجار الهرم ؛ فأخذني فزع ونشوة في آن
معاً : فزع لما أوغلت فيه من عالم مسحور ، ونشوة لأنني قد وجدت شيئاً

أكتبه قضاء لما أمرت به الصديقة الفاتنة .

وعدت مسرعاً إلى داري ، وما أويت إلى مخدعي إلا بعد أن وصفت كل الذي رأيت ، وحملت الوصف مكتوباً إلى صديقتي في صبيحة اليوم التالي ، مغتبطاً لما عساني واجد عندها من إعجاب عودتني إياه كلما كتبت لها شيئاً .

لكني ما كدت أفرغ من قراءة ما كتبت ، حتى ضحكت فيما يشبه ضحك الساحرة قائلة :

— ما هذا يا رجل ؟ إن حديث العنكبوت والذباب قد سمعته منك منذ زمن طويل ، أما يكون عنده من جديد ؟
— فقلت لها وأنا في ربكة شديدة من الخجل : أقسم لك بسحر عينيك ، إنى لا أذكر من القصة القديمة شيئاً ، وأن هذا الذي أرويّه قد شهدته مساء أمس رؤية العين .

فقطبت ما بين عينيها وقالت في صوت حالم :
— ماذا ؟ أيكون الجديد قديماً ؟ أم أنى أنا الأخرى مثلك قد نسيت ؟ ! .

الكراهية الصامتة

عجيبه هذه الكراهية التي قد يحملها الناس أحياناً بعضهم لبعض بغير سبب ظاهر معقول ؛ فترى رجلاً وقد اتخذ موقف الكراهية والمعارضة من رجل آخر ، مع أنهما بعد لم تصلهما صلة من حديث أو عمل ؛ لكنه يحس من نفسه استعداداً لرفض ما عسى أن يقوله هذا الآخر قبل أن يقوله ، لأن رفضه في الواقع منصب على شخصه ، فإذا رأته معارضاً لأقواله مفنداً لآرائه ، فإنما جاء ذلك عن كراهية لاحقة لكراهية سابقة ، إنه قد بدأ برفضه للشخص ذاته ثم عقب على ذلك برفضه لأقواله وآرائه كأنه ما كانت ، فإن قال هذا عن شيء إنه أبيض رأى هو أنه أسود ، أو قال هذا عن شيء إنه أسود ، رأى هو أنه أبيض ، لا إخلاصاً في التعبير عما يراه حقاً وصدقاً ، بل رغبة في نبذ هذا الشخص الكريه بكل ما ينطق به من نبا أو حديث .

وكثيراً ما تكون هذه هي نفسها العلاقة بين جماعة وجماعة أو بين جيل وجيل ، فترى الكراهية بينهما صامتة قائمة متحفزة متأهبة تتحين الفرص والظروف ، حتى إذا ما سنحت لإحداها اللحظة المواتية نفثت سمومها على الخصيمة الكريهة دفعة واحدة ، كأنه

سيل حبيس وجد الثغرة فاندفق ، إنك لتعجب أحياناً كيف تكفى الحادثة التافهة لإثارة حرب طاحنة بين شعبين ، أو لإعلان خصومة حادة بين أسرتين ، والواقع أن قد كانت الكراهية بين الجماعتين قائمة وإن تكن صامتة ، ثم سنحت فرصة إعلانها ، كأنها المرض الخبيث المزمع ، يكمن حيناً حتى ليظن بصاحبه الشفاء ، فإذا لفحة خفيفة من البرد تثير كوامنه وتشعل خوامده .

وبين أبناء الجيلين المتعاقبين تقوم مثل هذه الكراهية الصامتة العجيبة ، فأبناء الجيل المقبل - في أغلب الأحيان - ناقمون ثأرون على أبناء الجيل المدبر ، الأبناء لا يعجبهم سلوك آبائهم ، والأدباء لا يرضيهم أدب شيوخهم ، والمشتغلين بالسياسة يرون في القادة قوة رجعية لا بد من زوالها ، وكذلك آباء الجيل المدبر في أغلب الأحيان مستخفون بأولئك الصغار الناشئين ، حتى ليكاد يستحيل عليهم أن يتصوروا أن من هؤلاء المقبلين أحداً هياً الله للملء فراغهم ، فلا الوالدون يرون في أبنائهم ما عهدوه في أنفسهم من متين الخلق وحميد الخصال ، ولا الأدباء يلمسون في أدب الناشئين شيئاً ذا غناء وبال ، ولا قادة السياسة يطمثون إلى أن هذا الشباب الغرّ قادر على تسيير السفينة بمثل ما سيروها ؛ الجيل المقبل والجيل المدبر ، كلاهما

ينظر إلى الركب ، فإذا هو عند الأول سائر إلى أمام ، وإذا هو عند الثاني منزلق إلى وراء . . . وهكذا ترى ثورة أولئك على هؤلاء ، واستخفاف هؤلاء بأولئك ، مظهرين للكراهية الصامتة القائمة بينهما - الكراهية التي ترفض القول نتيجة لرفض قائله ، ولا تنتظر حتى تسمع ما يقوله القائل قبل أن تنتهي إلى رفض أو قبول .

هكذا قد تكره شخصاً من الناس ولا تدري لماذا ، أو لعلك تستطيع أن تدري لو أخذت في تحليل الموقف على نحو ما يفعل علماء التحليل النفسى فى أمثال هذه الحالات ، فهم يزعمون أن للكراهية سبباً قد طمرته الأحداث فاخفى عن العين السطحية العابرة ، لكنه لا يخفى على العين الفاحصة التى تنبش حتى تزيج عن العقدة الدفينة ركام الحوادث ، فتخرجها إلى ضوء الشمس من جديد .

وإلا فقل لى بربك ماذا ترى بينى وبين هذه البائعة الصغيرة لأوراق النصيب ؟ إنها بنت فى نحو العاشرة من عمرها ، كثيراً ما تطوف بأوراقها مشارب القاهرة ، أراها مقبلة فكأنما رأيت الحية الخبيثة تسعى ، وأسمعها تنطق فكأن الصوت هو الفحيح الذى تقشعر له الجلود ، إنها فى أغلب الحالات تجمىء مصبوغة الشعر فى أصفر فاقع لا يلائم وجهها ، وقد ألبسها ذوها ثوباً ذا بريق عجيب ، شقوه لها - فى أرجح الظن - من ستار نافذة قديم ، وعلى قدميها حذاء أبيض خفيف ، والوجه بين

هذه البقع اللامعة مظل وقد علتها غلالة من قذارة لاصقة يبشرته . . .
يا إلهى من هذه البنت الصغيرة حين تقبل ناظرة بعينيها الضئيلتين من
ذلك الوجه الكريه ! إذا رأيتهما أشحت بوجهى أو أسرعت إلى صحيفة
أو كتاب أدس فيه عيني فلا أراها ؛ وكثيراً ما ناديت أقرب خادم
لأصعب عليه انفعال غضبي أن أذنوا لها بالدخول فى مثل هذا المكان ،
فتتخلل صفوف موأنده ، ولا ترحم حتى هذا الركن الهادىء البعيد
الذى أحب عادة أن أخبئ في ظلامه . . . إنها مسكينة تسعى إلى
رزقها ، وأنا أعلم ذلك ، لكنى أعلم ذلك بعقلى ، أما شعورى الذى
لا حياة لى فيه فهو شعور الكراهية الشديدة التى يستحيل أن أجد
لها سبباً ظاهراً معقولاً ، اللهم إلا أن يكون السبب هو هذا الذوق
البشع الفظيع فى طريقة لفها وطلبيها ، لتبدو - فى ظن من لفها
وطلاها - « للذوات » بنتا من « الذوات » أخنى الدهر على أهلها
فترحم قلوبهم ، وليتنى ألتقى بذويها يوماً ؛ لأنبشهم أن أرحم القلوب
قمن أن ينقلب جلوداً من الصخر لهذه الكتلة المتحركة من الكذب
والزيف .

إنها الكراهية الصامته القائمة بين الناس أفراداً وجماعات ؛ وليقل
فى تحليلها وتعليلها أصحاب البحوث النفسية ما شاءوا من أسباب دفينه
خبيثة ، لأن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، فلا يزال الأمر الواقع هو

أنك قد تحمل لهذا أو لذلك كراهية لغير ما سبب ظاهر ، فتوحى لك الكراهية أن تتخذ الأهبة لرفض ما يقوله الكريه قبل أن ينطق به - وإلى جانب هذه الكراهية التي تحملها لبعض الناس ، حب تحمله لبعضهم الآخر ، يميل بك إلى قبولهم وقبول كلامهم وآرائهم ، كأنها في أذنك النغم الجميل ، وعلى ذوقك العسل المصفى .

فكأنما تسير بين الناس وفي جعبتك عدة شعورية تقابل بها ما يقولونه وما يفعلونه بالقبول أو بالرفض ، لا لأنها مقبولة لذاتها أو مرفوضة لذاتها ، بل لأنك تكره هنا وتحب هناك ، ان من أقوى السمات الفكرية التي قرأتها ، لحظة لنيثشه ، يقول فيها إن منطق الناس لا يسير من المبررات العقلية إلى إرادة أداء الأفعال التي تترتب عليها ، بل يسير على عكس ذلك من إرادة أداء أفعال معينة يشتهيها الفاعل بعاطفته ، ثم يبحث لها بعد ذلك عن مبرراتها العقلية ، أى أنك لا تقول : إن عقلي يرى الصواب من الأمر كذا وكذا ولذلك فإنى فاعل كيت وكيت ، بل تقول : إني فاعل كيت وكيت ولذلك فإن عقلي سيجد له من المبررات كذا وكذا .

العاطفة من حب وكراهية تأتي عند الناس أولا ، ثم يأتي بعد ذلك قبول الآراء ورفضها في ظل تلك العاطفة ، وقد تخف هذه العدة الشعورية عند فرد حتى لا تبدو آثارها إلا لماما وفي لمسات رقيقة ، لكنها قد

تشتد عند فرد آخر فتصبح عاطفة جارفة كماطفة العاشق الوهان أو الوطنى المتحمس أو صاحب العقيدة الذى ملأه الهوس نحو عقيدته - وعندئذ تعمى العيون وتعم الآذان ، فلا يرى صاحب العاطفة ولا يسمع إلا ما يغذى فيه عاطفته تلك ، فعين الرضى - كما يقول الشاعر - عن كل عيب كليّة ، ولكن عين السخط تبدى المساويا .

الملائكة فى عين الكاره أبالسة وشياطين ؛ وعبثاً تحاول إقناع الكاره بتغيير رأيه فيمن يكره ، إلا إذا انتزعت أولاً منظاره الأسود من فوق عينيه ، أما أن يظل منظاره ذاك أمام عينيه ، ثم تحاول بعد ذلك أن تريه بياض الأشياء ونقاءها وطهرها ، فأنت عندئذ كمن يحاول أن يضع النقيضين معاً ؛ والظاهر أن الجماعات الإنسانية قد أدركت ذلك منذ زمن بعيد ، فعولت عليه فى تربيتها لأفرادها ؛ فالجماعة المعينة تريد لأبنائها أن يحبوا شيئاً ويكرهوا شيئاً ، فحسبها أن تلبسهم مناظير فوق أنوفهم باللون الذى تريد لهم أن يروه ، وهى بعد ذلك على يقين من أنهم سيساقون لمشيئتها سوق الأغنام للراعى .

ولعلك تلاحظ هنا أن الإنسان لا يرى زجاج منظاره ، وإن يكن ينظر خلاله إلى كل شيء عداه ؛ ومن ثم لا يدرك المتعصب أنه متعصب ، لا يدرك أبداً إلا إذا جاءت رحمة الله فخلع منظاره الملون عن عينيه ؛ فتعدد الآراء فى الشيء الواحد هو فى الحقيقة اختلاف فى ألوان المناظير ، لا فى الشيء

ذاته ، ولا في العيون التي تستطيع أن ترى الشيء على حقيقته لو مُكِّن لها أن تراه مباشرة و بغير منظار .

قد أنظر إلى الجماعة من الأصدقاء ، وقد أستمع إليهم يديرون المحاورة حول موضوع ، فيقول الواحد منهم رأيا ليدحضه صديقه ، فأهمس لنفسي عندئذ : ترى كم بين هؤلاء الأصدقاء من كراهية صامتة لا تعلن عن نفسها ؟ إن الحب محمود عند الناس ولذلك فهم يسرعون إلى إعلانه إن كان بينهم منه شيء كثير أو قليل ، أما الكراهية فمردولة ممقوتة ، ولذلك فهي مضطرة إلى التستر في صمت وراء أقنعة الرياء ؛ نعم أسأل نفسي عندما تجلس جماعة الأصدقاء في حديثها يدحض بعضهم آراء بعض : ترى إلى أي حد صدر الراض للرأى عن صدق مخلص ، وإلى أي حد صدر عن كراهيته المكنونة في صدره ، التي يحرص على إخفائها حرص تاجر المخدر على إخفاء بضاعته ؟

وإنما جاءتني هذه المقارنة بين الخبيثين ، لأن كليهما قد يثرى صاحبه من وراء الستار ، ولست أدري كم جمعت تجارة المخدر لأصحابها من ثراء ، لكنني أستطيع أن أدلك على طرف يسير مما جاءت به الكراهية الدفينة على الكارهين من ربح نفسي موفور ! فبمقدار كراهيتك للناس والأشياء والأوضاع من حولك ، تكون مقاومتك لها ومحاربتك إياها ، ثم بمقدار هذه المقاومة والمحاربة يكون التقدم بالحياة من حال إلى حال : كره الناس

حكامهم الطغاة فقاتلهم حتى ظفروا بحريتهم من سياط طغيانهم ، وكره
الفقراء أن يتمتع الأغنياء بكل شيء من دونهم فطالبوا بالإصلاح حتى
رأينا الضرائب تجبي بكثرة على الأغنياء ليعيش الفقراء . . . فهذه وأمثالها
كراهيات منتجة ، لكنها أنتجت حين أعلنت عن نفسها ، ولو لبثت
على صمتها كامنة في النفوس لظلت على عقمها .

آه لو شُقت الصدور وفتحت القلوب ، لترى كم اختبأ فيها من عناقيد
الحصرم المر — حصرم الكراهية التي يحملها الناس بعضهم لبعض ، ثم
لا يكشفون ! ورحمك الله يا « فرويد » حين وضعت أصابع الناس على
حقيقة هالتهم وأفزعتهم ، وهي هذا العداوة المستحكمة بين الابن وأبيه منذ
الطفولة ، ولو أدرك الآباء هذه الحقيقة على هولها كله ، لساسوا أبناءهم بما
يخفف حدة هذه الطبيعة البشعة بدل أن يزيدوا النار لهباً وسعيراً . . . هل
تصدق أن هذه البسمات التي يتبادلها الزوجان لا تخفي وراءها كراهية
وضيقاً ؟ هل تصدق أن هذا الود يتقارضه الصديقان لا يطوى في أحشائه
غلا وحسداً ؟ . . . إنه البشر وإنها طبيعته .

وما كل طبيعي مقبول ، فالطبيعي لماء النيل أن يأتي ممزوجاً بالطين .
لكننا ننقيه ونصفيه في المواسير والصنابير قبل شربه ، والطبيعي للطرقات
أن تكون رمالا وأحجاراً ، لكننا نهددها ونرصنها ليسهل السير فيها . . .
فإن كان من الطبيعي للبشر أن تعكر الكراهية قلوب الناس ونفوسهم ،

فلا بد من التنقية والتصفية والتمهيد والرصف حتى يتم التعامل بين إنسان
وإنسان .

فلنعلم من الكراهية التي نحملها في صدورنا عما عساه أن ينتج خيراً
بإعلانه ، كهذه الكراهية التي أعلنتها الشعوب ضد حكامها الطغاة ، والتي
أعلنها الفقراء على الأغنياء ؟ أما ما عدا ذلك فالحير في حبه في الصدور ،
حيث تظل الكراهية هناك بين جدرانها صامته . لا أثر لها ولا خطر ،
اللهم إلا ضيق الصدور الحابسة وكتمة النفوس الكارهة .

عروس المولد

أرسلت إلى قائلة : « لقد أعجبنى كثيراً وصفك للكراهية الصامتة ، حتى تمنيت لو استطاع « الحب الصامت » أن يحظى من قلمك بمثل هذه اللفتة . . . » وتمنيت بدورى لو استطاع قلمى أن يجيب الصديقة الأدبية إلى طلبها ؛ لكنى أحسست فى أعماق نفسى بأننى إذا ما أجريت قلمى فى هذا الميدان ، تعثر وكبا ، فلا أكون جديراً منها بإعجاب آخر .

ترى أين عساي أن أوجه النظر ، لأبصر بالحب صامتاً لا يفصح عن نفسه ولا يبين ؟ إن الناس إذا ما أحس أحد لأحد حباً ، أسرع إلى إعلانه فرحاً فخوراً ، كأنما وقع فى ثنايا الطبيعة الإنسانية على كنز نادر نفيس ؛ إنهم إذا ما أثنى أحد منهم على أحد فى غيبته ، تمنى لو بلغ هذا الثناء صاحبه ، لأنه يعلم أن الفطرة البشرية قلما تجود بهذه اللحظات التى يثنى فيها إنسان على إنسان ، ثناء صادقاً مخلصاً لا ملق فيه ولا رياء .

أتذكر يوم جاء أبوك إلى غرفتك ساعة الفجر يصلى — فما رأيتك مقصراً قط عن أداء الصلاة منذ شببت فوعيت حتى مات — أتذكر وقد أخذ يدعو لك الله فى صوت جهير ، وكنت عندئذ مستيقظاً فى فراشك ، لكنك ظللت مغمض العينين ؟ أتذكره وهو ينبئك على مائدة الإفطار

كيف دعا لك وبماذا دعا ؟ فلما قلت له إنك قد سمعت دعاءه ، لأنك كنت بين اليقظة والنعاس ، تهلل وجهه وانتشى نشوة لم تفارقه طيلة يومه ؟ إنه والد أحب ولده حباً خالصاً ، لكنه لم يطق أن يظل حبه خبيثاً صامتاً ؛ وانظر — إن شئت — كيف يفرح الآباء إذا ما جاءوا لصغارهم بالحلوى ، أنظر كيف يفرحون فرحة مضاعفة إذا كانت الأمهات على مرأى منهم أو مسمع ! إن الوالد حين يعطى صغاره الحلوى ، إنما يعطى أبناءه الذين يحضهم الحب نقياً خالصاً لوجه الله ، لا شبهة فيه ولا شائبة ؛ لكنه مع ذلك يود لو رأت أمهم علام حبه لهم ، لأنه لا يريد للحب أن يمضى خفياً صامتاً ، غير مرئى ولا مسموع .

كلا ، لست أجد المكان الذى أقف فيه لأنظر فأرى الحب صامتاً ، وإذا فلا يجمل بى أن أجيب الصديقة الأدبية إلى طلبها ، فليس المهم أن يكتب الكاتب ليملاً الصفحات ، إنما المهم أن يكون صادقاً فيما يكتب وليقل بعد ذلك من شاء ما شاء .

إنهم يقولون إن الأدب خيال ، وإنهم لصادقون ، فلماذا لا تنسج بخيالك نسيجاً ترضى به الأدبية فيما طلبت . ، وترضى به غرور الناس فى آن معا ، حين تنبئهم بأن قلوبهم مفعمة بالحب ، بعض إزاء بعض ؟ ماذا عليك أن تتخيل زيداً وقد أحب عمراً حباً لم يعلنه بإشارة أو عبارة ؟ . . . لا ؛ إن خيال الأديب ليس معناه أن يطير فى الهواء

بلا جناح ؛ والجناح الذى يطير به هو الواقع الذى يلمسه ويراه .

إن «سرفانتيز» لم ينظر بعينه إلى فارس بين من رأى من الفرسان ،
اسمه «دون كيشوت» فراه يصنع لنفسه خوذة من ورق ، ثم يضرب
الخوذة بسيفه فتمزقها ضربة السيف ، فيعود إلى صنع خوذة أخرى من
الورق ، ويأبى هذه المرة أن يضربها بسيفه خشية أن يمزقها ، حتى يظل
رافلا فى خياله الجميل ، بأنه — كسائر الفرسان — يغطى رأسه بخوذة
تحميه من ضربات الأعداء إذا ما التقى بالأعداء فى قتال . . . إن
«سرفانتيز» لم ير شيئاً من هذا رأى العين ، لكنه خلقه بخياله ، وكان
معنى الخيال هنا أن العين يجوز أن ترى أشباهه فى الحياة الواقعة ؛ ولا أحسبنا
— نحن المصريين — بحاجة إلى غوص عميق فى لجة الحياة الواقعة
لنستخرج منها أمثلة شبيهة بهذا الذى وقى رأسه بخوذة من الورق ، موها
نفسه بأنه قد أصبح كسائر الناس الذين يضعون الخوذات الصلبة فوق
رءوسهم لتحميها .

ولم يكن «لير» ملكاً حقيقياً من أصحاب العروش الذين عرفهم
التاريخ وسجلهم فى كتابه ، بل خلقه شكسبير بخياله ليصور ما يمكن أن
تكون عليه حالة الوالد إذا ما قسم ملكه بين أبنائه أو بناته قبل موته ،
معتمداً على حب الولد لوالده ؛ فهذا «لير» قد قسم ملكه بين ابنتين
من بناته الثلاث ، حتى إذا ما طرق باب الواحدة منهما بعد ذلك ليعيش

في كنفها ، ضاقت به أولاً ، ثم نهرته ثانياً ، ثم طردته ذلثاً ؛ فراح المسكين — من هول الصدمة — في الأرض العراء يهذى ، وما لبث هذيانه أن أصبح جنوناً صريحاً إن شيكسبير لم يرد ذلك بعينه ، لكنه خلقه بخياله خلقاً ، وكان معنى الخيال هنا أيضاً أن العين يجوز أن ترى أشباهه في أى زمان أو مكان .

فلئن كان الأدب خيالياً ، فهو هذا الخيال الذي يستمد من الواقع جناحه ، فلا بد لي — إذا — قبل أن أكتب في « الحب الصامت » أن أراه

يا لسعدى ! وقلما شادت لي الأيام سعداً ! لقد وقعت عيناى ليلة المولد على مثل عجيب من الحب الصامت ، وإذا فسأ كتب للصديقة الأدبية ما أرادت !

هذا صبي في العاشرة وقف أمام بائع العرائس — عرائس المولد — وقفة تفيض بالمعاني ؛ وقف على بعد ثلاثة أمتار أو نحوها ، مثبتاً ناظريه في عروس كبيرة ، والأعجب من هذا أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تنظر إليه لا تزبح عنه البصر ! . . . والله لن أمضى في طريقي حتى أتبين حقيقة هذا الغزل النادر ؛ إن الصبي ينظر إلى معشوقته وعلى فمه ابتسامة خفيفة كلها هيام ، والأعجب من ذلك أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تبتسم له في حنان ظاهر ! من ذا يرتاب في أن العروس قد وقفت

هنالك على شرفتها العالية من دكان البائع تصوب نحو الصبي نظراتها
وتبعث إليه ابتسامها ؟ ألا إنهما عاشقان صامتان ، لولا أن حبه هو قد كان
ممتزجاً باشتهاء الحبيبة ، وأما حباها هي فصادر منها عن عطف وإشفاق ،
ترى شهوته في عينه ولعاب شفقيه ، ويرى عطفها في ابتسامتها ...

لكن أوجه الخلاف بين العاشقين الصامتين بعد ذلك فسيحة المدى ؛
إنه صبي فقير وقف هناك في هلاهيله رغم البرد الشديد ؛ وقف مرتعش
الأطراف تريد عضلاته الصغيرة أن يزحم بعضها بعضاً ليدقىء بعضها بعضاً ؛
ورأيته يرفع إحدى قدميه فيقف بها على أطراف أصابعها ، ونظرت إلى
القدم المرفوعة فإذا آثار جرح كبير في عقبها ، تعرفه جرحاً بمحواشيه القرمزية
المنتفخة ، وأما فجوة الجرح نفسة فقد ملئت بالطين الجاف ، كأنه بركان
ثار وأرسل اللحم ثم خمد مؤقتاً ليثور من جديد بعد حين ؛ لكن الصبي
الولهان ظل واقفاً هنالك يرتعش ويرقب معشوقته المشتهاة في شرفتها
العالية ، إنها بادية الثراء ، لبست ثوباً نظيفاً جديداً لامعاً ، عليه «الترتر»
اللامع الساخط .

شعر الصبي ملبد فوق رأسه خشن بأوساخه غليظ ، وشعر العروس
ممشط ناعم مرسل ؛ وجسد الصبي ملطع بيقع بيضاء من ملح ، وجسد
العروس كله في حلاوة السكر وأشهى ؛ شتان ما كان من فرق بين العاشق
الفقير ومعشوقته الثرية : إنه بقعة سوداء في محيط لامع من الأضواء المختلفة

الألوان والبريق ؛ كان المكان كله يتوهج بالنور ليلة المولد ، وكان الهواء كتلة من الصوت ، فاختلط الصوت بالضوء اختلاطاً يكاد يخيّل لك معه أنك ترى الضوء بـذنيك وتسمع الصوت بعينيك — إلا هذا الصبي العاشق الوهّان ، فقد وقف وسط الضوء اللامع بقعة سوداء من فقر ، ووقف وسط الصوت المدوي قطعة ساكنة من ذل ، ترتعش أطرافه من برد ديسمبر . وترتفع قدمه الجريحة تخفيفاً للألم ، وذراعاها ضاغطتان على بطنه ، إما طلباً لدفء أو دفعاً لجوع ، وقف هنالك بقعة سوداء ساكنة ، رافعاً رأسه قليلاً إلى أعلى ، شاخصاً ببصره إلى عروسه لا يتحول عنها يميناً أو يساراً ولا يتقدم خطوة ولا يتأخر .

فأين ذلك كله من عروسه اللامعة مع محيطها اللامع ، المزدانة في أتساق مع ما حولها من زينة ؟ إنها وقفت هنالك تنظر إليه وتبتسم ، لماذا لاتنزل الدرّج ساعة إليه ؟ إن الفقير والغنية إذا تحاببا ، كان على الطبيعة أن تغير مجراها ، فتخطب الأنثى ود الذكر . لأن الذكر هنا عاجز مهيبض الجناح منتوف الريش ! لقد كان محالاً على الصبي أن يتصور أن عروسه تلك المزدانة ، قد وقفت هنالك في بهرجها ، أمة رقيقة معروضة في السوق للبيع ، ولا تتحرك إلا بإذن صاحبها الذي يتقدم لشراؤها ، كان محالاً أن يطوف بباله أن هذه « الحلاوة » كلها تباع بمال ، وأكثر من ذلك استحالة على تصوره أن يكون بين الناس من يملك المال الذي يستطيع به الشراء !

كيف كان يمكن لصبي في فقره وخبرته أن يتصور أن عروسه تلك
ما يؤكل ؟ كيف يأكلها آكلوها ، هل يبدون بالرأس أم يبدون
بالقدم ؟ وهذا الشعر المناسب الناعم على رأسها ، وهذا الثوب المزخرف
الجميل اللامع . . .

طاخ ! نزلت صفة الشرطى على الصبي إذ هو شاخص ببصره إلى
عروسه يحلم ؛ والشرطى معذور ، لأنه مطالب بحفظ النظام ، وليس من
النظام فى شىء أن يشتهى مثل هذا الصبي مثل تلك العروس ؛ إن فى ذلك
خلطاً كريها لطبقات الأمة غنيها وفقيرها ، وقد كان العشق منذ أقدم
العصور مقيداً بقيود الطبقات ، فلا يكون عاشق من طبقة ومعشوقة من
أخرى . . . طاخ ! صدمت ركلة الشرطى قدم الصبي الجريحة ، فجرى
المسكين صارخاً من الألم فى صوت يشبه عواء الكلب الجريح ، وظل
يحجل على قدم واحدة وهو يصيح ، حتى أوى إلى فجوة باب مغلق خلف
حظيرة الحلوى التى عرضت فيها عروسه ، وجلس هناك فى الظلام باكياً ،
يهز جذعه إلى خلف وإلى أمام ، ممسكاً بقدمه الجريحة بين كفيه .

ونظرتُ إلى الصبي فى ظلامه نظرة أخيرة ، ثم نظرتُ إلى عروسه
فى زينتها وضوئها ؟ نظرتُ إليهما بعد أن فرق قانون الدولة بينهما إلى
الأبد ، فإلى الأبد سيظل حب الصبي لحبيته مكتوماً فى قلبه ، وسيظل
حب العروس لفتاها حباً صامتاً ؛ لكن ابتسامة الصبي قد حولها قانون

الدولة بكاء وأسألها على وجه البائس دموعاً ، وأما ابتسامة العروس فستبقى
ابتسامة — وإن تبدل معناها من عطف إلى سفعية — ستبقى لها
ابتسامتها لأنها في السوق لا تباع بغير ابتسامة .

ومضيت في طريقى وأنا أحمل بين جنبي قلباً من حجر ؛ وهل أَدعى
غير ذلك ما دمت قد رأيت وسمعت ، ثم مضيت في طريقى ؟ وما هو إلا
أن رأيت قوماً تحلقوا يذكرون الله في ورع وتقوى ، فهل كان يسعنى
عندئذ إلا أن أتذكر « فيثيكا ناندا » — من رسل الإصلاح الدينى
في الهند — إذ يقول : « أسى الحقائق هي هذه : الله كائن في الأشياء كلها ؛
إنها صورته الكثيرة إننا نريد عقيدة دينية تعمل على تكوين
الإنسان . . . اطرح هذه التصوفات المنهكة للقوى وكن قوياً . . . ولنح من
صفحات أذهاننا — في الخمسين عاماً المقبلة — كل ما عدا ذلك من آلهة ؛
جنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، يدها في كل مكان ، قدماه في
كل مكان ، أذناه في كل مكان ، إنه يشمل كل شيء إن أولى
العبادات كلها هي عبادة من حولنا . ليس يعبد الله إلا من يخدم مآثر
الكائنات جميعاً » .

لم يكن يسعنى وقد رأيت الذاكرين يذكرون الله بعد رؤيتى لذلك
الصبي يتألم ويعوى ، بكل ما فيه : بقدمه الجريحة وبطنه الجائع ، وجسمه
المرتعش ، وقلبه الوهان ! لم يكن يسعنى وقد رأيت أولئك بعد هذا ، إلا

أن أذكر قول « فيثيكا ناندا » على نحو ما يتوارد الضدان في الذهن ؛
والحق أنى ظلت أذكر ذلك الصبي المتألم الوهان ، كلما طالعت الصحف
ووجدت قصائد « الشعراء » تترى في ذكرى المولد النبوي الكريم :
ترى هل لهؤلاء « الشعراء » قلوب حساسة حقاً كما يتوهمون
ويوهمون ، أم أن قلوبهم — مثل قلبي — قدت من حجر ، فيرون أمثال
هذا الصبي المسكين ليلة المولد ، ثم يمضون إلى مكاتبتهم الدافئة ينظمون
و « يشعرون » ؟ !!

ولكن مالى الآن ولهذا كله ؟ لقد كتبت إلى صديقتي الأدبية
متمنية لو استطعت أن أكتب عن « الحب الصامت » كما كتبت عن
« الكراهية الصامتة » وتمنيت بدورى لو استطاع قلبي أن يجيب .
وحسبت تحقيق أمنيته هذه — فى أول الأمر — محالاً لاستحالة أن يكون
فى العالم حب صامت يقع عليه البصر فيجرى به القلم ؛ ثم شاءت لى الأيام
سعداً وقلماً تشاء ، فأطلعتنى ليلة المولد النبوى على حب صامت عجيب ،
سيظل إلى الأبد قائماً بين صبي فقير عاشق وعروس من الحلوى .

إلى سادتي الحكام

إلى السادة من أصحاب السلطان في هذا البلد أوجه الحديث .. لكن
صفوا سادتي ، فما قصدت بهذا إلى الإساءة عامداً ، فأنا عالم أتم العلم بأن
سادتي لا يقرءون لأصحاب الفكر النظري ما يكتبون ، ومن ثم نجاح
الأولين وإخفاق الآخرين ؛ فهؤلاء قد أوصدوا من دونهم أبواب أبراغهم
وقطعوا الأسلاك التي تصلهم بالعالم الخارجي ، وعاشوا في عزلة موحشة
يقرءون ويكتبون ؛ أما أولئك السادة فقد خرجوا إلى حيث يضطرب
الناس وتضطرب الحياة ، ليحكموا الناس ويمسكوا بزمام الحياة ، فليس
بهم حاجة إلى كاتب يوجه إليهم حديث النصيح والهداية ، وحسبهم
في باب القراءة ما قد طالعوه أيام الطلب في مدارسهم وولاياتهم في عهد
الطفولة والصبا .

لم أقصد يا سادتي إلى الإساءة عامداً ، حين زعمت أني أوجه إليكم
حديثي هذا ، فلست جاداً في استعمال هذه الكلمات ، وإنما الأمر كله
أحلام وأوهام ؛ فالخيال والغرور كلاهما يصوران لي أحياناً أني أكتب
لقارئ ، ثم سرعان ما يول بي الخيال ويشتط الغرور حتى أتوهم أن هذا
القارئ قد يكون من أصحاب السلطان ، فأخاطبه كأنما أخاطب رجلاً

سميماً بصيراً من لحم ودم ، والأمر كله لا يعدو تخليط واهم وأضغاث حالم ،
وكما يقول « جولد سميث » : إذا كانت أحلام الحالم لا تضر الناس فتركوه
يحلم كيف شاء .

أردت أن أقول يا سادتي إنى كنت أقرأ لأفلاطون قراءات مبعثرة
هنا وهناك ، فاستوقف نظري حرص شديد من ذلك الشيخ القديم على
أن ينبه قارئه على مر الأجيال إلى علاقة قوية شديدة بين الخير والجمال ،
فقد أخذ يكرر في مواضع كثيرة أن الخير والجميل شيء واحد ... وفكرت
لنفسى : ترى ماذا يعنى كبير الفلاسفة اليونان بقوله هذا ؟ واتهيت إلى
تحليل أَرْضَانِي ، تترتب عليه نتيجة هي التي أردت أن أسوقها إلى سادتي
الحكام في هذا البلد ، وهي أن كل ما في هذا البلد المسكين قبيح ذميم
بفعل هؤلاء السادة أنفسهم ، وعجبت أن يُعنى السادة بالجمال في مساكنهم
الخاصة وفي ملابسهم وماآكلهم وشتى جوانب حياتهم الشخصية ،
ثم لا تمتد هذه العناية قليلاً لتشمل شئون الشعب الذي ألقى إلى أيديهم
بزمامه ...

فماذا يعنى فيلسوفنا بأن الخير هو نفسه الجمال ؟ سأقص على القارىء
خواطرى كما وردت حين أردت توضيح الفكرة لنفسى ؛ قلت : اختر
لنفسك مثلاً أو مثليين مما يستحيل أن يختلف الناس في أنه خير ، فالصحة
خير من المرض بغير شك ، والغنى خير من الفقر بلا ريب ، وإذا فلنمعن

النظر في هذين : الصحة والغنى ، فهذان مثلان للخير يرضاها الناس جميعاً
وعلى رأسهم السادة أصحاب السلطان ؛ فكيف تكون العافية جمالا ،
وكيف يكون المال جمالا ، وقد عهدنا الجمال على السنة الشعراء لا يكون
إلا للزهرة والجدول والمرأة الفاتنة والقمر الوضاء والشمس وهي غاربة
وما إلى ذلك من ألوان الجمال ؟

ثم سألت نفسي قائلاً : ألا يحسن بك أن تنتقل بنظرك إلى الأشياء
الجميلة أولاً ، لعلك مدرك عنصراً مشتركاً بينها ، هو الذى يجعلها جميلة ،
بمىث تزداد جمالاً أو تنقص بزيادة ذلك العنصر فيها أو نقصه ؟ وسرعان
ما وقعت على الجواب الذى لست أشك فى أنه كان ماثلاً فى ذهن أفلاطون
وهو يفكر فى هذا الصدد ، لأنه جواب أعنقد أن كل مفكر يونانى لم
يكن يتردد فى قوله لو سئل : ما الجمال ؟ وذلك هو احتفاظ الجسم بنسب
معينة بين أجزائه ؛ ففكرة تناسب الأجزاء والوقوف بالشىء عند حد
يرضاه الذوق والعقل معاً ، فى غير إسراف فى هذا الطرف أو ذاك ،
هذه الفكرة كانت تشغل الفكر اليونانى حتى لتصادفك كلما قرأت
لليونان شيئاً .

جمال المرأة الجميلة هو احتفاظ أجزاء جسمها بنسب معينة ، يعرفها
فى عصرنا هذا القائمون على مسابقات الجمال ، فلذراع طول وللساق طول
ولكل جزء من أجزاء الجسد مقياس معين ، ويكون جمال المرأة بمقدار

قربها من تلك المقاييس في أجزاء جسمها ؛ ولكن من الذى يقرر هذه الأطوال والمقاييس ؟ تقررهما التجربة والخبرة والملاحظة ، فأنسب طول للذراع هو نفسه الطول الذى يجعل الذراع فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وأنسب طول للساق هو نفسه الطول الذى يجعل الساق فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وهكذا ؛ فكأنما الذى يقرر لنا تلك الأطوال والمقاييس هو مدى قدرة الأعضاء على أن تحتفظ لنا بالحياة والبقاء القوى السليم .

وبعد أن يتقرر لنا شرط الجمال البشرى ، يتقرر تبعاً له شرط الجمال فى كل شىء آخر ، لأن الإنسان بعدئذ يخضع نظرتة الذاتية على الأشياء ، فما دام الإنسان حين تتوافر لأعضاء جسده النسب التى تجعلها أقدر على الحركة والاحتفاظ بالحياة ، يكون فى الوقت نفسه قد توفرت له صفة أخرى هى التماثل (السيمترية) ، إذاً فليجعل التماثل مقياساً يقيس به جمال الزهرة وجمال البناء وجمال الشعر وجمال الصفوف المنظمة من الجنود وما إلى ذلك .

وما دام الإنسان يتوافر لجسده شرط الجمال حين تتوافر له سهولة الحركة ويُسرها ، إذاً فليجعل من الحركة للنسابة مقياساً يقيس به جمال الجدول الجارى وانطلاق الصوت وكل ما يذكره بحركة الحياة النامية فى جسده هو ؛ كاحمرار الشفق عند غروب الشمس وميوسة الأغصان

وميلاتها السهل مع هبوب الريح ، وصوت حفيفها الذي يذكر بهمس العاشقين .

والخلاصة هي أن رأى الإنسان في جمال الأشياء مستمد في النهاية من رأيه في جمال جسمه ، وجمال جسمه مستمد من خبرته التي دامت على أن الحياة تكون أضمن بقاء حين تتوفر للجسم نسب معينة بين أعضائه ، فهذه النسب — إذا — هي عنده المرجع الأخير .

* * *

وبعد أن قررت لنفسى ذلك في الأحكام الجمالية ، عدت إلى المثليين اللذين أردت بحثهما من أمثلة الخير المتفق عليه . مثل الصحة ومثل الغنى ؛ وسألت : متى يكون الجسم صحيحاً معافى ؟ يكون كذلك حين تلتزم عناصره نسباً معينة . فإذا زاد أو قل السكر أو الزلال أو الملح أو غير ذلك عما ينبغى ، اعتل الجسم ، وكان شفاؤه في الحد من الزيادة إن كانت زيادة ، أو في سد النقص إن كانت قلة .

ومزاج الإنسان يختلف من ساعة إلى ساعة ، فهو الآن في نشوة من نفسه ، وهو الآن في غم وضيق ، لماذا ؟ لأن « مزاج » العناصر يختلف من ساعة إلى أخرى ، فإذا كانت نسبة « المزج » صحيحة كان « المزاج » النفسى صحيحاً كذلك ، وإذا كانت نسبة المزج مضطربة كان المزاج النفسى مضطرباً .

فالصحة البدنية والصحة النفسية على السواء ، هي في أساسها صحة في النسبة بين العناصر ؛ لكن الجمال في الشيء الجميل إن هو — كما أسلفنا — إلا احتفاظ الأجزاء بنسب معينة كذلك ؛ وإذا فالجسم الصحيح هو كذلك جسم جميل ، لأن الأساس في الحالتين واحد ؛ ولما كانت الصحة خيراً متفقاً عليه ، كان الخير والجمال شيئاً واحداً ، وكان الخير هو نفسه الجميل .

وننتقل إلى المثل الآخر من أمثلة الخير ، الذي أردنا تحليله لتوضيح ما أردنا توضيحه ، وهو الغنى — فالمال خير متفق على خيريته عند الكثرة الغالبة من الناس ؛ وحتى أولئك الذين يذمون ويجعلونه شراً ، إنما يذمونهم بالكلام ويسعون وراء جمعه بالفعل والعمل .

لكن الناس كذلك متفقون بما بينهم من فهم مشترك للأمر ، على أن هنالك نسبة معينة لا بد أن يراعيها صاحب الحاجات لإنفاق مقادير معينة من المال بين كسبه وإنفاقه ، فإذا كسب مالا ولم ينفقه لم يكن عند الناس موضع مدح ، كذلك إذا أنفق مالا ولم يكسبه ، بل ترى الناس يكادون يحددون أنواعاً معينة من العمل لكسب مقادير معينة من المال ، ثم أنواعاً معينة من المال المكسوب ، ولا يكون صاحب المال عندهم موصوفاً بالخير إلا إذا حافظ على هذه النسب كلها بين نواحي كسبه وأوجه إنفاقه جميعاً ، فرجل يمدح لأن معظم ماله من كسبه عن طريق العمل ، ورجل آخر يذم لأن معظم ماله هو مال زوجته ، وغنى يمدح لأنه يوجد

بماله ، وغنى يذم لأنه يبخل ، وهكذا .

وهكذا يتوقف الخير المنسوب إلى المال على نسب مطلوبة في طريقة كسبه وطريقة إنفاقه على السواء ، وقد أسلفنا أن التناسب هو أيضاً أساس الحكم بالجمال على الشيء الجميل ، وإذا فإخيراً هنا أيضاً هو نفسه الجميل ، لأن الأصل واحد في الحكيم .

* * *

وأعود إلى السادة من أصحاب الحكم والسلطان ، الذين أوجه إليهم الحديث فيما أوهمت نفسي ، فأقول :

أيها السادة ، لقد اختل في أيديكم الميزان فاضطربت النسبة الصحيحة بين الأشياء والأوضاع ، فامتألت البلاد بالقبح الذميم لأنها امتألت بصنوف الشر ، وقد أوضحنا لكم أن الشر هو القبح ، وأن الخير هو الجمال .
إنكم - فيما أرى - عشاق للجمال في كثير من صورته ، تعشقونه في جميلات النساء ، شأنكم في ذلك شأن سائر الناس منذ كان على الأرض إنسان ، وتعشقونه في الطعام الجيد ، فقد ظهر لنا فيما أسلفناه من تحليل أن الجودة في الشيء هي جماله ، وإذا فالطعام الجيد هو كذلك طعام جميل ، وقد حباكم الله في هذه الناحية بحاسة حادة تميزون بها الجيد من الرديء ، أعني الجميل من القبيح ، وتعشقون الجمال في الجبال الشام المعشوشبة السفوح المثوجة القمم ، وإلا لما تجشتم هذا العناء المضي كل صيف في ارتياد سويسرا وغير

سويسرا من بلاد الجبال ، وتعشقونه في البحر وشواطئه ؛ وتعشقونه في
أثاث منازلهم وفي ملابسهم وبقي ياسادتي شيء واحد لو عشقتم
فيه جماله صلح الأمر كله من أوله إلى آخره - ذلك هو العدل .

كان العدل أقوى مثل وأضخم مثل ساقه لنا أفلاطون - صاحب
فكرة اتحاد الخير والجمال - ليوضح به كيف يكون الاحتفاظ بالنسبة
الصحيحة بين الأشياء جميلاً ، وما العدل عنده إلا هذا الاحتفاظ بالنسبة
الصحيحة بين الأشياء ، فهلا أضفتم ياسادتي هذا الخير إلى سائر خيراتكم ،
فتضيفوا بذلك جميلاً آخر إلى قائمة الجمال الذي تعبدونه في كثير من صورته ؟
الظلم - أيها السادة - يملأ حولكم أركان البلاد ؛ الظلم بمعناه الدميم ،
وهو اضطراب النسبة بين الأشياء والأحياء ، وبالتالي يملأ القبح جنبات
هذا الوادي المبارك الذي أرادله الله أن يكون جميلاً ؛ إنه لا تناسب ياسادتي
بين المناصب وشاغليها ، فصغير عندكم يملأ منصباً كبيراً ، وكبير يشغل
صغيراً ، ولا تناسب بين المرتبات والعاملين ؛ فعامل منتج ضئيل الكسب ،
وخامل لا ينتج عظيم الكسب ، يستمتع بما لم يردله الله ولا طبائع الأشياء
أن يستمتع به من طبيبات .

العدل ، العدل ياسادتي الحكام ، فالعدل خير ، ولذلك فهو جميل .
وأتم من عشاق الجمال .

أبناء الظلام

يتقسم العصر في تاريخ الأمة جيلان : جيل صاعد وجيل هابط ؛ أما الصاعدون فهم أولئك الذين مايزلوان من أعمارهم دون الأربعين أو نحوها ، لا تزال خطاهم ترقى بهم - في حساب الحياة - من درجة أسفل إلى درجة أعلى ؛ وما تزال أبصارهم أثناء السير شاخصة إلى قمة تحجب عنهم نهاية الطريق ، فيحسبون أن ليست للطريق نهاية ؛ كنت أتحدث إلى شاب في الخامسة والعشرين ، جاءني يستشير في أمر مستقبله ، فقلت له إن الطريق الفلانية أضمن لك حين تبلغ الستين . فابتسم قائلاً: إن هذه الستين لا تطوف لي ببال ، كما خلقت الشيخوخة لغيري من الناس ، وكأنما ينحيل إلى أنى سأعيش أبدأ في شباب يتجدد له إهاب كلما أبلت منه إهاباً .

قال لي ذلك ، فذكرت من فوري كيف كانت حالي أيام الصعود ، من عمل متصل فيه الجد والحرمان ، لا أبالي بنتائج عملي كيف تجيء ، أتكون كسباً أم وبالاً ؛ فكنت أبذل من عافيتي وجهدي بذل المسرف المتلاف ، الذي ينفق الألوف بغير حساب ، مستنداً إلى رصيد لا يفنيه تبذير ، كنت أعمل الليل والنهار ثم النهار والليل ، حتى لقد سألتني أستاذ كبير كريم ذات يوم ، حين رأى ما أكتبه أكداً تتلاحق حملاً بعد

حمل ، على الرغم من عمل مضمن لكسب العيش يطول ما طال النهار ، سألتني .
من ذا يعاونك في هذا كله من جماعة الجن ؟ . . . فوا أسفا ، كأنما كنت
أصب الماء في إناء مثقوب ، أو أبذر البذور في حقل يثمر الحنظل ؛ لقد
أكملت من عمري سبعة وأربعين عاماً ، نركتني كالأسطوانة الجوفاء ،
فزرع ولا حصاد ، وحركة ولا سير ، وشيخوخة ولا نمو . . .

وأما الهابطون فهم أولئك الذين قد جاوزوا قمة الأربعين وأخذوا
ينحدرون على السفح خطوة خطوة في سير وثيد ، يرون النهاية بأعينهم
هنالك في أسفل ؛ لم تعد في الطريق قمة تحجبها ، كانت الأبصار إبان الصعود
شاخصة إلى السماء ، وهي الآن منحدره إلى الأرض تتبين مواضع القدم ،
إنه لم يعد في الرصيد المخزون ما يحتمل إتلافاً وإسرافاً ، إن شمعة الضوء
قد ذهب أكثر من نصفها ، فينبغي أن يحيطوا شعلتها بالحواجز الواقية
حتى لا تتعرض للأتواء والعواصف ، ذهب زمان المخاطرة وجاء وقت
الحذر ، لم يعد في طريق الحياة غيب مجهول يستحق المقامرة والمغامرة ،
فكل شيء قد وضع وأنجلي عنه الدخان والقتام ، ستكون كيت وكيت
بعد كذا وكذا من السنين إن طال بك أمد السنين . . .

والعادة — إذا كانت حياة الأمة قوية سليمة — أن يسلم الجيل الدابر
مصايحه إلى الجيل التالي عند قمة الجبل التي تفصل بين الصعود والهبوط .
فتظل المشاعل الهادية عند القمة العالية يتسلها جيل بعد جيل ؛ فتزيدها

الأجيال المتعاقبة وهجاً ونوراً ؛ وبهذا وحده يصعد الصاعدون على ضوء
فلا تنزل لهم قدم في شعاب المرتقى ، ويهبط الهابطون وقد خلفوا وراءهم
مشاعل الطريق ، تطرح أمامهم الظلال التي تزداد طولاً كلما أمعنوا
في المهبوط ، فيزدادون بطول ظلالهم ثقة واطمئناناً بما صنعوا لمن جاء بعدهم
في مراحل الطريق .

وإني لأستثنى حياتنا السياسية وحدها ، وأسأل بعد ذلك : هل حمل
جيلنا الدابر في أيديه المشاعل ليهتدى بضوئها الجيل الصاعد ، أم أن أبناء
هذا الجيل الصاعد يشربون بأعناقهم عبثاً ، ويشخصون بأبصارهم سدى
فلا يجدون أمامهم إلا ظلاماً يتخبطون فيه على غير هدى ؟ — بعبارة
أخرى : هل رسم الجيل الدابر خلفه للمثل العليا التي يترسبها في شتى جوانب
حياته ؟ وقد استثنيت الحياة السياسية ، لا لأني راض عنها كل الرضا ،
بل لأن رجال السياسة — إلى جانب نقائصهم الفادحة وعيوبهم البشعة —
قد رسموا المثل الذي ترسمه : وهو أن نعمل في سبيل تحرير أنفسنا من
الغاصب ، وها نحن أولاء ماضون فيما دعونا إليه ، وكأننا ينظر شباننا
فلا يرون أمامهم أفكاراً تنتظر التحقيق ، إلا الأفكار التي يدعوم
السياسة إليها ، فيصرفون بكل جهدهم نحو هذه الغاية وحدها ، ولا عجب ،
فلم يقم غير رجال السياسة بوضع غايات أخرى أمام الشباب إلى جانب
تلك الغاية ؛ فيستحيل أن يقع اللوم كله على الشباب ، إذا رأيناهم قد

ذابوا في مجرى الحياة السياسية ذوباناً يختل معه توازن الحياة .

* * *

لاني رجل قد أصيب في عقله بمرض اسمه « تحديد المعاني » ؛ فإذا يراد بعبارة « المثل الأعلى » ؛ لأنه من الخير — قبل المضي في حديثنا — أن نعلم في أي شيء يقوم الحديث .

المثل الأعلى فكرة يؤمن بها صاحبها وتشتد به الرغبة في تحقيقها ، لكنها رغبة تختلف عن رغبته في تحقيق راحته الشخصية وامتعه ؛ فقد تكون لدى فكرة أن يكون لي منزل أملكه في نهاية مراحل عمري لأتخذ منه مأواي الهاديء عندئذ ، وقد تشتد بي الرغبة في تحقيق هذه الفكرة ، لكنها مع ذلك لا تكون « مثلاً أعلى » ؛ وقد تكون لدى فكرة أن أبلغ منصب الوزارة ، وقد تشتد بي الرغبة في تحقيق هذه الفكرة ، لكنها أيضاً لا تكون « مثلاً أعلى » — لماذا ؟ لأن المثل العليا أفكار تؤمن بها ونرغب في تحقيقها ، ثم يشترط فيها إلى جانب ذلك ألا تكون قاصرة على العنصر الشخصي ، بحيث تصلح أن تكون موضع اشتهاة أبناء المجتمع جميعاً ؛ « فالمثل الأعلى » فكرة مرغوب في تحقيقها ، لكنها لا تتصل بذات الراغب اتصالاً يحصرها في مصلحة تلك الذات وحدها ، بل تصلح إلى جانب ذلك أن تكون هدفاً للجميع على السواء .

فإذا رغبت في أن يكون لدى ما يكفيني من الطعام ، فليس ذلك

« مثلاً أعلى » أما إذا رغبت في أن يكون لدى كل إنسان ما يكفيه من الطعام ، ثم عملت على تحقيق تلك الرغبة بأية وسيلة مؤدية ، كان ذلك « مثلاً أعلى » ؛ وإذا رغبت في أن يعاملني الناس بالحسنى ، لم يكن ذلك « مثلاً أعلى » ، وإنما يكون كذلك لو رغبت في أن يعامل الناس جميعاً بعضهم بعضاً بالحسنى ، ثم عملت على تحقيق هذه الرغبة ؛ وإذا رغبت في أن أكون عالماً يتقضى في الطبيعة حقائقها ، فليس ذلك « بالمثل الأعلى » وإنما يكون كذلك لو رغبت في أن يكون العلم هو الأساس السائد في حياة الناس بحثاً وكشفاً ، أو عملاً وتطبيقاً ؛ وإذا رغبت في أن أستمع بنحو معين من ألوان الفن ، كأثر ما كان ، عمارة أو نحتاً أو تصويراً أو موسيقى أو ضرباً من ضرب الكلام ، فليس ذلك وحده « بالمثل الأعلى » ، ولا يكون كذلك إلا إذا تمنيت لهذا اللون المعين من الجمال أن يشيع تذوقه بين الناس أجمعين .

ولا بد لي أن ألاحظ هنا ، أن الأمر كله قائم على « الرغبة الشخصية » في نهاية الأمر ، لكن هذه الرغبة الشخصية لا تكون مثلاً أعلى إلا إذا جاوزت حدود صاحبها بحيث تمنّاها صاحبها للناس جميعاً ، ومن ثم تختلف « المثل العليا » في العصور المختلفة ، لاختلاف أهل تلك العصور في رغباتهم التي يسعون إلى تحقيقها تحقيقاً شاملاً ، فيصح أن نقول عن عصرنا هذا إن الحرية الفردية من بين مثله العليا لأن هناك من أبنائه

من أرادوا لأنفسهم هذه الحرية الفردية ثم أرادوها للناس أجمعين ، لكن هذه الحرية الفردية لم تكن هي المثل الأعلى في كثير جداً من العصور السابقة ، حين كانت عضوية الفرد في جماعة ، وانطوائه في أسرته أو في قبيلته ، هي المثل الأعلى المنشود - ولعل هذا المثل الأعلى الذي ينشد الحرية الفردية ، هو نفسه الذي انبثق منه مثل أعلى آخر لعصرنا ، وهو أن تمنحى الحاجز التي تفصل بين الأمم ، لتعيش الدنيا كلها مجتمعاً واحداً ، لأن الفرد لا يتحرر حقاً باعتباره فرداً قائماً بذاته ، إلا إذا أزيلت عن عاتقه الروابط المكانية التي تجعله تابعاً بالضرورة لهذا الوطن أو ذاك .

نعم تتغير المثل العليا من عصر إلى عصر ، فجمهورية أفلاطون كانت صورة للمثل الأعلى كما أرادها للناس في حياتهم الاجتماعية . وفي رأي أنه يستحيل على كاتب معاصر أن يتمنى للناس مثل هذا النظام ، الذي لا يمنحهم إلا بالانتصار في الحروب الخارجية ، وبتوفير الطعام في الداخل ؛ إنه مجتمع يخلو من البحث العلمي ومن الفنون ، فأين هذا المفكر اليوم الذي يرسم لنا مثلاً أعلى لتحقيقه ، فيرسم لنا حياة لا علم فيها ولا فن ؟ الحقيقة أن هذه الجمهورية الأفلاطونية قد أزاغت الأبصار عن حقيقتها قروناً طويلة ، وحسبها نموذجاً لزمانها وغير زمانها ، ولو أمدنى الله بقوة أحقق بها مشروعات كثيرة أتمنى أداءها ، فسيكون من بينها تحليل هذه الجمهورية تحليلاً يبين مواضع النقص فيها باعتبارها مثلاً أعلى يصلح لزماننا ، كما يقع في وهم كثير

جداً من شباننا الذين يتاح لهم أن يلموا بطرف منها - لكن ذلك لا ينفى إمكان صلاحيتها مثلاً أعلى لزمانها .

* * *

ولنا في ضوء هذا التحليل أن نسأل : هل طافت بروس الجيل الدابر أفكار ، اشتدت بهم الرغبة في تحقيقها ، بحيث تصلح كذلك أن تكون موضع الرغبة عند الناس جميعاً ؟

هل بينهم مثلاً من أخذ ينادى بفكرة في النظام الاقتصادي على نحو مفصل بحيث تحمس لها وراح ينشرها بكل وسيلة ممكنة ؟ فإذا شخص الجيل الصاعد بأبصاره ليهتدى في هذه الناحية من حياته ، أفتراه واجداً عند الجيل السابق ما يهتدى به ، بحيث يتحمس بدوره لهذا المذهب الاقتصادي أو ذاك تحمساً بصيراً مستنيراً ؟

هل بينهم من جعل ينادى بطريقة معينة في المعيشة الفردية ، يحياها هو أولاً ، وينشرها بكل وسيلة ممكنة حتى يجد الجيل المقبل نماذج يتخير منها ما يشتهي ؟ إن غاندى بطريقة عيشه كان ينشر « مثلاً أعلى » لأنه تمنى لنفسه وللناس . و « سارتر » برأيه في الوجودية ينشر « مثلاً أعلى » لأنه كذلك يتمنى لنفسه وللناس ؛ وقد تعدت أن أضرب هذا المثل الأخير ، لأنى أعلم أن كثيرين ممن يسيئون فهم وجودية سارتر ، سيقولون : أين « العلو » في هذا المثل ؟ فأجيبهم بأن أية فكرة كائنة

ما كانت ، تصلح أن تكون « مثلاً أعلى » ما دام صاحبها « يعيشها »
ويحاول أن يشرك معه الناس فيها — والفرض هو بالطبع ألا يتمنى
الإنسان لنفسه إلا ما يراه مؤدياً إلى الحياة السعيدة .

أين بيننا « المدارس » الفكرية على النحو الذي نراه في الأمم الحية ؟
ضع أمامك قائمة بعشرة من أئمة الفكر في جيلنا الدابر، وحاول أن تصنفهم
شيعاً مختلفة من فلسفات أو مذاهب في طرائق العيش ، فان تستطيع ؛
ذلك لأن تفكيرهم لم يقم على أساس المذهبية التي تصدر عن عقيدة
وإيمان ، وبالتالي لم يكن لديهم « مثل عليا » بالمعنى الذي حددناه .

إننا أمة بغير مثل عليا ، إن قادة الجيل الماضي — من غير رجال
السياسة — لم يحملوا لمن يجيء بعدهم المشاعل ، فجاء هؤلاء وهم يتخبطون
في الظلام .

عالم قلق

ترى هل شهد التاريخ كله فترة اشتد فيها القلق كما يشتد في هذه الفترة التي يجتازها العالم اليوم؟ لست أدري، فليس يعيش الآن على وجه الأرض إنسان واحد قرير العين مطمئن النفس هادئ البال .

إنها فترة كفاح وجهاد وحرب وقتال؛ فالشعوب المغلوبة تحاول أن تقف على أقدامها، والشعوب الغالبة تريد الثبات في مواقفها، والدول القوية بعضها مع بعض تصطرع ابتغاء السلطان والسيادة... والغالب والمغلوب والسيد والمسود جميعاً قد ضاقت نفوسهم، واكفهرت الدنيا من حولهم، فاشتدت بهم الرغبة في شيء يؤمنون به — أي شيء كأن ما كان، لذلك كثرت بيننا المذاهب الفكرية، والمعتقدات السياسية، كثيرة لا نحسب أن قد سبق لها نظير في عصور التاريخ الماضية .

فقد يحس الفرد منا إزاء ما شمل العالم من قلق واضطراب انه لا ينبغي له أن يجلس أمام مسرح الحوادث راثياً سامعاً لا يعمل شيئاً، وأن نفسه لا تستريح وضميره لن يرضى إلا إذا قام بنصيب — مهما يكن ضئيلاً — في إعادة البناء المنهار، لكنه إذا ما همَّ بالعمل أدرك من فوره أنه لا بد له من جماعة ينضم إليها، لأن مجهود الفرد الواحد هباءة لا تغنى ولا تسمن،

ولا يبعد أن يقع على أقرب جماعة منه دون أن يفكر طويلاً في هل تعمل هذه الجماعة التي ينضم إليها في سبيل ما ينشده هو لنفسه ولسائر الناس ، أم أنها تعمل في طريق يعكس له أهدافه المنشودة . . . لكنه قلق يريد أن يعمل شيئاً وحسبه ذلك ، لأن النار قد أوشكت أن تأتى على الحياة كلها ، أخضرها ويابسها على السواء ، فكثرت الأحزاب والهيئات والجماعات في أنحاء العالم ، كثرة - كما أسلفت - منقطعة النظير .

إن النفوس القلقة تدفع أصحابها إلى العمل ، تدفعهم إلى العمل السريع ، فتراهم يغدون السيرو ويحثون الخطى ، لأن السير المتمهل لا يكفي ، والخطو البطيء مضيعة للفرص ، ولذلك امتلأت أركان الدنيا بالنظريات المتطرفة والمشروعات الجريئة ، والانقلابات السريعة . . . قل ذلك في الأمم وفي الأفراد على السواء ، إن الريح البطيء المطرد الثابت لم يعد يرضى النفوس المتعطشة العجلى . انظر إلى عالم التجارة والأعمال تجد ألوفاً من الناس ينزلقون على السفوح الثلوجة انزلاقاً سريعاً ، إنهم لا يقنعون بالخطوات الوثيدة على الأرض الصلبة الثابتة ، فالحياة قصيرة المدى والجو مكهرب من حولهم ، فقيم الوقوف والتمهل والانتظار ؟ إن السلامة لم تعد في التأني ، فإلى الغاية المنشودة انزلاقاً ، ولئن سقط في المعمان رجل فإلى جانبه ألف رجل بالغون المدى .

إن العالم اليوم في لهفة عجيبة يكتنفه الظلام ، فينشد الضوء مهما يكن مصدره ، فكل صائح أتباع أيّما كانت صيحته ، ولكل داع مستجيبون مهما تكن دعوته ، لقد تقسمت الدعوات الكثيرة سكان الأرض بصفة عامة ، وأهل أوروبا المعاصرة لنا اليوم بصفة خاصة ، فيها الآن مائة مذهب ومذهب ، هذا داع يدعو إلى الرجوع إلى حظيرة الدين فيستمع إلى دعوته فريق ، وذلك داع يدعو إلى طرح الإيمان الساذج والاستمسك بالعقل وحده فيستمع إليه فريق آخر ، وذلك ثالث يهيب بالناس أن عودوا إلى غرائزكم فأشبعوها ، لأن الحياة الطبيعية هي أسلم الحياة ، فيستجيب له فريق ثالث ، ثم هذه ديمقراطية وتلك اشتراكية ، وهذه شيوعية وتلك دكتاتورية عسكرية ، وهلم جراً . . . ذلك كله لأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بما هم فيه ، ويريدون التغيير - أي تغيير .

وكان مما زاد مرارة طعم الحياة في أفواه الناس ، أنهم فتحوا أعينهم على الواقع ، بعد أن كانت أعينهم مغمضة لسبب أو لآخر ، أقول لسبب أو لآخر ، لأن السبب لم يكن واحداً بالنسبة للناس أجمعين ، إذ كان العالم حتى عهد قريب ينقسم قسمين رئيسيين ، فإما أغنياء قد طفحت بيوتهم بأسباب النعمة والرخاء ، وإما فقراء يكدحون في سبيل لقمة العيش وخرقة الثياب ، فأما الأغنياء فقد ألهام التكاثر وأعمام الغنى ، فلم يروا من

الحياة إلا مطاعم تفوح وصالونات تتألق ، وأما الفقراء فقد أشقاهم الكدح المتصل عن التفكير في أنفسهم أو في غير أنفسهم ، فالدنيا كلها في أعينهم فأس تضرب الأرض بياض النهار ، وكوخ معتم سواد الليل ؛ ومن ثم استقرت الحياة بهؤلاء وأولئك ، وبدا عليهم الرضى ؛ أما اليوم ، فعظم الناس - في أغلب أنحاء الدنيا - طبقة متوسطة ، ليس لديها الثراء الذى يُلهى ويُعمى ، ولا الفقر الذى يهلك ويحطم ، فوقفوا بين بين ، يعملون ساعة وينظرون إلى ما حولهم ساعة ، فتفتحت عيونهم على الواقع كما هو ، فإذا الواقع علقم وحنظل ، وإذا الضرورة الملحة تقضى بتغيير ذلك الواقع المرير في أسرع وقت مستطاع . . . فنشأت بذلك عند الناس لهفة نحو انقلاب الأوضاع ، ومن ثم كثرت الأحزاب والجماعات وتنوعت الآراء والمذاهب .

ألا تسمعهم يصفون لك هذا العصر بأنه عصر السرعة ؟ إنها ليست سرعة القطارات والطائرات وكفى ، بل هى السرعة التى انتابت النفوس فى لهفتها على تغيير حالها ، ولذلك تراه عصرأ يتميز بكثرة المعايير الخلقية والجمالية ، إنه لا يستقر على معيار واحد يرضى الناس جميعاً ، لأنه عصر قلق وتغيير ، فهذا يأخذ بمعيار جديد ، وذلك يظل مستمسكاً بمعيار قديم ، وثالث يأخذ بالقديم تارة وبالجديد طوراً ، وكلهم مخلص فيما يأخذ به ،

فهم جميعاً متفقون على شيء واحد ، هو ضرورة تغيير الأوضاع الراهنة لأنها لا ترضى أحداً .

إننا نعيش في عالم قلقٍ ، يفرع أهله أن تضيع من وقتهم لحظة سُدى ، لأنهم مسرعون ، متلهفون ، يغذون السير ويحثون الخطى ؛ وكان حتماً أن يسائر التفكير هذه السرعة ويماشيها ، فلم يعد الوقت يتسع عند الكثيرين لقصة طويلة يكتبها لهم أديب هادئ الفكر طويل البال ، لأن الأمر لم يعد تسلية وهوأ ، بل هو جدٌ وعزم وصرامة ؛ وإذا فأجدى على أصحاب الفكر أن يتجهوا بفكرهم نحو شيء آخر غير الأدب الذي خلق للفراغ والمتعة ، فإن كان حتماً أن يكتب لنا أديب ، فلتكن كتابته أقصوصة قصيرة للترام أو القطار ، فإن أطل فليتجه بإنتاجه نحو السينما ، لئرى قصته ساعة استرخاء ، بأقل مجهود ممكن . . . لكن الله قد أراد لنفر من الناس أن يكونوا أدباء على رغم هذا الصراخ كله وهذه العجلة كلها ، فإذا عساهم يكتبون ليرضوا أنفسهم ؟ إن العالم من حولهم قلق مضطرب فوار ، فإما أن يندفعوا في تيار الحوادث الدافق ، فيكونوا من رجال الصحافة لا من رجال الأدب بمعناه الصحيح ، وإما أن يلتمسوا مرحلة أخرى من مراحل حياتهم ، كانت أنعم روحاً وأهدأ محيطاً ؛ فلا عجب - إذا - أن نسمع أن كثيرين من أدباء أوربا اليوم قد

انصرفوا نحو ماضيهم يؤرخونه ويسجلونه ، لأنهم يجدون في ذلك
الماضى حياة مستقرة هادئة بعض الشيء ، تصلح للتصوير الذى يرضى
عشاق الجمال .

عالم قلق هذا الذى نعيش فيه ، ينهار فيه بناء ليقوم مكانه بناء ،
ويندك فيه نظام ليحل محله نظام ، والدعوات فيه متلاحقة متتابعة ،
لا تكاد الدعوة منها تبلغ الأسماع حتى تنسخها دعوة . . . هل رأيت
حركة الهدم والبناء من حولك في بلد كالقاهرة — مثلاً ؟ فقد تغيب
شهرين عن حى من أحيائها ثم تعود لتجد عمارة شاهقة أقيمت ، أو لتجد
بناء مألوفاً لك قد أيد ؛ ففي كل حى ، بل في كل شارع ، بل في كل
ركن هدم وبناء ؛ والسمة التى تسم الحركة كلها هى السرعة اللاهثة ،
و « المرجلة » التى لا تعبأ بشيء من ترتيب أو تنسيق . . وهكذا العالم
كله الذى نعيش فيه اليوم ، ففيه الهدم والبناء ، ثم الهدم وإعادة البناء ،
يتلاحقان فى مثل هذه السرعة اللاهثة المحمومة ، وهذه « المرجلة » التى
لا تجد الفراغ للروية والتأني لعلها توفق إلى شيء من ترتيب يدوم
أو تنسيق يرضى .

لكن هذا العصر القلق الثائر الفائر المتغير المتحول ، هو عصرنا
الذى خلقنا له لنعيش فيه ، فلنضرب على نفس الأوتار التى يضرب عليها

سائر العازفين ، لتأخذنا حتى القلق التي أخذت بسائر أنحاء العالم المتحضر ،
ولتهتز أعصابنا بما اهتزت به أعصابه من دعوات ومذاهب ، وأفكار
ونظم ، إن كان عالماً مدججاً بسلاحه فلنأخذ في التسليح ، أو كان عالماً
جشعاً فلندعُ الناس إلى النهم الذي لا يشبع . . .

حرام يا أصحاب الأقلام أن تهدهوا الناس بأناشيد المِخَادِيع التي
تجلبب النعاس ، بل أوقدوها تحت الجنوب جمرات حتى تستيقظ العيون
وتأرق القلوب ، في هذا العصر القلق المضطرب اليقظان .

نفوس فقيرة

الفقر صورته شتى . . .

فمنها اليباب القفر الذي تلهب رماله بوقدة الشمس ، حتى لتقلب
حبات الرمل على سطحه جمرات من نار ، وتهب عليه الريح السموم فإذا
هي ألسنة من اللهب تنفثها جهنم ؛ هذا اليباب إذا ما شاء له القدر يوماً أن
يصيبه شيء من المطر ، غاص المطر في جوفه وغاب كأن لم يكن ؛ فهو قفر
كما كان ، لا زرع فيه ولا ضرع ، إلا أشواكا تنشب على وجهه هنا
وهناك فتزيده فقراً على فقره .

ومنها الصخر الأجرد الذي صلد صدره وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر
جوفه عن قطرة أو نبتة ؛ إذا سال عليه الماء انحسر عنه لأنه مغلق أصم
عبوس مخيف ؛ فلا هو يخرج من جوفه شيئاً ، ولا هو يفتح مغاليقه ليتقبل
بما حوله شيئاً ؛ لا أمل فيه لمسافر ولا رجاء عنده لضال .

ومنها السماء لا تجود بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتتشقق ،
ويجف الزرع ويموت ، وتشخص الأبصار إليها ضارعة ، وتصعد الدعوات
إليها مسترحة ، لكنها كالحلة مصفرة الوجه لا تجود .

ومنها الوردة تذبل وتذوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء ،

تفركها بين إصبعيك فإذا هي رماد تذروه الريح مع التراب والعفر ؛ ومنها
الجدول غيظ ماؤه ، تعبره ماشياً على قدميك ، فترن أصداء خطاك بين
صخوره لخلائه وفراغه .

ومنها الجيوب تخلو من المان ، فيمضي صاحبها بين أكداس الطعام
في الدكاكين وهو جائع ، لأنه لا يملك أن يستجيب للمعدة تناديه ولبائع
الطعام يغريه .

لكن لا اليباب القفر الذي تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ولا الصخر
الأجرد الذي صلد صدره وتصلبت أطرافه ، ولا السماء اليابسة ولا الوردة
الذابلة ولا الجدول غيظ ماؤه ولا الجيوب الخالية من المال ، بمستطاعة
أن تعبر عن الفقر بأبلغ مما تعبر عنه النفوس الفقيرة !

فقيرة هي تلك النفوس التي يعيش أصحابها فيما نعيش فيه ولا تتأثر
كأنما تنظر العين ولا ترى ، وتسمع الأذن ولا تسمع ، وكأنما قد قلب
من صوتان ، فتجري في شعابه « مجارى » الدماء ، لا تترك وراءها ثمراً
ولا أثراً ، كالماء يهبط على رمال اليباب البلقع فيفيض فيه بغير زرع ،
أو يسيل على الصخر الأصلع فينحسر عنه ولا حياة ! إن القلب الفقير
عضلة تصلح لمبضع التشريح ولا تصلح لريشة الشاعر ؛ وصاحب النفس
الفقيرة كالمذياع التالف ، فيه المغاتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء
من حوله يعج بموجات الصوت وهو أبكم ، لا يلتقط ولا يذيع .

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى خارجها لتفتي ما يسد لها ذلك الخواء ؛ وماذا تفتي ؟ تتصيد أناساً آخرين ذوى نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها ! إنها علامة لا تخطيء في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحيثما وجدت طاغية — صغيراً كان أو كبيراً — فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه ؛ إن المكتفى بنفسه لا يطغى ؛ إن من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه ؛ وإذا فنادا أقول ؟ أقول إن الطغيان قد امتد بجذوره في ربوع الشرق لجذب نفوس أهله ؟ .

أى والله ، لقد ضرب الطغيان بجذوره في ربوع الشرق منذ آمام بعيدة سحيقة ، حتى أصبحت لفظتا الشرق والطغيان مترادفتين أو كالمترادفتين ، فهما تصادفانك متجاورتين متلاصقتين في كثير من الآداب الأوربية ؛ لا ! إني أرى الكلمة على شفئك فلا تقلها ! لا تقل دهشاً : أى طغيان ؟ لا تقل إن لنا دستوراً يجعل الناس سواسية ويحرم الطغيان ، فالطغيان في دماغنا : الحاكم الشرقى طاغية ، والرئيس الشرقى طاغية ، والوالد الشرقى طاغية ، والزوج الشرقى طاغية ، والموسر الشرقى طاغية — طغاة هؤلاء جميعاً ، لأن في نفوسهم هزالاً يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم . . . قال أمامى وزير مصرى لست في حل من ذكر اسمه ، قال ذات يوم وكنا في لندن ، وكان مؤتمر سياسى منعقداً هناك ،

وجاء مستر بيغن - وزير خارجية إنجلترا إذ ذاك - جاء إلى المؤتمر السياسي يمثل بلاده ، مشياً على قدميه ، وليس وراءه ولا أمامه « زفة » تطبل وتزمر ؛ فقال الوزير المصري على مسمع مني : كنت أتصور في الديمقراطية الإنجليزية شيئاً كثيراً ، ولكني لم أكن مع ذلك أتصور أن يبلغ بها المدى هذا الحد البعيد ، أوزير خارجيتها يجيء إلى مؤتمر كهذا وسط الزحام راجلاً ؟ فكدت عندئذ أصبح في وجه الوزير المصري قائلاً : أستحلفك الأهل والولد يا معالي الوزير أن تذكر ذلك عند عودتك إلى بلادنا ، أن تذكر لأصحاب المعالي الوزراء ، حتى يتذكروا شيئاً منه وهم راحلون إلى حمامات الاستشفاء للمتعة والتنزه ، وحتى يتذكروا شيئاً منه وهم عائدون من شطآن البحر وجنات الأرض إلى بلادهم ليستأنفوا « العمل » .

العظمة في الشرق معناها الطغيان ، والطغيان من معانيه كسر القوانين ، فيستحيل أن يكون العظيم عظيماً عندنا إن أطاع القانون ، حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو ، لأن العيب بالقيود هي عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود ؛ فقل لي إلى أي حد تستطيع في الشرق أن تعبت بالقانون والنظام ، أقل لك في أي مرتبة أنت من مراتب المجتمع ، فأعلاها منزلة أكثرها عبثاً ، وأدناها أقالها .

واعل هذه الفكرة قد بلغت أقصاها تطرفاً ، حين أرادوا أن يتصوروا

كأن الله ومطلق سلطانه وسيادته ، فتصوروه فاعلاً للمعجزات ، والمعجزة هي إيقاف قانون من قوانين الطبيعة وتعطيله ؛ فلما كان الله أكمل ما يكون الكائن جبروتاً وسلطاناً ، فلا بد أن يكون أقدر ما يكون الكائن على تعطيل القوانين الطبيعية كيف شاء وحيث شاء ؛ أما أن يكون كأن الله — كما تصوره سبينوزا — هو أن تظل قوانين الكون قائمة مطردة ، فذلك تصور بعيد جداً عن تصورهم لمعنى العظمة والجلال .

فقيرة هي النفس التي لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لترى ما ترى وتحس كما تحس ؛ وهيئات عندنا أن تجد صاحب النفس الغنية بخيالها الخصبية بشعورها ، ذلك الذي في مقدوره أن يحس الألم مع من يحسه ، وينظر إلى الناس في ظروفهم ؛ هل رأيت الأطفال في القرى كيف يجرثون الجراء مشدودة من أعناقها بالحبال ، وكيف يسكون الهررة من أذناها ثم يجذبونها جذباً ويديرونها في قسوة وعنف ، والجراء تنن والهررة تموء مواء المتألم المستغيث ، والأطفال يضحكون لأعين الجراء ومواء الهررة ، والآباء والأمهات يقهقهون لضحكات أطفالهم ؟ إذا فاعلم يا سيدي أن هذه هي المدرسة التي تتلقى فيها أول دروسنا في التعاطف والمشاركة الوجدانية بعضنا مع بعض ؛ اعلم يا سيدي حق العلم أن قصة الجراء والهررة المسكينة تتكرر حولك مائة مرة في اليوم الواحد ؛ لكنها ليست هذه المرة بين الأطفال من ناحية والجراء والهررة من ناحية أخرى ،

فيشد الأطفال الجراء من أعناقها ويجذبون الهرة من أذناها ، بل هي الآن
بين أصحاب النفوذ - أيا كان نوع النفوذ - وبين العاجزين
وأرزاقهم ! !

إننا يا سيدي أمة تحيا وفق الحكمة التي استنتها لها شاعر من شعرائها
الأقدمين ، وهي « إنما العاجز من لا يستبد » ؛ بل إن الشاعر لم يخلق
من عنده شيئاً ، إنما لاحظ أخلاقنا وسجل ؛ فكم ألف سنة لا بد أن
تمضى قبل أن يجيء شاعر آخر يلاحظ أخلاقنا ويسجل ، فإذا ما يسجله
هو : « إنما القادر من لا يستبد » ؟ .

كم ألف عام لا بد أن تمضى قبل أن يجد الطفل في القرية أبوين
يربيانه على أنه لا ينبغي أن يعبت بالأم الكلاب والقطط ؟ لو بدأنا
هذه البداية ، جاز لنا أن ننتهي إلى أن يعطف الإنسان منا
على الإنسان .

لقد تفضل أستاذنا الدكتور أحمد أمين بك فوجه إلى الحديث
قائلاً : « إن كل مدينة فيها مزاياها وفيها عيوبها ، ومزية المدينة الغربية
بناء الحياة على العلم ، ومن عيوبها خلوها من الإنسانية » .. أحقاً يا سيدي
أن المدينة الغربية قد خلت من الإنسانية ، تلك المدينة التي لا يستطيع
الإنسان في ظلها أن يفرك زهرة بين أصابعه على مرأى من الناس ، ولا
أن ينزع البذور عن أمها لأنها بمثابة الأجنة التي تضمن استمرار الحياة ؟

تلك المدنية التي يستحيل على إنسان في ظلها أن يوقع الأذى بقط أو كلب ،
حتى لقد أصبح ذلك « الضعف » فيهم مصدر كثير من تندرنا وفكاهتنا؟
سيقول القائل : لكنهم أقوام ترعى القطط والكلاب والإوز
وتبطش بالأمم . فأقول رداً على ذلك : إن الفعل الأول صواب والفعل
الثاني خطأ ، ولا تذهب السيئة بالحسنة ، وقد شاركناهم في البطش السياسي ،
ولم نشاركهم في العطف على الأحياء .

هل كان يمكن ياسيدي لهذا الغرب أن ينتج ما أنتجه من فنون
وآداب لو كان خلواً من الشعور الإنساني ؟ كم عالماً وكم عاملاً وكم معملاً
في ربوع الغرب تقوم النهار والليل ، لتخرج لنا ما نحقق به البلاء عن
مرضانا ؟ أنصف الغرب ياسيدي ، فهو نفسه الغرب قد تركز في قنينة
الدواء التي نبعث إلى الصيدلي في لهفة أن يسعفنا بها دفعاً للألم .

فقيرة هي تلك النفوس التي لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء
الأشخاص إلى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح وشاع
فيهم العفو والمغفرة ؛ إنك — كما يقول الشاعر الإنجليزي — لو عرفت
كل شيء عفوت عن كل شيء ؛ وهو يعني بذلك أنك لو ألمت بكل
الظروف التي تحيط بمن تعدّه آثماً ، أدركت موقفه على حقيقته بما فيه
من مشيرات ودوافع ، وعندئذ ستراك أميل إلى المغفرة والتسامح . والإثم

— كما يقول شاعر إنجليزي أيضاً — من طبيعة البشر ، أما الفقران فمن صفات الله . . لكن أنى لنا العين التي تنظر إلى الظروف خلال الشخص للآمن أماننا بجسده ؟ أنى لنا العين التي تنظر إلى « ع » — مثلاً — فقري وراءه داراً ملئت أركانها وجحورها بالأنفس البشرية المتعمدة العاجزة ، كلها تريد منه الطعام والدواء ؟ إن « ع » موظف صغير ، قد عبس حيناً وقد يتسم حيناً ، فإذا ابتسم ابتسمنا معه ، وإذا عبس رجزناه على عبوسه ، لأننا خلو من النفوس العاطفة التي في مقدرها أن تنظر إلى العابس القانط ، فتقول : لعل وراء ذلك ما يفقر .

فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشياء والأحياء ببطش الصبيان فقيرة — يا أبا الملاء — هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطاء ، لأنهم لا يندري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد .

مصباح علاء الدين

ما أشقاني بهذه الذاكرة الضعيفة العاجزة التي توشك أن تبدد لي كل ما قد وعيتُ ونخبرتُ في أعوامي السوالف ، فلا تُبقي لي من ذلك شيئاً ؛ وإني لأعلم عن ذاكرتي هذا الضعف الشديد وهذا الإسراف في تبديد الودائع ، حتى لتراني أتحوط لها بكل ما يشير به علماء النفس من وسائل ، فأشدد الروابط بين أجزاء الشيء المحفوظ ، وأضع تحته الخطوط ، وأوضحه في هوامش الكتب برموز وعلامات وملخصات ؛ لكن هيهات للغربال أن يحفظ في جوفه ماء . تراني أقرأ الكتاب ، فلا تمضي أيام قليلة بعد الفراغ منه ، حتى يذهب غنى وتذهب كل آثاره ، فلا عنوانه هناك ولا اسم كاتبه ولا شيء من مكنونه ؛ فالرأس بعده خلاء خواء كما كان قبله ، فلا زيادة به إن لم يكن نقصان .

فكيف نرجو من مثل هذه الذاكرة المنكودة أن تستعيد ما أردتها أمس على استعادته مما قد قرأته منذ ثلاثين عاماً ؟ أردتها أمس على أن تعيد لي قصة علاء الدين ومصباحه ، وكنت قد قرأتها منذ ثلاثين عاماً ، حين أخذنا - وكنا ثلاثة أشخاص - أخذنا ذات صيف نقرأ ألف ليلة وليلة ، فكنا نجتمع كل يوم في الصباح والمصر ، في غرفة ريفية لم يكن يؤثها غير الحصير على أرض تراب كانت في منزل صديق لنا أيام الطفولة ،

لم يكن من حظه أن يختلف إلى معاهد التعليم ، لكنه يحب أن يسمع أنباء الصحف وأخبار الكتب يقرأها له أصدقائه « التلاميذ » ، وكنت أنا القارئ لها في أغلب الأحيان ، ولم أكن بعد قد تبينت كل ما بعيني من قصر وضعف ، فكنت أضع الكتاب على الأرض وأنحنى على صفحاته أقرأ لها ، حاسباً أن ذلك الوضع هو أكثر الأوضاع راحة لجسدى ، والحقيقة أن عجز العينين عن النظر الطويل هو الذى أوحى به واستلزمه ؛ كنت أقرئ جسدى فى ذلك الوضع المتعب ، وأقرأ بصوت عال كأنما أردت أن أسمع سكان القرية جميعاً ، وقد لازمتنى عادة القراءة العالية دهرًا طويلًا ، حتى لقد شكوا كثيرون من الجيران إلى أبى هذه الضجة التى أحدثها فى أركان البناء هزيعاً طويلاً من الليل ، وفى كل ليلة ؛ ولعل الزمان لم يكن بعد قد هاضنى حتى دفعتنى دفعاً إلى الانزواء والانطواء وخفوت الصوت وخفض البصر .

أردت أمس أن أستعيد ذاكرتى ما استودعتها إياه من قصة علاء الدين ومصباحه ، فلم أذكر أبداً من ذلك شيئاً ، سوى أن علاء الدين كان يسمح لمصباحه ، لست أدري كيف ، فإذا الجنُّ خدم له يأترون به ، فينجزون له المستحيل ؛ يبنون له القصور فى ملح البصر ويمحوونها فى ملح البصر ، ويأتون له بابنة السلطان حبيبة طائفة إذا أرادها ، ويطيرون به فى السماء أو يهبطون به فى فجاج الأرض ، وينشئون له المدن ويملاؤن له السكنوز

ذهباً ولو لؤلؤاً ؛ ينجزون له كل ذلك إذا ما أشار لهم إشارة خفيفة بيده
أو لسانه .

والحق أنى قد أردت ذاكرتى على أن تعيدلى قصة علاء الدين
بومصباحه السحرى ، للتسلية لا للجد ؛ لأننى لمحت فيه وفي قصته رمزاً
لطيفاً لمن يظن أن الدنيا يتغير له وجهها بالرغبات تطوف بين جدران رأسه ؛
فحسبى أن أجلس هكذا على مقعدى وفي عقر دارى ، ثم أعبر بالكلام عن
رغبتى هذه أو رغبتى تلك ، فإذا سحرة الأرض وعفاريت جوفها وجن
سمائها كلهم خدم ينجزون لى ما اشتيت وما تمنيت ؛ ماذا يضطرنى إلى
الجهاد الشاق وإلى العمل العنيف إذا كانت لمسة خفيفة للمصباح السحرى
تكفينى لتحقيق ما أشتى وما أتمنى ؟ والمصباح السحرى قادر على الهدم
كما هو قادر على البناء ، لأن رغبات الإنسان سالبة وموجبة معاً ، فالإنسان
قد يرغب فى أن يَمْحى شىء يضايقه ، كما قد يرغب فى أن يُخلق له شىء
يشتهيه ، قد يرغب الإنسان فى زوال نظام كما قد يرغب فى قيام آخر . .
ومثل هذا كله ينفع مصباح علاء الدين .

وأى عجب ببناء ذلك فى أن تستهويننا قصته ونحن على عتبة الشباب :
حيث الأحلام والآمال والشعر ؟ لئن كانت الرجولة الناضجة عملاً
منتجاً ، فالشباب الفج عاطفة جياشة ؛ الأمل لا يتحقق إلا بالعمل عند
الرجل الناضج ، لكن تكفيه قصيدة من الشعر عند الشباب الغرير ؛

كم كانت لنا ونحن على عتبة الشباب أمان وأحلام حققناها بمصباحك
يا علاء الدين ، أو تذرنا لتحقيقها بطاقة الإخفاء التي تيسر كثيراً جداً
من الصعاب والعقبات ؛ فسحقاً لهذا النضج العقلي الذي لم يعد يكفيه من
ذلك شيء ، وبات محتوماً علينا بمقتضى أحكامه أن نجاهد جهاداً شاقاً
ونعمل عملاً عنيفاً إذا ما أردنا للأمانى أن تتحقق . . . فهكذا ينتقل
الإنسان في مراحل حياته من شعر إلى نثر ومن أحلام حلوة إلى
واقع مرير .

* * *

لكنني إذ التمت من قصة علاء الدين ومصباحه تسليّة ، قد وجدت
فيها الجد ، لأنني ما كدت ألهو بجانب المزاح منها حتى تبين لي جانب
آخر ؛ فلئن أشبع المصباح السحري خيال الشاب الحالم ، فهو كذلك
كفيل أن يهدي الرجل الناضج العامل ؛ إن هذا المصباح العجيب رمز
إلى إمكان التغيير لمن أرادته ؛ ليس في الدنيا بأسرها ما يستحيل على
الإرادة الإنسانية إذا صممت ومضى عزمها ، وكأنما قصد علاء الدين إلى
إعلان ذلك بقصة مصباحه السحري ؛ إن الفساد ضارب في طول البلاد
وعرضها ، لكنه يزول لصاحب الإرادة الذي لا يرى محالاً أن تتغير الحال .
ماذا عسانا أن نضع وماذا عسانا أن ندع ؟ من أين تبدأ وإلى أين
نتهي ؟ الوحل يملأ الطريق في كل أرجائها فأين نلتمس سبيل النجاة ؟ ..

هذه وأمثالها أسئلة يلقيها السائلون المهتمون بإصلاح الفساد ، فيقف الناس إزاءها رجلين : رجل يلقي السلاح قنوطا ورجل يحمل العبء لأنه يؤمن بالمصباح السحري وقدرته على محو الظلام مهما يكن حالكا .

والحديث ذو شجون فقد ذكرتني قصة علاء الدين ومصباحه بقصة صينية تقع منها موقع النقيض من نقيضه ، إذ يروى أن عالما في الصين قد صنع عربة تطير في الهواء كما تطير ذوات الجناح ، وتناقل الناس هذا النبا العجيب حتى انتهى إلى مسامع الحاكم ، فأمر الحاكم أن يؤتى له بذلك الشيطان البشري ولعبته ، فجاءه العالم يصطحب العربة الطائرة ، ولم يجد سبيلا إلى شرح أجزائها للحاكم ، لأن هذا لم يكن على كثير ولا قليل من العلم بالآلات وفعالها ، فطلب صاحب العربة الطائرة إلى الحاكم أن يصحبه في رحلة جوية ليقطع شكه بيقين لا ريبه فيه ، وصعد الرجلان ، فما هي إلا أن طارت بهما العربة العجيبة مع الطير في أجواز الفضاء ؛ وهذا هو السحاب قد بات دونهم بعد أن كان فوق رؤوسهم ، ثم هبطا إلى الأرض ؛ أما العالم فملء بالزهو والأمل ، وأما الحاكم فمرتجف من هول ما رأى ؛ الحق أنها معجزة قد تحققت على يدي هذا الشيطان ، لكنه بعد أن هدأ قليلا التفت إلى صاحبنا العالم ، وقال له : هذا عجيب ! عجيب جداً تحار معه العقول ، لكنه يجاوز بفرابته حدود ما أطلبه لشعبي ! لا . إني لا أريد لبلادي بدعة كهذه

مهما تكن براعتها وإعجازها لأنها ستكون للناس عاملا من عوامل القلق بحيث تضطرب أوضاعهم اضطراباً تتغير معه الأشياء والقيم ؛ لا ، لا . إني أريد لنفسي ولشعبى راحة البال . . . ثم أمر بالعربة الطائرة فتحطمت أوصالها وأجزاؤها ، وأمر ذلك الشيطان البشرى ألا يعود إلى مثل هذا في غد قريب أو بعيد .

العربة الطائرة ومصباح علاء الدين رمزان مختلفان فيما يشيران إليه : القصة الأولى رمز إلى الجود والرغبة في ألا يتغير من أمر الناس شيء ، والقصة الثانية تشير إلى الإنشاء السريع والمحو السريع ، وترمز إلى إمكان التجديد والتغيير — وكل ما ندخله على قصة مصباح علاء الدين من تحوير وتعديل حتى تناسب الرجولة الناضجة العاملة ، بعد أن كانت خيالا يلهو به الشباب الحالم ، هو أن نجعل ذلك المصباح داخل نفوسنا لا خارجها ، فنجعله في الإرادة الفعالة الماضية ، والعزم المصمم الذى لا ينتهى .

إن للإرادة القوية لسحراً ، هو بذاته ما نسبه علاء الدين إلى مصباحه ، لأنها تستطيع أن تغير كل شيء بمثل ما غير علاء الدين بمصباحه كل شيء .

لقد روى عن شاعر إيطالى بعد الحرب الكبرى الأولى أنه قال :
مات الماضى ، قتلناه بأسنة الحراب * وهذا هو الحاضر فلنفتك به فتكا

حتى نقيم للمستقبل قوائم عرش مجيد

فبالت ما قاله الشاعر الإيطالى يتردد فى أرضنا على كل لسان .

مقومات الحياة

كان برناردشو في زيارة جارٍ له عندما جاءه نبأ اغتيال غاندى ، فقال — وقد تأثر للنبا — « لقد قلتها مراراً ، إن الرجل الطيب دائماً في خطر ». وأذكر أنى لما قرأت ذلك في حينه ، جعلت أفكر لنفسي : من ذا يكون الرجل الطيب الذى تجيء طبيته خطراً عليه ؟ وأذكر كذلك أنى لم أجد سبيل الجواب عن هذا السؤال مُيسراً ، لأننى كلما قلبت فى رأسى هذه الصفة أو تلك ، مما عساه أن يحدد لى معنى هذه « الطيبة » المشثومة الخطرة على صاحبها ، وجدتها هى بذاتها صفة مطلوبة محمودة ، ويستحيل — من الوجهة البيولوجية على الأقل — أن تطلب الصفات التى تودى بأصحابها إلى التهلكة .

لكنه ما من شك فى أن هنالك نوعاً من « الضعف » ينعتونه فى لغة الحديث الجارية « بالطيبة » — ولغة الحديث فى هذا مؤدية للمعنى المراد أبلغ الأداء ، حين يصف لك الناسُ هذا الشخص أو ذاك بأنه « رجل طيب » فى نعمة صوتية خاصة ، تبين لك على الفور بأن المقصود هنا ، هو أن بالشخص الموصوف سذاجة أو بلاهة أو سرعة تصديق ، تجعله فى خطر من الناس ، وتجعل الناس فى مأمن منه . . . لكن غاندى « الطيب »

لم يكن هذا الساذج الأبله ، فأين يكون العنصر المشترك بين الطيبة هنا
والطيبة هناك ؟ .

للهنود في ذلك قصة لطيفة ربما أنارت أمامنا بعض الطريق ؛ فهم
يحكون أن ثعباناً راح ينفث سمومه في الناس هنا وهناك بلا حساب ، فيلذغ
من يستحق ومن لا يستحق بغير تمييز ، حتى كانت ساعة تحرك فيها ضميره ،
فقدم على هذا الشركه الذي يصيب به الناس أحياناً وأشراً ، وصم على
التوبة ، فقصده من فوره إلى راهب متعبد يستفتيه نوع الحياة التي يمياها
ليرضى عنه الله والناس ، فأفتاه الراهب بأن يعيش كما يعيش هو ، أغنى أن
ينتبد من وجه الأرض مكاناً معزولاً ، فيكتفى بالقوت اليسير ، بعيداً عن
الحياة ومغرياتها ؛ فعاد الثعبان يبحث لنفسه عن ركن مهجور ، ووجد بغيته
في منطقة خلاء من العمران ، وهناك تحوى هادىء البال راضى النفس ؛
لكن ذلك لم يدم له طويلاً ، إذ جاءت جماعة من الصبيان تلهو ، وأبصر
أحدهم بالثعبان متكوماً في ركن الخرابه ، فصاح صبيحة الذعر وجرى وتبعه
الباقون ؛ ثم عادوا في اليوم التالى ليجدوا الثعبان على حاله هناك ، فأمسك
صبي بحجر من بعيد وألقاه وجرى وتبعه بقية الإخوان ، وعادوا في اليوم
الثالث ليجدوا الثعبان على استكانته ، فألقوا عليه بدل الحجر حجرتين ،
وأخذت القذائف تكثر في كل يوم عن سابقه ، حتى هان أمر الثعبان
في أعينهم ، واقتربوا منه في غير خوف ، وراحوا يمتطرونه وابلوا من خجارتهم

كل يوم ، فكادوا يرجونه رجماً يمزقه ويقضى عليه .

فلم يسع الثعبان إلا أن يعود إلى الراهب يستفتيه في هذا الموقف الجديد ، فما هو ذا قد تاب وأتاب ، وانزوى عن الناس واعتكف ، لكن شرار الناس لم يتركوه ، واعتدوا عليه بما لم يعد به احتمال عليه ، فماذا عساه صانع حتى لا يُغضب الله والناس ؟ فقال له الراهب : إننى لم أقصد حين أرشدتك إلى طريق الهدى ، أن تتلقى الاعتداء بغير عدوان يقيك أنا بعد آن ، فلا بدّ لك في الأسبوع مرة من نفثة تنفثها في الهواء ، ليعلم هؤلاء الصبيان الأشرار أنك تستطيع — إن أردت — أن تجيبهم إيذاء بإيذاء .

أقول إن هذه القصة الهندية تنير أمامنا بعض الطريق في التفرقة بين « طيبة » و « طيبة » — بين الطيبة التي ترضى الله والناس في غير ضعف ولا خطر ، والطيبة التي تستعدى على صاحبها عوامل الضر والأذى ؛ فالطيب من الصنف الأول هو من لا يعتدى بادئاً بالاعتداء ، لكنه لا يسكت عن رد اعتداء وقع عليه ؛ والطيب من الصنف الثانى هو من لا يعتدى ، ثم يسكت عن رد الاعتداء — وإذا فلغة الحديث الجارية على صواب ، حين تنعت الناس بالطيبة في نعمتين مختلفتين : نعمة تدل على أن الشخص الموصوف على خلق قويم ، لكنه في الوقت نفسه ذو لحم مرّ لا يسهل أكله التهاماً ، ونعمة أخرى تدل على أنه إلى جانب استقامة

أخلاقه يمكن أن يكون نهياً للطامعين .

إننى لا أحسن دراسة طبائع الحيوان ، فلعلى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا زعمت أن الليث والذئب والحمل تمثل ثلاثة ضروب مختلفة من الطبائع فى ميدان العدوان وردّه ، فالليث — فيما أعلم — يردّ الاعتداء إذا وقع لكنه لا يبادىء به ، والذئب يصنع الصنيعين معاً ، فيبدأ بالعدوان ويردّ ، والحمل لا يفعل هذا ولا ذاك ، فلا اعتداء ولا رد اعتداء ، ومن ثمّ وداعته التى ذهبت بذكرها الأمثال ؛ فإن كان لنا أن نختار من هذه الطبائع الثلاثة واحداً ، فهو طبع الليث ، لأن الذئب شر والحمل ضعف ؛ فى الليث « طيبة » بالمعنى القوى — إن صح هذا التعبير — وفى الحمل « طيبة » بالمعنى الضعيف ، وأما الذئب فكاه خبيث .

وأساس القوة فى الطيبة القوية ، هو أن مقومات الحياة الصحيحة تتوافر فيها ؛ وأول هذه المقومات للحياة ، بل تعريف الحياة وتحديد معناها — فى رأى هربرت سبنسر — هو استمرار المواءمة بين ما يحدث فى باطن الكائن الحى وما يحدث فى محيطه الخارجى ؛ الحياة — فى صميم معناها — هى أن يستجيب الكائن الحى لما يقع حوله ، والموت هو أن تقف هذه الاستجابة للمؤثرات الآتية من خارج ؛ الكائن الحى يردّ على المنبهات المحيطة به ردوداً ملائمة ليوفى بين داخله وخارجه . والجسم الميت تأتية المنبهات فلا يتنبه ولا يجيب .

الفرق بين الفاعلية والقابلية هو نفسه الفرق بين الحياة والموت ، الحى فاعل والميت قابل ؛ الحى يتلقى عوامل الجو — مثلاً — من حرارة وبرودة ، فيتخذ منها موقفاً ملائماً ، وأما قطعة الحجر الملقاة فى الفلاة ، فتلقى هى كذلك عوامل الجو نفسها من حرارة وبرودة ، فتفعل فيها تلك العوامل فعلها من تفتيت وتحليل وتهديم وبعثرة ، وهى إزاء هذا كله قابلة وكفى ، لا حيلة لها ولا سبيل .

والحياة — بهذا المعنى — تكون درجات يتفاوت بها الأحياء ، فليس كل ما هنالك من فرق هو أن يكون هذا حياً وذلك ميتاً ، بل هنالك فروق فسيحة بين الأحياء أنفسهم فى نصيبهم من الحياة ، لأن هنالك فروقاً فسيحة بينهم فى القدرة على إجابة المنبهات الخارجية بما يلائمها ؛ وما هنا أيضاً نرى فى لغة الحديث الجارية بلاغة فى الأداء ، حين تصف شخصاً بأنه « ملئ بالحياة » ؛ إذا كواب الأحياء تتفاوت — كما رأينا — فى مقدار ما بها من العصارة الحيوية ؛ فكوب ملئ إلى حافته ، وكوب فيه العصارة إلى نصفه أو ربعه ، وثالث فارغ ، يعدُّ صاحبه بين الأحياء بهتاناً وزوراً ، حين يجيء أوان التعسّد وإحصاء السكان .

بين اليقظة الواعية فى طرف ، والموت البارد فى طرف آخر ،

هنالك حالات متدرجة من الغيبوبة والنعاس ، التي إن أدركت فيها الحواس شيئاً مما حولها ، فأخلاق مهوشة لا تغنى شيئاً من حركة الجسم ونشاط الأعضاء ؛ وسيأخذك العجب حين أزعم لك أن قلة ضئيلة من الناس هي اليقظة الواعية ، وأما الكثرة الغالبة منهم ففي غيبوبة ونعاس ، في وجوههم أعين مفتوحة ، لكنها تنظر ولا ترى .

والأمم في هذا كله كالأفراد سواء بسواء ، فما الأمة إلا مجموعة أفرادها ، وقد تشيع في هؤلاء الأفراد يقظة للعالم من حولهم ، فتكون أمتهم بذلك أمة حية ، أو قد تشيع فيهم حالة الغيبوبة فتكون أمتهم بذلك نعسانة غافلة ، وفي إيقاظ الأمة النعسانة معنى النهوض ؛ فإذا قلنا إن أوربا قد « نهضت » في القرن السابع عشر ، حين تنبه فيها نفر من أبنائها إلى عالم الأرض والسماء ، كان معنى ذلك اعترافاً منا بغيبوبة سابقة ، شاعت في أبنائها ، فأغمضت أعينهم وأصمّت آذانهم عن مشاهد الدنيا وأصواتها ؛ وإذا قلنا إن مصر قد بدأت « نهضتها » في أول القرن التاسع عشر ، كان المراد بذلك أنها ظلت غافلة عن أحداث العالم الخارجي حتى ذلك الحين ، ثم جاءها من أيقظها ففتح عينيها ؛ وإني لأذكر أستاذنا الجليل « . . . » وهو يحاضرنا أيام الطلب في الحملة الفرنسية على مصر ، بعلمه الغزير وفكاهته البارعة ،

كيف أخذ يرسم لنا صورة حية للمصريين عندئذ ، وهم في نعاسهم غارقون ، حتى إذا ما جاءهم « نلسن » بأسطوله باحثًا عن نابليون — لأن نابليون وهو في طريقه إلى مصر ، قد أخفى عن العالم هدفه المقصود — فسألهم : ألم يمرّ ببلادكم نابليون بمراكبه ؟ فقال له من أجابه : أى نابليون وأية مراكب ؟ إننا لا ندرى من أمر ذلك شيئًا ، نحن بلادنا تتبع السلطان . . . إلى آخر الصورة الفكهة البديعة التي رسمها لنا أستاذنا عندئذ . ولم يطل بهؤلاء الراقدين الغافلين زمن الانتظار ، حتى جاءتهم الحملة النابليونية توقظهم ، فعلموا عندئذ أن أوروبا قد قامت بالثورة الفرنسية على قدم وساق ؛ واتصلت مصر بذلك العالم الصاحب منذ ذلك الحين ، فقيل — وللقول مغزاه — إن مصر قد « نهضت » فاستيقظت من نعاسها ؛ وهى ما تزال ماضية فى هذا النهوض المبارك ، حتى تستكمل يقظتها ووعيتها ، فتكمل لها بذلك مقومات الحياة

إن هذه الأحداث الدامية التى تقع فى أرضنا اليوم هى من علامات البشرى ، لأننا قد أخذنا نرصد على المؤثرات من حولنا بما يلائمها ، فحياتنا القوية المليئة مرهونة بقدرتنا على الاستجابة السريعة للمؤثرات الخارجية ، استجابة نؤقلم بها أنفسنا على نحو يوفق بينها وبين العالم المحيط بنا بكل ما فيه من خير وشر ، إنه لا يجدينا شيئًا أن ننكش فى قواعنا الفكرية

والسلوكية ، ظناً منا بأن تلك القواقع قيينة أن تصون لنا شخصية مستقلة
متميزة قائمة بذاتها ؛ فلنفتح النوافذ والأبواب على مصاريحها للهواء ،
بل للزوابع والعواصف ، حتى تتعادل درجة الحرارة داخل الدار معها
في الخارج ؛ ولا يكفي أن تتلقى ونحن في قابلية الحجر الأصم ، بل لا بد
أن نردّ على العوامل الآتية في فاعلية تثبت وجودنا وتؤكد للعالم أننا جزء
من جسمه متنبه حساس .

عزمات الإرادة

ما أسرع وما أهون أن تسرى الفكرة الخاطئة في الناس ، فلا يستطيع بعدئذ أن يشير إلى بطلانها إلا فيلسوف كبير أو طفل صغير ! ذلك لأن الحقيقة كثيراً ما تكون واضحة ناصعة جلية ، يراها كل ذى بصر لم يُعمه الهوى ، لكن إعلانها — مع ذلك — قد يحتاج إلى فيلسوف جرىء أو طفل برىء ! .

إن من أقاصيص « هانس أندرسن » قصة مشهورة معروفة ، خلاصتها أن حاكماً كان مولعاً بالملابس الجديدة ، فأقبل ذات يوم على مدينته محتالان زعما له أنهما يحسنان نسيج قماش رقيق جميل ، فيه ميزة عجيبة ، وهى أنه يخفى على عيون العاجزين والبلهاء ؛ ففرح الحاكم بما سمع ، وأمرها أن ينسجا له ثوبا من هذا القماش العجيب ، لأنه عندئذ يستطيع أن يميز في رجال حكومته بين القادر والعاجز ، وأن يعرف من ذا يكون من الناس عاقلاً ومن لا يكون .

وأخذ المحتالان ما طلباه من مال ، ثم أخذوا ينخبطان بالأثوال نهاراً وليلاً ، ليوماً الحاكم أنهما جادان في العمل ، والحقيقة أنهما لا يعملان شيئاً ؛ وبعد أيام أرسل الحاكم وزيره إلى النساجين ليرى كم نسجا ، فأخذ

هذان يلوحان بأيديهما في الفضاء ، زاعمين أنهما يشيران إلى قماش منسوج مزخرف ، ولم ير الوزير شيئاً ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك حتى لا يوصم بالعجز والبلاهة ، وراح يؤيد المحتالين في جمال القماش وجودته .

وسرى نبأ القماش الجديد العجيب بين أهل المدينة ، وأعلن الحاكم أنه سيسير بين شعبه في موكب رسمي يوم يرتدى حُلَّتَه الجديدة ؛ فلما حان اليوم ذهب الحاكم مع حاشيته إلى مكان النسج ، وخلع ملابسه ليرتدى الثوب الجديد ، وجعل النساجان يحركان أيديهما في الهواء كأنما يلبسانه شيئاً ؛ إنه لم يرفى الهواء ثوباً ولا شبه ثوب ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك فيوصف بالبلاهة والعجز ، مع أنه صاحب جلالة وفخامة ، وراح بدوره يبدي إعجابه بما لبس ، وينظر إلى نفسه في المرآة مزهواً فخوراً .

وبدأ الموكب الرسمي ، وسار الحاكم بين الناس « عارياً » إلا من أوهامه وأوهام شعبه ، فمن ذا يجرؤ على القول بأنه لا يرى شيئاً؟ . . . إلا طفلاً صغيراً كان يقف إلى جانب أبيه ، فصاح لأبيه قائلاً : لكن الحاكم لا يرتدى شيئاً ! فنقلها أبوه إلى جاره ، وهذا الجار إلى جاره ، حتى ساد الرأي بأن الحاكم عريان الجسد لا يرتدى شيئاً .

والطفل الذي أخرج الناس من ضلالهم حين رأى الحقيقة الواضحة بينداهته الطبيعية التي لم يفسدها له الناس بأوهامهم ، هو كالفيلسوف الذي يرى للناس رأياً واضحاً يسيراً ، فلا يكون فضله عليهم هو أنه أدرك

ما لا يستطيعون إدراكه ، بل فضله هو جرأته في إعلان ما يدركه ويدركونه معه وأى عسر في أن يقال إن الإنسان من حقه أن يعيش حراً في رأيه وعقيدته ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ مئات السنين إن لم نقل ألوفها حتى يعلنه الجريء في وجه الطغاة ؛ أى عسر في أن يقال إن الإنسان من حقه أن يأكل ما يُشبعه ويكتسى بما يقيه ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ وما يزال متلكئاً وهكذا قل في بدائه كثيرة يراها كل إنسان ، أو يستطيع أن يراها إذا أراد ، لكنه ينتظر أول نافع .

وهل تصدق أن الأمر قد احتاج إلى فيلسوف من أضخم الفلاسفة ليقول للناس : « أنا موجود » ! ؟ هل تصدق أن وجود الفرد — على بدايته — قد تلكأ لإعلانه حتى جاءه فيلسوف ؟ لا ، بل إننا حتى هذه الساعة بحاجة إلى فيلسوف وفيلسوف وفلاسفة كثيرين ، ليصيحوا في الناس بأن الفرد موجود وجوداً حقيقياً ، وليس هو بالشبح أو الظل ، ولا هو مجرد اسم يكتب بالمداد على شهادة الميلاد ، أو مجرد رقم يسجل في دفاتر هذا أو دفاتر ذلك ؛ نحن إلى هذه الساعة بحاجة إلى فلاسفة كثيرين ليقولوا إن الفرد موجود وجوداً مادياً ، وإنه من لحم ودم ، وإن له بطناً يجوع وجِلداً يشعر بالبرد ويرتعش

لكن الفكرة قد تكون واضحة ناصعة جلية ، ومع ذلك فلا

يستطيع إعلانها إلا فيلسوف جرىء أو طفل برىء! .

إنه ليروى عن مدام دي ستايل أنها طلبت من فيلسوف ألماني أن يلخص لها فلسفته في عشر دقائق ، فلما أجابها الفيلسوف بأن ذلك مستحيل لصعوبة الفكرة وكثرة تعقيدها قالت في اعتداد : « إن ما لا أستطيع فهمه في عشر دقائق لا يكون عندي جديراً بأن يفهم » — وتلك بالطبع مبالغة منها ، لكنها مبالغة تفيدنا في لفت أنظارنا إلى أن مجرد إدراك الحقيقة النظرية ليس دائماً هو موضع الصعوبة ، بل الصعوبة في الانتقال من رؤية الحقيقة إلى إعلانها ، أو بعبارة أخرى ، الانتقال من الفكرة إلى العمل ، وفي مضاء العزم يكون الفرق بين إنسان وإنسان ، وبين أمة وأمة .

ما كان أجدر ديكارت أن يقول : « إني أريد فأنا إذا موجود » بدل قوله : « إني أفكر فأنا إذا موجود » لأن جوهر وجود الإنسان عمل يريده وينجزه لا فكر يديره في رأسه ، فالإنسان في حياته أشبه ما يكون بالتائه في جوف غابة كثيفة ، لا يدرى كيف يكون الطريق إلى الخلاء المكشوف ؛ وخير له ألف مرة أن يعقد إرادته على خطة ينفذها ، مهما طالت ؛ كأن يسير مثلاً ناحية الشمال أو ناحية الجنوب بغير ذبذبة ولا تحول ، من أن يظل واقفاً في مكانه ، أو أن يدور في دائرة مغلقة ،

أو أن يبدأ طريقاً لا يخطو فيه إلا خطوات قليلة ، ثم يحاول طريقاً ثانياً
فثالثاً

لقد رأيت منذ أيام قليلة مجموعة من أطفال صغار أربعة أو خمسة ،
ولا أدري ماذا أرادوا أن يصنعوا ، لكنني لاحظت أنهم لم يعرفوا
كيف ينجزون ما أرادوا ، فسرعان ما اعتكروا وأخذ بعضهم يشد بعضاً
من شعر رأسه أو أطراف ثوبه ، في انفعال شديد ؛ فلم يسعني إلا أن أرى
في هؤلاء الأطفال صورة مصغرة لنا ، لكنها على كثير من دقة التصوير
لحالنا ؛ فلست أعلم كم قضينا من القرون لا نعمل لأنفسنا شيئاً ؛ فلما نهضنا
حديثاً وأردنا أن نعمل ، أرتج علينا ، فأخذنا انفعال الأطفال ، وما لبثنا
أن اعتركنا بعضنا مع بعض شداً للشعر وجذباً لأطراف الثياب ؛ ذلك لأننا
نعرف ماذا يعمل ، لكننا لانملك الإرادة التي تنفذ ، فلا عجب ألا تجد
اختلافاً بين أحزابنا على الأهداف ؛ لأن الأهداف « فكرة » لا يصعب
على الطفل إدراكها ، وهل يعجز الطفل عن إدراك الفكرة البسيطة القائلة
بأننا نريد أن نستقل عن المستعمر لنكون دولة ذات سيادة كاملة ؟
الفكرة بسيطة واضحة ، بل والطريق إليها قد يكون « معروفاً » كذلك
— معروفاً كفكرة ؛ ولكننا حين بدأنا نخطو نحو التنفيذ ، حل بأبداننا
شلل تراكم على مر العصور وطول القعود والركود ، فانتقلت الفاعلية

من الأقدام التي تسير ، إلى الخلق تصيح والأذرة تلوح في الهواء
وتضرب .

تنقصنا الإرادة ، والإرادة لا تكون إلا في شخص يريد . ليس
هناك « إرادة » ساجدة في الهواء مع السحاب ، أو « إرادة » تسكن
الكهوف مع الأشباح والأرواح ؛ إنما الإرادة تراها في فرد يريد ، فقم
الآن واعمل — إنه لتعجبني هذه الأسطر الآتية في رواية « ميديا »
لـ « كورني » — ولتلاحظ أن « كورني » في مسرحياته قد جعل عظماء
هم أصحاب الإرادة التي تنفذ وتمضي في غير ضعف أولين — فهذه « ميديا »
قد زال عنها كل ما تركز إليه في حياتها ، لكنها تستحفظ في نفسها
العزيمة والثقة بالنفس :

الوطن ينبذك والزوج خائن .

فماذا بقي لك في هذه المحنة السوداء ؟

بقيت لي نفسي .

نفسى وحدها وفيها الكفاية .

ولا نحسبه من فعل المصادفات العابرة أن ينطق أديب فرنسي بهذه
الأسطر في نفس الوقت الذي يتحدث فيه فيلسوف فرنسي بمثلها ، وذلك
هو ديكارت ، الذي لم يتردد في هدم كل شيء بشك ، وكأنما ألقى

على نفسه مثل السؤال الذى ألقته « ميديا » على نفسها : هانت ذا واقف بين ركام وأنقاض فماذا بقى لك ؟ فأجاب أيضاً بمثل ما أجابت به « ميديا » بقيت لى نفسى ، « فأنا موجود » .

وتلك بعينها هى وقفات الأبطال فى التاريخ الإنسانى كله : الأبياء والمصلحون وزعماء الثورات وقادة الحروب الكبرى ؛ فكل من هؤلاء كان ينطق بلسان حاله ولسان أفعاله ، وينطق فى وجه الظروف القائمة قائلاً : هذا هو كل شيء قد فسد من حولك ، فماذا بقى لك ؟ وقد كان كل من هؤلاء يجيب لنفسه ؛ بقيت نفسى . وما هو إلا أن يأخذ فى التنفيذ والعمل ، البطل الحقيقى لا يُتملى عليه بل يُتملى ؛ ومهما صغرت الدائرة التى يفرض فيها الإنسان إملاءه وإرادته ، فهو على كل حال أوفر حياة ممن يتلقى عن غيره ؛ فلو كانت « چان دارك » رأت رؤاها وسمعت أصوات قلبها ثم وقفت عند هذا الحد ، لما كان منها بطلة ولا شهبها ، لأن الزاعمين والزاعمات بأمثال تلك الرؤى والأصوات لا يكاد يحصرهم العدد فى كل جيل من كل أمة ، والناس يسلكونهم — بحق — فى عداد المخرفين ؛ لكن الذى نقل « چان دارك » من هذه الدائرة الدنيا — دائرة التخريف — إلى دائرة البطولة والعظمة النادرة ، هو أنها راحت تعمل وفق أحلامها ورؤاها ! قالت لها الكنيسة : تعالى نحقق صدق

دعواك ، فأبت أن تدعن لقضاء الكنيسة ، لأن جانب البطولة منها قد
أبي عليها أن تنصت لما يقوله الآخرون .

أول خطوات الرجاء — إذاً — أن نطمئن إلى سلامة بناء الأفراد
في قوة إرادتهم وقدرتهم على العمل والإنجاز ، أول خطوات الرجاء أن
نبث في كل فرد عقيدة قوية بأن الإنسان أقوى ما في الوجود ، إنه أقوى
من الوجود كله ، هذا الإنسان الذي يبدو كأنه القصبه النحيله تهزها الريح ،
في يده العصا السحرية التي تتحكم في الطبيعة من أولها إلى آخرها ، وما
عصاه السحرية هذه سوى عزيمة ماضية إلى هدفها بالعمل الدعوب .

هاروت وماروت

كان من أساطير العرب أن كوكب الزهرة هو امرأة بغية تحولت نجماً ، وخلاصة الأسطورة كما ذكرها « البلخي » هي ما يأتي :

« روى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم ، قال للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ؛ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك وتقديس لك ؟ فلما خلق آدم وأظهرت ذريته في الأرض الفساد ، قالت الملائكة : يارب ، أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض ؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ففعلوا ؛ قيل وجاءتهم امرأة فافتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى ؛ وعلوا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء ، فصعدت ، حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكباً ، وهي الزهرة ؛ قالوا وخير الملكان بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختاروا عذاب الدنيا ، فهما معلقان بشعورهما في بئر بارض بابل ، يأتيهما السحرة فيتعلمون منهما السحر » (الأساطير العربية قبل الإسلام ، نقلاً عن كتاب « عبقر » لصاحبه شفيق معلوف من أدباء المهجر) .

تلك هي أسطورة هاروت وماروت كما قرأتها ؛ ولا بد لنا بادي

ذى بدء أن تغضى عما فيها من خلط بين المثني والجمع ، إذ هي تبدأ بالحديث عن ثلاثة من الملائكة أرسلوا إلى الأرض ، فتحدث عنهم بصيغة الجمع ، ثم تعود فتحدث عن هاروت وماروت وحدهما بصيغة المثني ، دون أن تذكر خبراً عن زميلهما الثالث .

قرأت هذه الأسطورة فوجدتها تصور حياتنا السياسية منذ ربع قرن أو يزيد ؛ بل وجدتها تصور كثيراً جداً من جوانب الحياة إلى جانب تصويرها للحياة السياسية .

فمناصر الأسطورة كما يرى القارى هي أن تعيث ذرية آدم في الأرض فساداً ، فيرفع الملائكة شكاتهم إلى الله ، فيختارهم الله لحكومة الأرض لعلمهم يصلحون ، فما يكادون يضطربون في الشئون الأرضية حتى يتعرضوا لعوامل الإغراء ، فيفسدون ويفسدون ، ولا يكونون خيراً حالاً من آدم وذريته .

وهكذا الحال في حياتنا السياسية ؛ فكما أرادت الظروف لحزب سياسى أن يتولى أمورنا ، قالت الأحزاب الأخرى بلسان حالها متوجهة بشكاتها إلى ربها : أيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . الخ ؟ .
ويكون الحق إلى جانب هذه الأحزاب فيما قالت ، لأن الحزب القائم على الأمر وذريته ، تظهر فيه عوامل الفساد حقاً ، وتنتشر في الأرض ألوان العبث على أيديهم ألواناً وأشكالاً ؛ فلا غرابة أن تشمت الأحزاب

المعارضة وأن تتوجه بسؤالها إلى الله : يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم
في الأرض؟! .

وهاهنا يأمر الله تلك الأحزاب المتأففة المتضجرة الغاضبة الشامتة ،
والتي ترى نفسها ملائكة أطهاراً أتقياء إذا قيست إلى الحاكمين
القبجار ؛ يأمر الله تلك الأحزاب الغاضبة الشامتة أن تختار من أفاضل
رجالها نفرأ تُلقي بين أيديهم مقاليد الحكم ، لعلمهم أن يكونوا الصالحين
المصلحين ؛ فينزل الملائكة المختارون إلى الأرض ليحملوا الناس على
الحق ، ثم لا يلبثون أن تسرى في دمائهم الشهوات الحيوانية الملتهبة
العارمة ، فتفتنهم عن أنفسهم فتنة بعيدة المدى ، لا يتورعون معها أن
يسجدوا لغير الله ؛ إنهم عندئذ لا يتورعون أن يسجدوا للشيطان العايب
بهم وبأحلامهم ، وهو الشيطان الذي ما يزال بغوايتهم حتى يأخذ منهم
كلمة السر التي يصعد بها إلى السماء حيث يلمع ويسطع كما يلمع كوكب
الزهرة في السماء ... وأما هم ، فيعلقون من شعورهم بين الأرض والسماء ،
فلا إلى الناس هبطوا واضطربوا معهم في شئون العيش الشريف ، ولا إلى
السماء صعدوا ليعودوا مع الملائكة أبراراً أطهاراً .

والتممة التي لم تذكرها الأسطورة ، هي أن تعود ذرية آدم
إلى مكان القيادة مرة أخرى ، وسرعان ما تنشر الفساد في الأرض

كما نشرته أول مرة ؛ وهكذا دواليك حلقة بعد حلقة إلى يوم الدين .



هكذا تصور الأسطورة القديمة حياتنا السياسية الحديثة أبداع تصوير وأبرعه ؛ لكنها إلى جانب ذلك تصور كثيراً جداً من جوانب حياتنا الأخرى ، فلنا في كل يوم من أمثال هاروت وماروت مئآت ومئآت ، ولنا في كل يوم من أمثال الزهرة كذلك مئآت ومئآت .

وهنا يجمل بنا أن نحدد للقارى معنى « البغى » كما يجب أن نفهمه ؛ فالبغى قد يكون رجلاً كما قد تكون امرأة ، والصفة الجوهرية في البغى أن يبيع مثله العليا من أجل نفع عاجل ، وقد تكون هذه المثل العليا مبادئ خلقية تواضع عليها الناس ، أو أهدافاً فكرية أو فنية اتفقت عليها كلمة العالم المتحضر كله ؛ يبيع البغى هذا كله بثمن بخس من مال أو جاه ، يبيع كل ما لديه من عزة وكرامة ثمناً لصعوده ؛ حتى إذا ما صعد البغى إلى منازل الكواكب المنيرة اللامعة ، لم يسأل الناس كيف كان وكيف أتى له الصعود ومن أين جاءه النور الذى يلمع به .

وفى حياتنا العامة ، بل فى حياتنا العلمية والفنية من أمثال هؤلاء البغايا كثيرون ، كثيرون جداً ، وفى مكان الرياسة قد ترى من ليس له رأس يفكر ، وفى مكان العلماء قد تجد من لا يقوم على علمه برهان واحد

من آثاره ، بل قد تصادف في مكان الصدارة من حياتنا الأدبية من
سوف لا يذكره الغد القريب بصفحة واحدة خطها قلبه . . . كل هؤلاء
كواكب نيرات في سماننا ، كالزهرة اللآلاء كانت بغياً ثم مسخها الله
صوكباً !!

* * *

كذلك رأيت في الأسطورة معنى آخر ، يمس جانباً آخر من جوانب
حياتنا العلمية والسياسية .

ففي الأسطورة قد فسد الملائكة عندما نزلوا إلى الأرض ؛ وتعريف
« الملائكة » أنهم الكائنات التي تعقل بغير أجساد ، أعني أنهم
الكائنات التي لها ما للإنسان من فكر ، دون أن يكون لها ما له من
بدن ؛ وسنتخذ « الأرض » هنا رمزاً للحياة الدنيا بشؤونها العملية ،
وبخاصة شئون السياسة .

وفي ضوء هذا التفسير للكلمتين ، نسأل هذا السؤال : هل
يجوز لأصحاب العقل والفكر أن يشتركوا في سياسة الجماعات اشتراكاً
عملياً ؟ بعبارة أخرى : هل يجوز لأصحاب الفكر النظرى أن يتولوا
مقاليد الحكم ؟

ولهذا السؤال جوابان : فأما هذه الأسطورة التي نحن اليوم بصدددها ،

فتجيب جواباً واضحاً ، وهو أن لا ؛ لأن العقل الخالص إذا نزل إلى الأرض واضطرب في محيط الحياة العملية انحرف عن صوابه ، وضل ضلالاً بعيداً ، ذلك لأن الحياة العملية ستضطره اضطراراً أن يميل مع « الهوى » — والهوى في الأسطورة غرام بامرأة بغي ، لكن الأهواء قد تتعدد صنوفها — وشرط الفكر الخالص ألا يميل مع الأهواء كائنة ما كانت ، فيستوحى إملاء المنطق العقلي وحده دون أن يحب أو يكره ؛ شرط المفكر أن يقف من موضوع تفكيره على الحياد التام ، فلا يبدى عاطفة هنا أو هناك ؛ فإذا تناول العالم المفكر وردة ، انقلبت الوردة في يديه جسماً يحمله إلى أجزائه كما يحلل الأوساخ والأوحال ؛ أما إن شمها فأعجبته بأريجها ، فعندئذ يصبح فناً ويخرج من دائرة العلماء أصحاب الفكر الخالص والعقل المحايد .

وهيات أن تشترك في عالم السياسة بفكرك وتظل محايداً لفكرتك فلا تحيد بدوافع العاطفة ذات اليمين مرة وذات اليسار أخرى ؛ ومن ثم كان فساد الملائكة في هذه الأسطورة عندما نزلوا إلى الأرض . . .

لكن للسؤال جواباً آخر قاله أفلاطون منذ زمن بعيد ، فقد كتب « الجمهورية » ليقول فيما يقوله : إن الحكم ينبغي أن يكون للحكام ، أى أن تلقى مقاليد الحكومة إلى أصحاب الفكر — وهم عنده الفلاسفة — لأنهم أقدر من غيرهم على تفهم طبيعة الإنسان وقيادته ؛ فكما أنك لا تلقى

بزمام السفينة إلا إلى ربان يعرف طبيعة البحر والجو ليجنب السفينة مواضع
الخطر، فكذلك سفينة الدولة . . . إلى آخر ما قال .

ونحن نضع السؤال نفسه في صيغة أضيق مجالاً، فنقول: هل يجوز
لرجال الجامعة عندنا أن يشتركوا في الحكومة؟ ونترك للقارىء أن يختار
لنفسه أحد الجوابين؛ فأمامه ما قد أجاب به أفلاطون وما تجيب به أسطورة
هاروت وماروت .

رهان

هى عشرون جواداً أو ثلاثون ، بعضها فى حلبة السباق يلهث من الجرى ، وبعضها الآخر فى الحظائر يدس رأسه فى المذاود ليطم ، أو يتمرغ على أرض لينة — بما فرشت به من الدريس — ليستجم ويستريح ؛ ثم يتبادل الفريقان من الجياد موضعهما ، فتجىء الخيل المتسابقة إلى الحظائر فتأكل من المذاود جيد العلف أو تسترخى على الأرض اللينة لتستجم وتستريح ، وتذهب الخيل المستريحة الطاعمة إلى حلبة السباق تلهث من الجرى ، وهكذا دواليك حيناً بعد حين .

وحول حلبة السباق وقفت ألوف البشر ، متلاصقة الأجساد متدافعة بالمناكب ، حتى لتحمر منها الأعين ، وتنتفض الأوداج ، ويتصبب العرق ؛ هذه الألوف من التعساء المناكيد ، قد تأرقت جنوبها على المخادع ، لم يهنأ لها فى ديارها طعام ولا شراب ، فجاءت إلى حلبة السباق لتبذل من مالها وجهدها ما تستطيع بذله وما لا تستطيع ، رهاناً على الجياد المتسابقة ، حتى إذا ما أتمت الخيل شوطها ، أخذ يعلو فى الثراء والجاه من يعلو ، ويهبط فيهما من يهبط ، وللمراهنين فى كل يوم حظوظ كتبت لهم فى اللوح المحفوظ .

ارقب الوجوه والأجساد في ذاك الزحام ، واستمع إلى ما ينطقون به همساً وصياحاً ، حين تهتز أقدارهم في كف القدر ، معلقة بما هو أوهى من خيوط العنكبوت : هذا واحد قدمط عنقه مطاً ، وشد أوتاره شداً ، وشب على أطراف قدميه ، وأخذ يدور بناظريه خلال غابة من أعناق المتزاحمين ، لعله يتابع الجياد بناظريه وهي تدور ؛ فتنبسط في وجهه الأساري ثم تنقبض مائة مرة في الدقيقة الواحدة ، لأن حصانه الذي راهن عليه يتقدم تارة ويتأخر تارة ، وهو مع الحصان في تقدمه وتأخره يتأرجح انبساطاً وانقباضاً .

وهذا آخر يضرب الأرض بقدميه من قلق ، ويضرب فخذه بيديه ، ويذفر آهات متتابعات ، لكنها مختلفات الصوت والمعنى ، فأهة يذفرها مرة ليتوجع ، وآهة أخرى يطلقها لينتشي ؛ لأن حصانه هو الآخر لا يخلى بينه وبين الأمل المتصل أو اليأس المتصل ، فأخذ يورجحه بين اليأس والأمل .

وهذا ثالث لا يكف عن الصياح إلى الجياد منادياً لها بأسمائها ، يستنهض فيها الهمم ، لأن سنايبكها تكتب له مقدار حظه ، وكل ثنية ينثنى بها هذا الحصان أو ذاك ، لها في حياته هو مصدى ، فقد ينثنى حصانه قليلاً ذات اليمين ، فإذا معنى ذلك أنه رئيس على أتراه منذ الغد ، أو ينثنى

قليلًا ذات اليسار ، فيهبط منذ غده إلى مراتب المرءوسين ، وهم جرا ؛
فهو معذور إذا أجهد حلقه بالصياح هاتفاً : « الله الله يا سموحة ! »
« شد حيلك يا بلبل . . . »

وللمراهنين في اختيار جياهم مذاهب ؛ فبعضهم يفضل أن يضع
رهانه على جواد سباق ، راضياً بالكسب القليل المضمون ؛ ذلك
لأن الجواد إذا اشتهر بالسبق ، كثر المراهنون عليه ، وبالتالي قل النصيب
عند توزيع الغنائم ؛ وبعضهم الآخر يؤثر لنفسه الرهان على جواد مغمر
بعض الشيء ، لأن الحظ إذا أسعف هذا الجواد المختبئ وكان له السبق ،
فاز المراهن بربح موفور لقلّة المراهنين ؛ وبعضهم يمسك العصا من وسطها
— كما يقولون — حتى لا يفوته طرف اليمين ولا طرف اليسار ، فيراهن
على النوعين في آن معاً .

وأشهد أني عشت ما قد عشت من سنين ، غافلاً عن هذا النشاط
العجيب الذي يستنفد جهد الألوف من البشر ، فقد كنت أحسب أن
الناس جميعاً ينفقون أيامهم كما أنفق أيامي على نحو بارد عمل رتيب : عمل
وأكل ونوم ، فعمل وأكل ونوم ، ثم عمل وأكل ونوم ؛ لم أكن
أدرى أن هنالك ألوفاً من البشر تقمض أعينها على أرق وتفتحها على قلق ،
من كثرة ما أضافت إلى حياتها من عوامل الأمل واليأس ، وأسباب

الصعود والهبوط ، بحيث لا يكون الواحد منهم في غده ما يكون في يومه ، فهو في كل يوم على حال .

وظلت على غفلى حتى فتح عيني صديق الطيب البارع حين ذهبنا يوما إلى دار السينما ، حيث شهدنا فيها مباراة في الملاكمة جرت بين ملاكين قيل إنهما مشهوران معروفان في العالم أجمع — وإن كنت لم أعرف عنهما شيئاً — وحول منصة المباراة جلست أو وقفت ألوف مؤلفة من المتفرجين ، على أشد ما يكون الناس تحمسا واهتياجاً ؛ فكانوا يقفون ويقعدون ، ويلوحون بأيديهم ويخبطون الأرض بأقدامهم ويصيحون على نحو عنيف مثير ، كأنه يوم الحشر قد نفخ له في الصور .

عندئذ ملت نحو صديقي أهمس في أذنه . كيف تبلغ حرارة التحمس عند هؤلاء الناس كل هذا المدى ؟ ألسنا مثلهم ننظر إلى اللاعبين فنرى ما يرون ؟ لماذا — إذاً — ننظر في هدوء وصمت ، وينظرون هم في هذه الضجة الكبرى ؟ كيف يكون بين الناس كل هذه الفروق والمشهد واحد أمامهم ؟ ! .

فضحك صديقي الطيب البارع ضحكة الرزينة الهادئة ، وقال : إن هؤلاء لا يتفرجون على الملاكمة وكفى كما نفعل نحن ، وإلا لما كان هناك كل هذا الفرق بيننا وبينهم ، لكنهم قد راهنوا بأموالهم على اللاعبين ،

فأصبح الأمر عندهم أمر كسب أو خسارة ، ومن ثم هذا الهيجان العنيف
وهذا التحمس الشديد .

وأشهد أنى منذ تلك الملاحظة اليسيرة العابرة ، التى قالها لى الصديق
الطيب ، قد فهمت من مجرى السياسة المصرية ما لم أكن أفهمه من
تيارات ودوافع ، وانكشف لى عن كثير من سرها الذى ليس بالسر
عند النابيين المتنبهين الذين تمتلئ عروقهم بدم الحياة ويشتعلون حرارة
بوقدة العيش ، وإنما هو سر ينتظر الكشف عند الغافلين المغفلين الذين
يجعلون أيامهم عملاً وأكلاً ونوماً .

فى حلبة السياسة المصرية تجيء وزارة وتمضى وزارة ، كالجياذ رأيناها
فى حلبة السباق تجيء وتمضى ؛ وبين الوزراء يبيضون ويمضون ، ما بين
الجياذ : فمنهم وزراء عاملون قائمون على الحكم ، يشبهون الخيل وهى
تجرى شوطها لاهثة من الجرى ، ومنهم وزراء متعطلون يقضون فترة
الراحة ، فترام فى الأندية والدور يطعمون وينعمون استجماماً واسترخاءً ،
استعداداً لدورتهم القادمة — فثلاثون عاماً من أعوام السياسة المصرية قد
علمتهم أن الوزارة دورات متتابعة يتولاها فريق بعد فريق ، رضى الناس
أو كرهوا .

أما الغافلون المغفلون فيقرءون خبر وزارة تجيء ووزارة تمضى ، على نحو

ما كنت مع صديقي الطبيب أشهد الملاكمة ؛ يقرءونه خبراً من الأخبار
كما يقرءون — مثلاً — أن مواعيد القطارات الذاهبة إلى الإسكندرية
قد تغيرت مع قدوم الصيف أو حلول الشتاء ، فيترتب على ذلك تغيير
يسير جداً في حياتهم ، أو لا يترتب عليه شيء قط ، إن لم يكونوا من
أصحاب السفر والانتقال — وهم في كلتا الحالتين يقرءون الخبر بجنون ثابت
وأعصاب هادئة ، ولا يكادون يفرغون من قراءته ، حتى يلقوا بالجريدة
حائباً ، ليمضوا فياهم ماضون فيه من عمل وأكل ونوم .

وأما النابهن المتنبهن فليست هذه حالهم ، فهم أشباه هؤلاء الألوفا
الذين شهدناهم حول حلبة السباق يراهنون بجهدهم كله وماهم كله على هذا
الحصان أو ذاك ، ثم يقفون بعد ذلك في تشوف وتطلع وقلق وأرق
وانتظار ؛ ترى هل يكتب لهم في ميدان السباق صعود أم هبوط ؟ ترى
هل يخرجون من الزحام ظافرين أم خاسرين ؟ .

ويختلف المراهنون في ميدان السياسة المصرية أحزاباً على نحو ما رأينا
المراهنين في حلبة السباق يختلفون مذاهب : ألم تر فريقاً من المراهنين
على الجياد يفضل الرهان على جواد كسبه قليل لكنه أكثر ضماناً من
غيره لأنه سباق ؟ وفريقاً آخر يؤثر الرهان على جواد مغمور بعض الشيء
لكن كسبه غزير موفور إن صادفه التوفيق وحالفه النجاح .

فهكذا يتخير المشتغلون بالسياسة المصرية أحزابهم : هل يناصر هذا

الحزب أو ذاك؟ أما هذا الحزب فأشياعه كثيرون والرجحان في الكسب من ورائه قليل ، وأما ذلك الحزب فأشياعه قليلون واحتمال الكسب من ورائه كبير ؛ وذلك الحزب الآخر لا رجال فيه ، فطريق الوزراء لأعضائه البارزين مفتوح . . وهكذا يأخذ المشتغلون بالسياسة المصرية في المفاضلة بين حزب وحزب ، ثم يختلفون في اختيارهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم ، فمن الناس من يحب المغامرة الجريئة التي إما رفعتهم إلى قمة الجبل الشاهق أو جاءتهم بالهلاك ، كهؤلاء الذين نقرأ عنهم في الأساطير من طلاب السكروز المدفونة في الجزر البعيدة ؛ تراهم يركبون في سبيل بغيتهم كل صعب ، فيما كنز يقعون عليه فتدين لهم الدنيا أو يهلكون ؛ لكن الناس فيهم إلى جانب هؤلاء المغامرين من أذلم الحرص فأرادوا السير الهين السلس وإن أبطأ .

ورءوس الأحزاب المصرية على أتم علم بجوانب الموقف ما ظهر منها وما استتر ؛ فهم يعلمون حق العلم أن ليس الأمر بين الناس مرهوناً باختلاف الآراء وتشعب الفلسفات ، ليس الأمر عند المشتغلين بالسياسة المصرية موقوفاً على اختلاف المنهج ؛ فوزارة تجيء لأنها اشتراكية والناس قد صوتوا في الانتخاب للحكم الاشتراكي ، أو لأنها محافظة على النظام الاقتصادي القديم والناس قد أرادوا عند الصويت لهذا النظام القديم أن يبقى ؛ إنما الأمر كله كسب شخصي وغنائم ، الأمر كله رهان في حلبة

السباق : أى الجياد أقرب إلى أن يملأ جيوبى بالمال وجوفى بالطعام
فأراهن عليه . . . وأدرك رؤساء الأحزاب المصرية ذلك أتم إدراك ،
فراحوا - كلما جاء الحكم إلى فريق منهم - يصدقون على أنصارهم ألوان
النعم جزاء ما رهنوا ، ولقاء ما بذلوا من جهد جهيد فى الصباح والعتاف
والقلق والأرق .

والسعيد السعيد فى هذا البلد هو من يهتدى فى حلبة السياسة إلى
الجواد الرابع ، والشقى الشقى هو من ربط مصيره بجواد خاسر .

نظرة الطائر

يرتفع الطائر إلى السماء وينظر ، فتكون نظرتة واسعة المدى بعيدة الأفق ؛ وأما اللودة فتتكفي بوجهها نحو الأرض زاحفة ، فينحصر نطاق النظر عندها حتى لا يمتد إلى أبعد من أنفها .

ونحن في كثير جداً من أمورنا — أفراداً ودولة — أقرب إلى اللود الزاحف منا إلى الطير المخلق في الفضاء ؛ فترانا ننظر إلى « هنا » و « الآن » — على حد تعبير الإنجليز — أى ننظر إلى مواضع أقدامنا وإلى اللحظة الزمنية القصيرة التي نجتازها ، ثم نتصرف بما يرضى ذلك المكان المحدود وهذا الزمن القصير العابر ، بغض النظر عما يترتب على ذلك من نتائج فيما هو أبعد قليلاً من نطاقنا المكاني والزمانى الضيق المحدود ؛ ولا غرابة إذاً أن ترانا ننقض غداً ما أبرمناه اليوم ، ثم نهدم بعد غد ما بنيناه في الغد ؛ ذلك لأننا اليوم لا نفكر في غد أو بعد غد ، وفي غد ننسى اليوم وتتناسى ما يتلوه من أيام — كالتى نقضت غزلاً ، لولا أن التى كانت تغزل غزلاً لكى تنقضه ، ثم تغزله مرة جديدة لتنقضه ، وهكذا ، إنما كانت تقصد إلى المماثلة حتى يعود زوجها من سفره البعيد المجهول ، تخلصاً من خطابها الكثيرين الذين لبثوا ينتظرون قرارها ، وقد وعدتهم ألا تنطق بقرار حتى تم غزلاً ،

ثم قصدت ألاتمه أبدأ ، فراحت تغزل وتنقض ماغزلت ، وهى عالمة بما تفعل مدبرة له ؛ وإذا فمن الظلم على تلك المفكرة المدبرة التى ترسم لنفسها الخطة وتأخذ فى تنفيذها ، من الظلم عليها أن نقيس أنفسنا بها حين نريد تشبيهاً بصور حالنا ، إذ نبني اليوم ما نهدمه بعد حين ، عن غير تدبر ولا تفكير .

حين يرتفع الطائر إلى السماء لينظر ، تعتدل فى عينيه النسبُ بين الأشياء مقروناً بعضها إلى بعض ، فيرى على وجه الدقة ضالة الضئيل وعظمة العظيم ، إذ يرى - مثلاً - كم يكبر هذا البناء العالى ذلك الكوخ الصغير الوطى ، لأنه يراها معاً بنظرة واحدة فتسهل الموازنة والمقارنة ، أما إذا وقف ذلك الطائر على باب الكوخ ونظر ، فسيخيل إليه أنه إزاء عمارة جبارة ، أين هو منها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ؛ وسيحجب الكوخ عن عينيه ما وراءه من قم عالية ، فينقلب الكوخ الصغير الوطى فى عينيه مثلاً أعلى فى الارتفاع والسمو .

إن إدراك النسبة الصحيحة بين الأشخاص والأشياء والأفكار نعمة كبرى ، ليست تتوافر للناس جميعاً على السواء ، فهذا قد تدقّ عنده « حاسة النسبة » بين الأشياء دقة تهديه إلى وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وذلك قد تنعدم عنده تلك « الحاسة » انعداماً حتى لتراه يُكبر الصغير ويصغر الكبير وهو لا يدري ؛ وما أشبه هذين برجلين متساويين

في الدّخل ، فأما أولها فيوزع ماله المكسوب على مقتضيات الحياة — ضروراتها وكالياتها — توزيعاً تراعى فيه النسبة الصحيحة ، فلا يضطرب له أمر ، وأما الثاني فقد تمتلكه الشهوة نحوشى بعينه فيزيغ بصره عما عداه ، وينفق ماله كله في ناحية واحدة لأن عينه قد عميت عن سائر النواحي ، فيختل التوازن وتضطرب الحياة .

ولعلنا إذ نصف إنساناً بأنه « عاقل » في طريقة تصرفه في حياته ، فإنما نريد بهذه الصفة أنه ينظر إلى أموره الكثيرة نظرة الطائر ، ليراها كلها في لمحة واحدة ، فيتسنى له أن يوازن ليقدر النسبة الصحيحة بين أحجامها ، وعندئذ يقدم الأهم على المهم لأنه قد وقف الوقفة التي تكشف له أين الأهم وأين المهم وأين ما ليست له أهمية فيحذف من قائمة الحساب ؛ فالإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، وليس من الحكمة أن تقتلع تلك الشهوات والرغبات اقتلاعاً من أساسها ؛ فتلك هي النظرة القديمة التي استبدت بتفكير الإنسان عصوراً طويلة ، على اعتبار أن الشهوات والرغبات هي من مقتضيات الجسد ، والجسد منبوذ مكروه محقر دنيء ، بكل ما يتعلق به وبكل ما يقتضيه ؛ أما الصحيح فهو أن نضع هذا الجسد البشري موضع التقدير ، وكدت أقول موضع التقديس ؛ ولكم عانى الناس ضروب العنت والإرهاق بسبب أن أجسادهم لم تكن هي موضع الاعتبار من أولى الأمر ، فلبثت تلك الأجساد تتضور من جوع وتئن من ألم لأن أصحاب

الشان مشغولون « بالمثل العليا » التي هي وراء الأجساد وتزدري التفكير في الجوع والألم ! لكن ذلك استطراد قد بعد بنا عما أخذنا في تقريره ، وهو أن الإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، ليس من الحكمة في شيء أن تُجثت وتقتلع ، وإنما الحكمة هي في نسبتها بعضها إلى بعض نسبة صحيحة ؛ فأشبع هذه الرغبة متى ضعف ما أشبع تلك ، إذا رأيت ذلك يحقق لي في النهاية أوازن الحياة وهدوءها واطراد رقيها — ولست أستطيع إدراك هذا التناسب إلا إن وقفت من رغباتي جميعاً موقف الذي يراها دفعة واحدة ، وتلك هي نظرة الطائر .

وما أكثر ما نصف بالجنون إنساناً ، إذا حللنا وجه النقص فيه ، وجدناه انحصار نظره في نطاق ضيق من جوانب حياته ، أو خضوعه خضوعاً تاماً لعاطفة واحدة أو فكرة واحدة فرضت نفسها عليه فلم يعد يستطيع رؤية ما وراءها أو الإحساس بما عداها ؛ فالذي ينصرف بكل شعوره نحو الحزن على وليد فقده أو مال أضاعه ، مجنون جنون الذي ينصرف بكل إنفاقه نحو الخمر غير آبه لما يتطلبه العيش من رداء ومسكن وخبز وماء ؛ وموضع الجنون هنا هو في النظر بعين الدودة المنكفئة بوجهها نحو الأرض فلا ترى أبعد من مليمترين أو ثلاثة ، فتفوتها الدنيا الواسعة العريضة من حولها .

و « العاقل » في نظره إلى الأمور نظرة الطائر ، يضيف المستقبل

إلى الحاضر في اعتباره ، وكما ارتفع الطائر الرأى ازداد الطول الزمنى الذى يقع له في مجال رؤيته ، واتسعت أمامه رقعة المستقبل الذى لا بد أن يدخله في حسابه وهو يقضى في شئونه بهذا القرار أو ذاك ؛ ومن هنا قيل إن الموازنة بين الرغبات عند إشباعها وتفضيل بعضها على بعض ، تحسب حساب المدة إلى جانب حسابها للحدة ؛ فقد تكون الرغبة الآن حادة شديدة ملحة تناديك بإشباعها إشباعاً سريعاً ، لكن أثر إشباعها لن يقيم معك إلا لحظة قصيرة ثم يمضى ، بل قد تترك وراءها من النتائج ما يسبب آلاماً أضعاف أضعاف اللذة التى نجمت عن إشباعها ، فمثل هذه الرغبة — عند « العاقل » — يجب أن تفسح الطريق لرغبة أخرى أطول منها أمداً في بقاء الأثر وإن تكن أقل منها حدة وإلحاحاً في اللحظة الراهنة .

وكذلك الأمر في الدولة وسياستها ؛ فقد توصف الدولة بأنها بعيدة المدى في سياستها أو قصيرة المدى ، والفرق بين الحالتين هو الفرق بين نظرة الطائر ونظرة الدودة : الدولة في الحالة الأولى توسع من نطاق الرؤية حتى لتضع مئات السنين المقبلة في اعتبارها وحسابها ، وهى في الحالة الثانية تضع أنفها على الرغام وتنظر ، فإذا اللحظة الراهنة ومقتضياتها هى كل ما هناك ، وأنا أترك للقارى أن يحكم لنفسه بأى النظرتين تنظر الدولة في بلادنا : أهى من قبيل ما ينظر الطير أم من قبيل ما ينظر الدود ؟

وكذلك تتحكم فينا نظرة الدود في علاقتنا ببعضنا بعض ؛ فقد أوصينا

برعاية ذوى القربى ورعاية الجار ، ولو سألنا : من هم ذوو القربى ومن هو الجار الذى يجب علينا رعايته ؟ كان الجواب عند الدودة غيره عند الطائر : « القربى » عند الدودة هي « القُرب » المكانى الزمنى ، فلا قرابة إلا لمن التصق بجلدك التصاقاً ليدخل فى نطاق نظرك الضيق ، وإلا فلو بعد قليلاً فلا سبيل إلى رؤيته وإدراكه ، لأن الوجه منكفىء نحو الأرض فلا يرى ؛ وكذلك الجار هو من تمديدك فتلمسه إلى جوارك ؛ لكن الطائر حين يرتفع ويتسع نطاق إدراكه ، تزداد فى عينه المسافة من مكان وزمان ، ويصبح « البعيد » فى الحقيقة « قريباً » ، فذوو قرباه عندئذ يزداد عددهم ، كما يزداد عدد جيرانه .

إن أصحاب النظرة البدائية الإقليمية المحدودة هم الذين يحسبون القربى محصورة فى الأسرة وأفرادها ، ويحسبون الجوار فى تلاصق جدران المنازل ؛ وإذا علوت بنظرك ، أصبحت الأمة كلها من ذوى قرباك ، وأصبح الشعب كله جيرانك — ثم إذا ازدادت ارتفاعاً حتى تقرب من مواضع الآلهة ، كان ذوو القربى هم الإنسانية كلها ، وكان الجيران هم أفراد البشر جميعاً .

إنه لما استوقف النظر فى هذا الصدد ، أن الفلاسفة الذين كتبوا فى الدولة المثلى ، تفاوت فى أعينهم الحجم بتفاوت أزمانهم ؛ فأفلاطون يرى الدولة المثلى فى « مدينة » واحدة ، لأنه لم يكن يتصور أن التماسك

الاجتماعى ممكن إذا اتسعت رقعة البلاد اتساعاً يجاوز بها حدود المدينة ، وهو فى ذلك بغير شك صادر عن تفكير عصره السياسى والأخلاقى معاً ، فكأنما الإنسان عنده قد ضاق به الخيال حتى ليعجز عن مؤاخاة إنسان آخر فى مدينة أخرى ؛ وجاء « توماس مور » فى عصر النهضة الأوربية فكتب فى الدولة المثلى ، وجعلها جزيرة لا مدينة ، لأن الأفق الإنسانى كان قد اتسع بعض الشيء ؛ ثم جاء بعد ذلك من الكتاب الأوربيين — مثل أوجست كونت وسموئيل بتلر — من جعل الدولة المثلى هى أوربا جميعاً بعد أن تتحد دولها كلها فى دولة واحدة ؛ وهى دعوة شبيهة بما يدعو إليه فريق من ساسة هذا العصر ؛ وأخيراً جاء « ولز » وكتب كتاباً فى الدولة المثلى فجعل حدودها الكرة الأرضية بأسرها — وهكذا ترى الطائر يزداد ارتفاعاً على مر الزمن ، فيزداد أفقه اتساعاً .

أعتقد أننا نصيب إذا قلنا إن نظرة الطائر علامة من علامات التقدم والرقى ، ونظرة الدودة دليل على التأخر والبدائية .
ترى فى أى مرحلة نحن من مراحل الطريق ؟ .

تمثال فيدياس

في محاوره « هيباس الكبير » لأفلاطون ، يدور نقاش بين سقراط وهيباس عن الجمال ما هو؟ ويستطرد الحوار بينهما سؤالاً وجواباً ، حتى يبلغ موضعاً يدور فيه الكلام على الصورة الآتية :

هيباس — لو كان ، يا سقراط ، كل ما يريده منى السائل عن معنى الجمال ، أن أدله على شيء يخلع الفتنة على كل الأشياء الفاتنة ، بحيث يبدو الجميل جميلاً إذا ما أضيف إليه ذلك الشيء ، فليس أيسر من الإجابة عن مثل هذا السؤال ، ولا بد أن يكون السائل في هذه الحالة غاية في السذاجة والفقر في ذوقه الفنى ، لأنك إذا أجبتَه عن سؤاله يقولك : إن الجمال الذى يسأل عنه ، إن هو إلا الذهب ، أخرسه الجواب ولم يستطع أن يقيم له اعتراضاً ؛ لأننا جميعاً — فيما أظن — متفقون على أن الشيء إذا طلى بالذهب ، حتى وإن كان قبيحاً قبل طلائه ، فسيبدو جميلاً بعد إضافة الذهب إليه .

سقراط — إنك لاتدرى إلى أى حد تبلغ البدائية الجاهلية من صاحبنا السائل يا هيباس ؛ ولا تدرى كم يتعذر عليك أن تقنعه .

هيباس — وماذا يضريك من أمثال هذا البدائي يا سقراط ؟ إنه إذا

لم يرض بقولة الحق ، فسيكون هو أضحوكة الضاحكين .

سقراط — لكنه مع ذلك سيكون أبعد ما يكون الإنسان قبولاً
لمثل جوابك هذا ، وسيتناولني أنا بلاذع تهكمه ، قائلاً : هل أصاب
رأسك مسٌّ من جنون حتى لتظن أن « فدياس » نحات رديء ؟ وعندئذ
لا بد لي من الاعتراف له بأنني لا أظن مثل هذا الظن بـ فدياس .

هيباس — وستكون في اعترافك هذا على حق ياسقراط .

سقراط — بالطبع ؛ ومع ذلك فإذا ما اعترفت له بأن فدياس فنان
مُجيد في فنه ، سيقول لي على الفور : « وهل تظن أن فدياس لم يكن
على علم بمثل هذا الجمال الذي تحدثني الآن عنه ؟ » وعندئذ سأستفسره
ما يريد بسؤاله هذا ، وسيجيب قائلاً : « لأن فدياس حين نحت تمثال
« آثيني » لم يجعل عينيها من ذهب ، إنما صنعها من عاج ، ألم يكن
الذهب (على رأيك) ليزيدها جمالاً ؟ ولا بد أن يكون خطأه هذا في فنه
راجعاً إلى جهله بهذه الحقيقة التي جئت تقررها لي اليوم ، وهي أن كل
شيء جميل إنما يستمد جماله من الذهب » — فبماذا ترد اعتراضه هذا
يا هيباس ؟ .

هيباس — ليس في ذلك شيء من عسر ، سنقول إن فدياس كان
على صواب فيما فعل ، لأن العاج أيضاً جميل .

سقراط - لكنه سيعود إلى السؤال قائلاً : « ولماذا صنع فدياس
الحدقتين (في تمثاله) من الحجر ، فجاء الحجر والعاج على أتم ما يكون
الانسجام ؟ أم هل تقول إن الحجر الجميل هو كذلك - كالذهب والعاج -
شيء جميل ؟ .

هيياس -- نعم إن الحجر حين يوضع في موضعه المناسب يكون
جميلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتراف بجماله عندئذ .

سقراط - وإذا سألتني إن كان الحجر يبدو قبيحاً لو وضع في غير
موضعه الملائم ، فهل أوافقه أو لا أوافقه ؟ .

هيياس - لا بد لك من موافقته يا سقراط .

سقراط - عندئذ سيجبيني قائلاً : إذا فخلاصة حكمتك هي أن
العاج والذهب يخلعان على الأشياء جمالاً على شرط أن يجيئا ملائمين ،
أما إذا أضفت إلى الشيء عاجاً أو ذهباً في غير ملاءمة فسيكون الشيء
قبيحاً برغم ما أضيف إليه من عاج أو ذهب ؟ « . . . الخ .

* * *

وأحسب القارئ على أتم اتفاق مع هذه النتيجة التي انتهى إليها
سقراط في هذا الجزء من محاورته مع زميله هيياس عن معنى الجمال ؛ إنه
الملاءمة والتناسب ، مهما تكن المادة التي بين يديك ، فالذهب في الموضع

الخطأ قبيح ، والحجر في الموضع الصواب جميل .

ليس الجميل جميلاً ولا القبيح قبيحاً في ذاته بغض النظر عما يحيط به من ظروف وملابسات ، فالشئ الواحد يكون جميلاً هنا قبيحاً هناك ، لأنه هنا متفق متسق مع محيطه ، وهو هناك متنافر نشاز ؛ وكثيراً ما يعاد تنظيم الأجزاء مع بقائها على عددها بغير حذف أو إضافة ، فتصبح جميلة بعد قبح ، أو قبيحة بعد جمال .

وما جمال الشعر أو النثر الفنى ؟ إن هذا أو ذاك قوامه ألفاظ من القاموس ، لكنه الوضع الصحيح للفظه بالنسبة إلى ما يجاورها هو سر الجمال عبارة وتعبيراً ؛ والمشاعر نفسها قد تَجْمَلُ أو تَقْبَحُ بائتلافها أو اختلافها مع المحيط ؛ فالضحك في مآثم قبيح كالباكي في عرس سواء بسواء ؛ وهذا هو نفسه معنى النشاز في أنغام الموسيقى ؛ فالنعمة نشاز مردول بالنسبة لما حولها من نعمات ، وربما كانت هي نفسها نعمة جميلة في موضعها المناسب ؛ والقذارة مادة كآية مادة أخرى ، لكنها وضعت في غير موضعها الصحيح فأصبحت « قذارة » تسمئز منها النفوس ؛ وهكذا وهكذا من الأمثلة التي لاتنتهى ، مما يقطع بصواب هذه النتيجة في معنى الجمال — وهى أن الشئ يستحيل الحكم عليه في ذاته بجمال أو بقبح مجرداً عن موضعه بالنسبة إلى سائر الأشياء .

وبديهي أن هذه الحقيقة الواضحة تظل حقيقة في صغار الأمور وكبارها على السواء ؛ فليست الأنظمة السياسية والاجتماعية بالشئ الذي يوصف بالجمال أو بالقبح ، أو يوصف بالصواب أو بالخطأ ، مجرداً عن الظروف التي يراد لتلك الأنظمة أن توضع في وسطها ؛ فإذا كان من الحكمة أن تعامل الطفل على أنه طفل وهو طفل ، فمن الحكمة كذلك أن تعامل الجاهل على أنه جاهل وهو جاهل ؛ أما إذا طالبت الطفل أن يسلك سلوك الرجال ، أو توقعت من الجاهل أن يتصرف تصرف العلماء ، فأنت متطلب من الأشياء ضد طباعها ، وموقفك في كلتا الحالتين خطأ قبيح .

إنني حتى هذه الساعة من حياتي ما أزال أعاني كلما عاودتني ذكرى طفولتي حين كنت أتصرف كما يتصرف الأطفال بحكم طبائعهم المفطورة فيهم ، فإذا بالصفعات تأتيني من حيث أدرى ولا أدرى ؛ ذلك أن والدي رحمه الله كان يريدني رجلاً في سلوكي وأنا بعد في الخامسة من عمري أو نحوها ؛ كان يعطيني المال ويطلب مني أن أشتري له كذا بكذا وأعيد له بقية ماله ، وكثيراً ما كنت أخطيء في وصف ما حدث فينزل بي العقاب السريع ، على الرغم من أني كنت أعود له ببقية ماله صحيحة كاملة — لا ؛ إنه لم يكفني مني أن أذهب إلى الدكان كالآلة الصماء فأشتري كذا وأعود له بكذا ، بل لا بد لي أن أبين له لماذا كان الحساب على نحو ما كان ؛ ولم يكن ذلك الحساب في مقدوري عندئذ ؛ وإذا فما أقبح

— في رأيه — ألا أكون مثله في سرعة الحساب ودقته ، وهيئات له أن يقتنع بأقوال الوسطاء ، بأن الطفل لا يطلب إليه ما يطلب إلى الرجل .

ولست أدري لماذا أحكم على أبي الآن بالخطأ ، ولا أحكم بهذا الخطأ نفسه على دولة تتولى أمور أمة في دور الطفولة ، وتصر على أن تضع لها من الأنظمة السياسية والاجتماعية ما لا يتسق إلا في أمة اكتمل نموها ونضجها ؛ فتكون النتيجة المحتومة أن تعجز الأمة الطفلة عن هضم الغذاء لأنه أكثر دسماً مما تحتمله معدتها ، وينتهي بها الأمر إلى حال من الذبول والموت ، وقد أراد لها ولاتها الحياة والنمو ، أرادوا لها ذلك بنية حسنة طيبة ، لكن الطريق إلى الجحيم قد يكون مرصوفاً بأطيب النيات .

* * *

لكننا أمة دستورها في الجمال هو طلاء الشيء بالذهب ، فحسب العين أن تقع من الشيء على ظاهر لامع يخطف البصر ببريقه ، وليكن بعد ذلك من حقيقة الباطن ما يكون ؛ فما نزال نهتدى في كل أمورنا بالقول السائر بأن « الجرن الكبير خير من شماتة الأعداء » — وليس يهمنا بعد ذلك في كثير أو قليل أن يكون ذلك الجرن الكبير مليئاً بالغلل أو خاوياً ينعي من بناء .

الأفراد ! الأفراد !

إذا جعلتُ قصة « الوعاء المرمرى » لأستاذنا الأديب الفاضل محمد فريد أبو حديد ، موضوع حديثي إلى القراء فلأنها قصة قد أثارت في نفسي كثيراً جداً من مشكلاتنا الاجتماعية والأدبية على السواء .

إنها « قصة جهاد بطل وأمة — من حياة سيف ابن ذى يزن بطل اليمن » ، ولعل أديبنا الفاضل قد أراد بها اليوم أن تكون تحية منه يهديها إلى المجاهدين في سبيل الحرية القومية بمثل ما جاهد سيف بن ذى يزن في تحرير بلاده من الحبشى الفاصب — لعله أراد بكتابه هذا أن يكون تحية منه لشباب اليوم من المجاهدين ، يهديها إليهم من ذكريات شبابه ، عندما كانت الثورة المصرية في عزها تلهب نفسه الحساسة بحرارة الإيمان والأمانى ، أيام أن غمسته روحه الوطنية في بنى قومه من أبناء الشعب في إحدى ندواتهم « البلدية » ، حيث يعتلى « الشاعر » منصة لينشد للسامعين قصة سيف بن ذى يزن . . . ف « هذه القصة التي أكتبها

اليوم بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأيام البعيدة ما هي سوى تحية أوديتها لذكرى اللحظات المجيدة التي كنا نجاهد فيها بأنفسنا ونسخر فيها بأرواحنا ، لا نسأل أحداً عليها أجراً ولا شكراً . . . ثم هي تحية

للشاعر الذى مازالت صورته ماثلة فى الذكرى وإن كان اليوم بشوى،
فى مضجعه الأبدى ، لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك
قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب »

وأول ما نذكره مما يعيننا الآن من هذا الكتاب النفيس هو أنه
قصة أدبية ، أجراها كاتبها على قواعد الفن القصصى ، وليس بذى
وزن كبير فى العمل الأدبى أن يكون موضوعه منتزعاً من التاريخ
أو لا يكون ؛ بل لا يجوز للناقد أن يحاسب الأديب على صدق ما ورد
فى قصته من تاريخ ، مستنداً فى محاسبته إياه إلى المدونات والوثائق ،
لأن صفة التاريخ فى القصة الأدبية عَرَضٌ ، والأصل فيها تصوير
الأشخاص الذين تقوم القصة على أقوالهم وأفعالهم .

فلا يكاد الناقد يسأل : هل صدق شيكسبير — مثلا — صدقاً
تاريخياً فى مسرحياته « هنرى الثامن » و « رتشارد الثالث » و « أنطون
وكليوباترة » وغيرها من رواياته التاريخية — يكاد الناقد لا يسأل هذا
السؤال ، لأنه يعلم أنه بصدد عمل أدبى أنتجه فنان ؛ فالسؤال فيه إنما
يكون : هل رسم الفنان هذا الشخص أو ذاك رسماً يجعله ذا طابع فردى
متميز ، كالذى يتسم به الأفراد الأحياء الذين نصادفهم فى الحياة
ويصادفوننا ؟ هل هذا الملك أو هذا العاشق أو هذا الخادم ، قد تكاملت
فى صورته العناصر تكاملاً يتم فيه بعضها بعضاً ، كما تكامل الأجزاء

في أي كائن عضوي بصفة عامة ، وفي أفراد الإنسان بصفة خاصة ؟
لقد أتاحت السِّما منذ حين لألوف المتفرجين أن يشهدوا مسرحية
« قيصر وكليوباترة » لبرنارد شو ، فشهدوا قيصر وكليوباترة على غير
ما ألفوا سماعه عنهما من كتب التاريخ ، لذلك كان النقد الذي يدور
على ألسنتهم هو هذا : إن الأديب قد أخطأ هنا لأن كذا قد حدث ،
وأخطأ هناك لأن كيت لم يحدث . . . ، كأنما قد قطع الأديب لهم عهداً
على نفسه بأن يكون مؤرخاً يحاسب بالوثائق والمراجع والأسانيد .

إن بين العلم والفن فارقاً لو جعلناه نصب أعيننا ، ضاقت شقة الخلاف
بيننا في تقدير الآثار الفنية تقديراً يميز به غشها الزائل القاني من سمينها
الخالد الباقي ، وذلك هو أن العلم تعميم والفن تخصيص ؛ العلم يبحث
في أفراد من النوع الواحد ، لا ليقف عند الأفراد في ذواتها ، بل ليسقط
من حسابها المميزات الخاصة التي يتصف بها كل فرد على حدة ، ويبقى
العناصر المشتركة التي تعم أفراد النوع جميعاً دون تمييز بين فرد وفرد ؛ فإذا
قال العلم - علم النفس مثلاً - إن الإنسان من طبيعته جمع الأشياء
وحيازتها ، كان قوله هذا نتيجة ملاحظة عدد من أفراد الناس ، والتقاط
الصفة أو الصفات التي يشتركون فيها ؛ فإذا كان هذا الفرد معنياً بجمع
المال ، وذلك معنياً بجمع الكتب القديمة ، والثالث بجمع الآثار الخرفية ،
أسقط العلم ما يختلفون فيه مما يُجمع ، وأبقى على المشترك بينهم وهو أنهم

يجمعون ويملكون ؛ أما الفن فيقف عند الفرد الواحد ليزب ما قد اختص به بحيث أصبح متميزاً من غيره متفرداً ، ويكون نجاح الفنان بمقدار توفيقه في الاهتمام إلى هذه الصفات الخاصة المميزة للحالة المفردة التي يصورها ، وترتيبها على نحو يبرز لنا في النهاية إنساناً معيناً بذاته الفذة الوحيدة .

فالعلم والفن كلاهما يتناولان الأفراد الجزئية ، أما العلم فيتناولها ليأخذ ما تشترك فيه من صفات ثم يهملها ، وأما الفن فيتناولها ليقف عندها من بدايته إلى نهايته ؛ وعندى أن الشرق بصفة عامة قد زاغ بصره عن الفردية التي تميز إنساناً من إنسان وحالة من حالة ؛ ولذلك فقد أفلت منه العلم والفن معاً إلى أقوام آخرين تقف أنظارهم عند الفوارق بين الأفراد والأشياء ؛ ولقد عبرت عن رأيي هذا حين أخرج الأستاذ توفيق الحكيم مسرحيته « الملك أوديب » وقدم لها بمقدمة طويلة يحاول فيها تعليل غياب المسرحية من الأدب العربي القديم . فقلت عندئذ إن رأيي هو أن الأدب المسرحي — والقصصي أيضاً — يستحيل قيامه بغير التفات إلى تميز الشخصيات الفردية بعضها عن بعض ؛ فلو نشأ الكاتب في جو ثقافي لا يعترف للأفراد بوجود ، ويطمسهم جميعاً في كتلة واحدة من الضباب الأدكن ، فلا سبيل أمام هذا الكاتب إلى تصوير الأفراد في قصة أو مسرحية ؛ والشرق كله قد طمس الفرد طمساً ولم يترك له مجالاً يتنفس فيه ؛ فالأفراد في الثقافة الهندية كلها « مايا » — أي وهم

لا وجود له — والموجود الحق عند الهنود هو الكون كلاً واحداً لا تفرّد فيه ولا تكثُر ؛ وقلّ مثل هذا في الصين وفي كل بلاد الشرق بصفة عامة ؛ الحضارة الشرقية كلها تغفل شأن الفرد وتجعله جزءاً من شيء أعم منه ، فهو عند العرب جزء من القبيلة ، فلا وزن له إلى جانبها ولا قيمة له بالقياس إليها ؛ وما كذلك اليونان ، لأن الفرد عندهم هو محور التفكير — حتى الآلهة عندهم أفراد لهم مميزاتهم ومبشخصاتهم ؛ ومن هذين الاتجاهين المختلفين في الشرق والغرب ، نشأت الديانات في الشرق ، ونشأ العلم والأدب في الغرب ، لأن معظم الديانات أساسها التوحيد بين الظواهر المختلفة ؛ وأما العلم والفن فأساسهما التمييز بين تلك الظواهر — العلم يميز الأنواع والفن يميز الأفراد — وهكذا لم يعرف الشرق « أشخاصاً فردية » فلم يعرف مسرحية ولا قصة .

وأعتقد أن أكبر تطور طرأ على أدبنا في الفترة الأخيرة هو بداية الالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، وقد كان ذلك نتيجة — أو كان هو المقدمة لست أدري — لتطورات مماثلة في السياسة والاجتماع ، فالحكم البرلماني يستدعي تصويت الأفراد كل فرد بذاته ، ونظام الأسرة قد أخذ يخلخل الهواء بعض الشيء حول الأفراد لتظهر لكل فرد شخصيته ، وبخاصة المرأة وعلاقتها بزوجها أو أيها ، ورجال التربية يصبحون آناً بعد آن أن افتحوا أعينكم للفوارق بين الأفراد .

أقول إن أكبر تطور طرأ على أدبنا في الفترة الأخيرة فيما أعتقد ، هو بداية الالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، فالدكتور طه حسين يصور في « الأيام » إنساناً واحداً بذاته ، هو نفسه ، والدكتور أحمد أمين يصور في « حياتي » إنساناً واحداً بذاته هو نفسه أيضاً ، والأستاذ توفيق الحكيم يصور في مسرحياته أشخاصاً أفراداً ، والأستاذ العقاد يصور في « ساره » إنسانة واحدة بذاتها وهكذا « زينب » لهيكل و « إبراهيم الكاتب » للمرحوم المازني ، وهكذا .

وقد ادخرت الأستاذ فريد أبو حديد في كتابه الجديد « الوعاء المرمرى » لأدير حوله بقية الحديث ؛ « فالوعاء المرمرى » ظاهرة جديدة تضاف إلى غيرها من أشباهها التي تدل على هذا التطور الجديد في الأدب العربي . . . العناية بالأفراد وتصويرهم في قصة أو مسرحية أو غير ذلك .

لذلك كان أول ما عجبت له في « الوعاء المرمرى » أن يعلن الكاتب منذ البداية على لسان الشاعر المنشد ، وهو يمهّد لقصته التي ينوي إنشادها ، مبدأ طمس الأفراد في عجينة الزمان ، إذ يقول : « كل فرد . . . يحسب أنه يجرب ما لم يجرب أحد من قبله ، ويدرك ما لم يدركه أحد غيره ؛ يذوق الحب فيحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب . . . ولكن الزمان يرمقه باسمًا وينادي بصوت خفي قائلاً : هكذا كانوا دائماً » .

لكن الأفراد لا يكونون « هكذا دائماً » إلا إذا غضضنا النظر عن مميزاتهم الفردية التي تجعل زيدا غير عمرو ؛ فالحب الذي يحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب ، ليس مخطئاً في حسابه ، وإنما أخطأ الحساب من ظن أن كل العاشقين سواء ؛ بل أخطأ من ظن أن العاشق الواحد شبيه بنفسه في كل حالاته ، ولو كان العاشقون كلهم سواء لكفانا تعريفهم بأرقامهم كما تعرف إدارة الجيش جنودها ، أو وزارة المعارف المصرية تلاميذها .

إنه يستحيل علينا أن نفهم معنى الحرية التي نطالب بها جاهدين ، ما لم يتقرر في أذهاننا أولاً أن الأفراد تفصلهم فواصل ، فكل منهم شخصه وكيانه ؛ وإذا كانت الحرية المنشودة معنى مجرداً ، فقد كان حسبنا منها أن تسجل في الكتب والقواميس ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ؛ لكنها حرية منشودة لأفراد ، منشودة لزيد وعمرو وفاطمة ، ولن يحاسب الله عباده « بالجملة » على اعتبارهم جميعاً « هكذا دائماً » بل سيحاسبهم الله فرداً فرداً ، لأن لكل فرد قائمة من أعمال وأقوال تفرد بها — وهي نفسها عمل الأديب .

وقصة « الوعاء المرمرى » زاخرة بأشخاص ، تبينت في بعضهم الملامح الفردية وغمضت هذه الملامح في بعضهم الآخر ، فالحمد لله الذي جعل أستاذنا فريد يتسامح في تطبيق مبدئه الذي يحو الأفراد

في غمرة الزمان ، فيخرج لنا أشخاصاً برزت فيهم الملامح والسمات ، فجاءت كسباً للفن بل كسباً للحياة ذاتها ، لأنها تضيف إلى الأحياء أفراداً آخرين يضمن لهم التسجيل الأدبي طول البقاء .

لقد أفلتت من أدينا الفاضل عبارة وقفت عندها لحظة متمنياً أن تكون هي مبدأه في التصوير الفني لأشخاصه ؛ وذلك حين يروى عن « خيلاء » أحلامها وهي « تنظر إلى الأغصان تتأملها كيف تتداخل وكيف تتعانق ، وإلى أشكال أوراقها وصور ثمارها ؛ كان بعضها منسرحاً ليناً غضا وبعضها معقداً جافاً وبعضها يمتد بظله الوارف وبعضها يسمو بجذعه الفارع ؛ حتى الأشجار لا يشبه بعضها بعضاً ، وحتى الغصون لا تتساوى في هيئتها وإن كانت فروع شجرة واحدة . . . » — فهكذا يختلف الأحياء .

ومن الأشخاص الأحياء الذين خلقهم أستاذنا خلق فنان قدير ، « أبو العيوق — ربان السفينة — في صفحات قلائل أتم له الأديب خلقته الكاملة بملاحمها الفريدة ، فهو الجبان « النّاش » الثرثار الفسكه ، الذي ينطبع حديثه بطابع خاص ، فيكرر عبارة « نسائي طوالق وسفني غوارق » كلما همّ أن يقرر شيئاً يقسم على صدقه ؛ كذلك وفق كل التوفيق في صورة « طليبة » الفتاة الشرود التي تحب قتهب حياتها للحب وتكره فلا تبالى أين تندفع مع كراهتها .

لكنهما شخصان ثانويان في القصة ، والعجيب أنهما جاءا معاً في السياق ، كأنما كانت ربة التصوير الفنى تصاحب أديبنا عندئذ فتعلمه الصواب ؛ ويتلوها في جودة الخلق وسوائه « أبرهة » الطيب المتدين الذى يلين قلبه لحب « ريمانة » رغم دهائه في السياسة وبعد طموحه ؛ وقد كان « للضحكة المزغردة » التى يصحكها حيناً بعد حين ، نصيب موفور في تحديد صورة الرجل ، مما يدل على أن التصوير الفنى يعتمد على أتفه الخصائص وأعظمها على السواء ؛ ومما تجدر ملاحظته أن « أبرهة » هذا هو المعتصب الذى قام « سيف » لاسترداد بلاده من أسرته ، والذى كان يُنتظر من الأديب أن يقصد في تركيبه إلى بث النفور منه عند القارئ ، حتى يهد النفس لاستقبال بطولة « سيف » ومع ذلك فيستحيل على قارئ — فيما أعتقد — أن يخرج من القصة وهو كاره لأبرهة ؛ ترى هل أراد أديبنا شيئاً فغلبته شخصية « أبرهة » فيما أراد ، كما عُلب « ملتن » أمام « الشيطان » في ملحمة الفردوس المفقود — حين أراد أن يصب الشيطان في صورة كريمة لتظهر بالمقارنة قوة الله وجلاله ، فإذا نحن في النهاية إزاء قوة تبهر النفس وتغرى بالمحاكاة ؟ !

ويجىء بعد ذلك في درجة الجودة الفنية « خيلاء » حبيبة « سيف » ، فهى الفتاة الطاهرة المتدينة صاحبة الذوق الفطرى في تفهم الأدب والفن ، التى تحس بدافع المرأة في جوفها لكنها تجفل ، كأنما

هي شبيهة بقديسة ترى الرجس في غرائز الإنسان .

ومن خير ما كسبناه بهذا الأثر الأدبي النفيس ، أن الأستاذ فريد قد صور نفسه — عن وعى منه أو غير وعى — صور نفسه الرقيقة المحببة إلى عارفه جميعاً ، صورها في شخصية « أبي عاصم » — « فابو عاصم » هو « أبو حديد » . في رصانة عقله وفي حبه للخير وفي طيبة قلبه وفي حبه للأسلاف وتراثهم ، بل وفي تعليمه للناشئة عن فطرة أبوية سليمة ، حتى لقد عرفت كثيراً عن حياة أستاذنا فريد — مما لم أكن أعرفه — من صورة أبي عاصم ؛ فقد ارتعش قلبه للحب الطروب ، وهو على شيء من الوحشة واليأس مما حوله في عصرنا هذا الذي كتبت فيه الغنائم للصوص . ولم يعد به مكان لأصحاب الفكر والأدب والعلم والحكمة ؛ ولعله قد تعمد أن يضع لنا « نفيل بن حبيب » النفعي الماكر . جنباً إلى جنب مع « أبي عاصم » كي يتم تصويره لنفسه في بطانة عصره هذا الذي نعيش فيه .

وأما « سيف » و « ریحانة » و « مسروق » فقد كانوا جميعاً أمام عيني كأنهم أجلسوا في صندوق من زجاج قد ترى شفاههم متحركة بالكلام أحياناً ، لكنك لا تسمع مما يقولون شيئاً . فيتولى الكاتب عنهم الكلام في كثير من الأحيان ، وتشعر أنت كأنك في متحف أثرى ومعك الدليل يشرح لك ما تراه من تماثيل ، فهؤلاء المساكين قد ضاعوا في غمرة الزمان الذي يجعل الناس « هكذا دائماً » ؛ فإذا تذكرنا أن

« سيفاً » هو البطل الرئيسي الذى ملأ قلب الكاتب باديء ذى بدء ، وأراد تصويره قبل أن يريد ذلك لأحد سواه ، عرفنا فداحة الخسارة فى فقدته بين من أغرقهم التيار الذى يطمس الأفراد .

قد كنت ألاحظ أشلاء متناثرة عن شخصية سيف ، فكنت ألاحظ نفسه القلقة الهائمة السابحة فى خيالها ، وألاحظ تردده الذى كاد يقربه فى مخيلتى من « هاملت » وألاحظ احتقاره للذهب بالقياس إلى أهدافه العليا — لكنى لاحظت ذلك كله أشلاء متناثرة ، ولا « شخص » هناك — وربما كان النقص فى إدراكى أنا لما بين الأشلاء المفككة من وحدة ؛ أو لعله سوء الحظ الذى جعلنى أبدأ منذ الخطوة الأولى فى مقارنته بـ « هاملت » فى قلقه وتردده ورغبته فى الانتقام وغير ذلك ، فتظل المقارنة ماثلة أمام ذهنى ليدفع ثمنها « سيف » .

* * *

لقد أجرى الأستاذ فريد على لسان المنشد فى أول حديثه هذا المبدأ النقدى ، الذى عبر به فى الحقيقة عن رحابة صدره ورجاحة عقله وطيبة نفسه وميله الشديد إلى التسامح ، إذ قال المنشد لسامعيه . . . « سأنشدكم وأنشد ليلة بعد ليلة ، ولكم أن ترضوا إذا أرضاكم ما يصدر عنى ، ولكم أن تنكروا كما شئتم إن بدا لكم من ذلك ما لا يروقكم ؛ لكم أن تصفقوا استحساناً أو تظهروا استهجانكم بغير مداراه ! فهذا حق

لكم ، أما أنا فما أقصد إلا أن أظهر ما عندي مما يهتز له فتؤادي وما أودعته
ثمره حياتي وأرسلت فيه عصارة روحى ، فإذا وقع عندكم موقعه عندي
زادت بذلك سعادتى»

فإذا رأيتنى قد أسرفت فى استخدام هذا الحق الذى أبحثه لقارئك ،
فاغفر لى ضللا دفنى إليه إيمانى بحق الفرد فى أن يعيش فرداً مستقلا
قائماً بذاته . سواء كان ذلك فى الحياة الواقعة أو فى القصة التى تصور
تلك الحياة .

آباء وأبناء

يحكى أن جماعة من القنافذ كانت تعيش معاً في سفح الجبل ؛
فلما جاءها الشتاء ببرده الثلوج ، وأخذتها في الليل رعشة تناولت منها
المفاصل والعظام ، اقترح عليها واحد منها أن يجتمع شتيتها في كومة
متلاصقة حتى يدفء بعضها بعضاً بحرارة أجسادها ؛ لكن جماعة القنافذ
لم يكدها يلتصق بعضها ببعض طلباً للدفء ، حتى أحس كل منها وخز الإبر
الحادة المسنونة التي تغطي أجساد زملائه ؛ فها هو إلا أن أفصحت كلها
عن كظيم آلامها وطلبت أن تعود إلى مواضعها المتفرقة ، فلذعة البرد
أهون من هذا الوخز الأليم ؛ وعادت القنافذ فتفرقت كما كانت أول
أمرها ، لكنها كذلك عادت فأحست زمهرير الشتاء يهز كيائها هزاً
عنيفاً ، وكأنما نسيت إزاء هذا البلاء ما كان من ألم الوخز منذ قريب ،
فصاح بعضها ببعض ينشد كلها التلاصق مرة أخرى حتى يعود لها الدفء ؛
وعاد وخز الإبر وأنساها الألم الحاضر ألم الماضي ، فضجرت وتفرقت مرة
أخرى - وهكذا دواليك : اقتراب وابتعاد واتصل وانفصال ؛ إلى
أن قال منهم قائل حكيم : خطؤنا في المبالغة والإسراف ، فإذا ابتعدنا
أوغلنا في البعد حتى فقد كل منا دفء أخيه وتعرض للبرد الشديد ، وإذا
اقتربنا أوغلنا في القرب حتى وخز كل منا جلد أخيه فأدماه ؛ والحكمة هي

في اختيار الموضوع الصواب بين الطرفين بحيث ننجو من الوخز دون أن
نقد دفء التقارب ما استطعنا إليه سبيلاً .

وحكاية القنافذ هذه تقفز إلى ذهني كلما سمعت بخلاف يدب بين
أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين جماعة من الأصدقاء . . فكأنما أراد الله
لنا ألا تقع أبداً على هذا الموضوع الصواب في علاقتنا بعضنا ببعض ، بحيث
يبعد كل منا عن شئون الآخرين بعداً يتيح لهؤلاء الآخرين أن يشعروا
بشخصياتهم مستقلة قائمة بذاتها ، وبحيث لا يكون ذلك البعد سبباً
في حرماننا من دفء العاطفة التي يستمدّها بعضنا من بعض .

وتبلغ هذه المأساة غايتها حين تقع حوادثها بين الآباء وأبنائهم ؛
إنني لا أعزّ بخبيرة واسعة في شئون الناس وأمور حياتهم من حيث الدخائل
والتفصيلات ، لأنني أعيش حياة أقرب إلى العزلة في ركن هادئ
لا يسطّح بكثير من الناس في تشابكهم واتصالهم ، لكنني في حدود
خبرتي الضيقة القليلة ، لم أكد أصادف أسرة مصرية واحدة لا يأكل
أفرادها بعضهم بعضاً ، فكل ينهش لحم أخيه حياً ، ومع ذلك
لا يجدون إلى التباعد سبيلاً ؛ فالتقاليد الشرقية تحتم أن يتكلم أفراد
الأسرة الواحدة حتى لا يكون بينها فرقة في أعين الناس ، لكنها إذا
ما تلاصقت على هذا النحو الشديد ، أصابها ما أصاب القنافذ في اجتماعها :
وخز أليم يدمى الجلود ؛ وشر المأساة هو — كما أسلفت — حين يكون

هذا الوخز الأليم بين الوالد وأبنائه ؛ فيستحيل على الوالد أن يرضيه ابتعاد أبنائه عنه ، إما لشدة في عاطفته الأبوية - ولا أظن ذلك - وإما لخوفه مما يقوله الناس لو تفرق أفراد أسرته ؛ وفي الوقت نفسه يستحيل على ذلك الوالد أن يُبقي على شخصيات أبنائه سليمة من الوخز ؛ وقل مثل ذلك أيضاً بالنسبة للأبناء إزاء آبائهم ، فلا هم يحزمون أمرهم فيستقلوا بعيشهم حين تسعفهم القدرة الاقتصادية ، ولا هم يظنون مع آبائهم تحت سقف واحد بحيث يحرصون على جلود هؤلاء الآباء من التجريح والتمزيق .

وهنا تعود إلى ذكريات أعوامى الماضية ، حين اكتملت رجولتى وأوغلت في الحلقة الرابعة من عمرى ، ومع ذلك ظللت أساكن والدى في بيت واحد ، وحرص كلانا جهد الاستطاعة ألا يتلقى الإساءة من الآخر ، فكان كل منا كأنه يلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يريد للحجر أن يكسر البيضة ؛ لكن ذلك محال على الطبيعة البشرية ، ولما كان لوالدى - رحمه الله - ميزة أنه والد ، فكثيراً جداً ما صب على رأسى الإساءة تلو الإساءة على مسمع ومشهد من الناس ؛ وكنت أكظم غيظى وأنطوى على نفسى في غرفتى أمزق أعصابى تمزيقاً ، ولا يعود إلى هدوء النفس إلا بعد أيام ؛ إنى لا أعلم أين قرأ والدى أو أين سمع فكرة أعجبته وصادفت في نفسه هوى ، وهى أن الولد يكرر نفسه في أبنائه ، فالابن نسخة من أبيه ، وما دام الأصل موجوداً فهذه

النسخات لا ينبغي أن يُعترف لها بوجود ؛ والحق أنه إذا كانت المقدمة صحيحة للزم أن تكون هذه النتيجة صحيحة أيضاً ، إذ ما دنا صوراً مكررة له ؛ فله هو القيمة كلها ، وأما نحن فلا يلتفت إلينا إلا في غيبته .

لكن المقدمة خطأ فاحش وتنتجتها خطأ أخش ؛ وهذا هو ما نريد أن نحفره حفراً في رؤوس الآباء عندنا ؛ فلكل ولد شخصيته الفردية المستقلة القائمة بذاتها ؛ وقد أعلنت الطبيعة ذلك إعلاناً صريحاً يوم قطعت القابلة الحبل الشُرّي الذي كان يصل الجنين بأمه ، ففصلتهما شخصين بعد أن كانا شخصاً واحداً . إن صميم الحياة في كافة الأحياء هو هذا التفرد ؛ فيستحيل عليك أن تجد على سطح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ورقتين من أوراق الشجر متماثلتين كل التماثل ؛ وانظر إلى بصمات الأصابع كيف يستحيل تكرارها في شخصين على نحو يحقق التطابق التام ؛ ليس الأمر في الحياة والأحياء كالأمر في المصنع ومنتجانه ؛ نعم إن المصنع يستطيع أن يخرج لك مئات الأحذية أو مئات السيارات بحيث تجيء على تشابه تام أحياناً ، لكن ذلك محال في كافة الأحياء من الأميبا الوضيعة البسيطة إلى الإنسان .

لقد حدث لي أن اشتركت في مؤتمر لليونسكو في باريس عام ١٩٤٧ ، وكان بين الشخصيات الكبيرة التي لقيتها هناك السيدة مرغريت ميد ، وهي من أكبر العلماء العالميين في علم الأجناس البشرية ؛

كنت أسمع اسمها يذكر في المحاضرات مقروناً بالتبجيل والاحترام ،
وكنت أرجع إلى كتبها رجوعى إلى الثقة ؛ وكنت أتصورها سيدة
عجوزاً أربت على الستين ؛ فلما رأيتها في أربعينها ما تزال مليئة بالحياة ،
عجبت أن تجيء هذه السمعة العلمية العالمية كلها لهذه المرأة التي لم تنزل
تغنى بنفسها وثيابها وتحدثت إليها وكان مما حدثتني أن ذكرت لى
كيف جاءت الدعوة وهي في أمريكا لحضور اجتماع اليونسكو بباريس ،
وكان لها طفلة في السادسة من عمرها ، فعرضت على الطفلة كلا من
الصورتين : صورة مراقبتها إلى باريس (وهو أمر لم تكن توده الأم)
وصورة بقائها مع أبيها ؛ وما زالت بها حتى اختارت طفلتها عن طيب
خاطر أن تبقى قالت لى الأم : إنها لا تذكر مرة واحدة أرغمت
فيها طفلتها هذه على شيء ، فما الإنسان — فى رأيها — إلا قوة اختيار
لنفسه ، وإنما أرادت هذه الأم العاملة لابنتها أن تنمو على إنسانية كاملة .

لكن قل هذا لمعظم آباءنا يضحكوا منك ، وحتى إن هم أرغموا
على فعله أمام عناد أطفالهم ، فإنما يرغبون عليه إرغاماً ، ولا يصدر
منهم عن عقيدة فى تربية أبنائهم تربية سليمة .

لا يريد الوالد عندنا أن يعترف عن عقيدة بأنه هو شيء وكل ابن
من أبنائه شيء آخر ، ولو كان ذلك صواباً ، فلست أدري إذا لماذا
يحصون السكان فرداً فرداً ، ولا يحرصونهم والداً والداً ؛ وهيهات أن

تطمس وجود ولدك إلى جانب وجودك ، ثم يسلم الأمر بعد ذلك من النتائج أخطر النتائج .

فالولد الذي يبدأ هذه البداية البشعة ، يريد أن يقرر ذاته حسب ما تملى عليه طبيعته وغرائزه ، فيمحوه أبوه محواً كأنه ظل من ظلاله ، تراه يكبر على أحد أمرين : فإما هو عبد ذليل لكل سلطان ، أو هو ناثر ناقم على كل سلطان ؛ وليست حياته في كلتا الحالتين بالحياة السوية .
المادة السعيدة .

إنه سرعان ما تنتقل سلطة الوالد إلى سلطة الحاكم أو سلطة المستعمر أو ما إليهما ، وعندئذ يسهل على الحاكم أن يستبد ويطغى ، أو يسهل على المستعمر أن يمرع ويمرح ، لأن هذا أو ذلك سيوجد نفسه إزاء أفراد نشأوا على طاعة عمياء ؛ وهل تعجب بعد ذلك أن يضرب المثل في الطغيان بحكام الشرق ، وألا يجد المستعمرون أيسر منالاً من بلاد الشرق ؟ إنهما وجهان لحقيقة واحدة : هي طغيان الوالد بأولاده وابتلاع أشخاصهم في شخصه .

لكن هذه الطاعة العمياء قد تنتج كذلك النفوس الثائرة المحطمة لكل سلطان ، التي تهدم للهدم ذاته انتقاماً لما أصابها أيام الطفولة ، وإذا كثر أمثال هؤلاء تعذر السير الهين المطمئن على المجتمع بصفة عامة — وأذكر في هذا الصدد أن صادفت طالباً قاطعني أثناء المحاضرة

ليعرض بما لم يكن له ارتباط قوى بما كنت أحاضر فيه ، قاطعني ليبدى رأياً وهو يرتعش من الانفعال الذى لا موجب له ، والرأى متعلق بالله ومدى علمه وقدرته ، فأسكتة فى غير جواب ، حتى إذا ما فرغت من المحاضرة ، دعوته على انفراد لأسأله عن حاله فى أسرته قبل أن أستعيده سؤاله ، وسرعان ما علمت أن العلاقة بينه وبين أبيه توشك أن تكون هى العلاقة بين العدو وعدوه اللدود . . . فتار الثأر على الأب الأصغر والأب الأكبر ، وكل ما تشم فيه رائحة السلطان الأبوى بغير تمييز.

* * *

وبعد ، فهذه خواطر فى نوع واحد من أنواع العلاقة بين الناس عندنا ، أثارتها فى نفسى رسالة جاءتني منذ أيام قليلة من قارئة مثقفة تخرجت فى الجامعة فيما أرجح ، تقرؤها فترسم أمامك صورة فتاة من مئات الضحايا ، اللأى قد أرهف العلم فيهن الشعور وهذب منهن الحس ، ثم عدن إلى الحياة ليجدن أنفسهن فى مجتمع منزلى قاسٍ خشن غليظ ؛ ولست أدري لماذا اختارت هذه القارئة المجهولة أن تبعث برسالتها إلى ؟ لعلها رجحت أن تجد فى أذننا تصغى ، لما يتسرب منى أنا بعد آن من أخبار طفولتى ، وهأنذا أترك كثيراً من آلامها المبتوثة فى خطابها ، وأثبت هنا قليلاً منها ، ليرى القراء كيف تعيش هذه الفتاة المثقفة فى دفع من المد والجزر ، تقول :

« . . . حينما علمت أن أبى يتهمنى بضعف الشخصية وانعدام

الإرادة ، جثمت على صدرى سنوات حياتى الماضية بثقلها فخطمت روحى ؛
لقد لاحظ أبى أخيراً هذا الضعف فى شخصيتى وهو فى ذلك يلتقى التبعة
على ! ! ! إن مرحلة طفولتى وطفولة إخوتى جميعاً لتتراءى أمام عيني
الآن بكل أحداثها . . ولكن ماذا أقول ؟ ألم تكن كل هذه
الأحداث كفيلاً بأن تنتهى نى إلى هذه النهاية ؟ !

« لكنى مع ذلك قد حاولت يوماً أن أتنامى تلك الأيام وأن أبنى
حياتى من جديد ؛ حاولت أن أتشجع وأكون لنفسى شخصيتى ؛ وقد
كنت صادقة قوية الإيمان فيما عزمتم عليه ، لكنهم لم يتركونى ، فقد سدوا
أمامى جميع الطرق حتى انهرت أمامهم ؛ لماذا ينسى أبى كل ما فعل بنا ؟
لماذا ؟ إنه لا يذكر إلا أنه يجب أن نكون على ما يشتهى ولو كان ذلك
هو المستحيل . . .

والآن قد ذهبت آمالى وأحلامى ؛ لقد فقدت كل شىء ، لقد فقدت
الرغبة فى الحياة ، لم يعد لى أمل ولا هدف ، ولم أعد أسعى وراء غاية ؛
كل ما أشعر به هو خواء وركود تام . إن شيئاً لم يعد يستثير اهتمامى ،
حتى كتفى وموسيقاى يا سيدى لم أعد أشعر بالرغبة فىهما . إن حالتى
أقرب ما تكون إلى الموت . إننى أسير بل أتعثرفى ظلام ، لا أعرف

لنفسى طريقاً فى الحياة ، لقد سئمت كل شىء ، بل وسئمت نفسى
ليتنا — يا فتى — نسترشد بحكمة القنفذ العاقل حين توجه
بالنصيحة لزملائه القنافذ ، وهى أن نحسب على وجه الدقة كم تكون
المسافة بيننا وبين سوانا من الأهل والأصدقاء ، بحيث لا نحرّم
من دفء العواطف الإنسانية فى صلاتنا بهؤلاء وهؤلاء ، وبحيث نتجو
فى الوقت نفسه من وخز الإبر .

سيئات الموتى

يقول شيكسبير في رواية يوليوس قيصر ، والقول هنالك يجرى على لسان أنطون ، في الخطبة المشهورة التي ألقاها عند جثمان قيصر :

السيئات يقترفها الناس ، فيمضى فاعلوها وتبقى

وأما الحسنات فغالباً ما تدفن مع رفاتهم تحت الثرى

أما أن تبقى السيئات بعد أن يمضى فاعلوها ، فأمر من الواضح بحيث لا أظنه موضعاً للشك والريبة ؛ على أنى تاركه الآن لأعود إليه بعد قليل ؛ لكن الذى قد تخطئه العين العابرة ، هو ذهاب الحسنات في جوف الأرض مع رفات المحسنين .

وإنى لأعترف أنى قد لبثت حيناً طويلاً ، أنكر على الشاعر العظيم رأيه هذا كلما ذكرت سطره السابقين ، كنت أعجب كيف يقول إن حسنات المحسنين غالباً ما تدفن مع رفاتهم وتُنسى ، مع أن الناس — فيما كنت أرى — ما ينفكون لاهجين بما آثرهم ، مخلصين لذكرياتهم ، بما يبنون لهم من أنصاب وتماثيل ، وما يكتبون عنهم من مقالات وكتب ، وما يقيمون لهم من حفلات . يون بها أسماءهم كلما مضى على موتهم كذا عاماً . . . ألا يكفي ذلك كله دليلاً على أن حسناتهم لم تذهب — كما زعم

الشاعر — مع رفاتهم تحت الثرى ، بل بقيت حية في ذاكرات الأحياء ؟
هكذا كنت أعجب لنفسي من قول الشاعر ، حتى كان أمس ،
حين جلست من داري في ركن دافئ ساعة الغروب ، أشرب الشاي
في صمت وعلى مهل ، سارحاً بفكري فيما أساء لنا الأسلاف بما أقوه على
ظهورنا من أعباء تقال — أعباء التقاليد التي أقعدتنا عن الحركة الخفيفة
والسير السريع ؟ وكان طبيعياً عندئذ أن تتوارد الخواطر ، فتنب إلى
ذهني عبارة شيكسبير : « السيئات يقترفها الناس فيمضي فاعلوها وتبقى ؛
وأما الحسنات . . . » .

ولكني هذه المرة — ولأول مرة — وقفت وقفة التأمل ، بعد أن
تعدت فيما مضى أن أوافق على الشرط الأول وأرفض الشرط الثاني ،
موافقة ورفضاً هما أقرب إلى الحركة الآلية منهما إلى التفكير المتروى ؛ لم
أرضَ لنفسي هذه المرة أن تتمجّل الإنكار والنبى ، فالأرجح أن يكون
الشاعر الذي صدق القولَ في شطره الأول ، قد صدق القولَ كذلك
في شطره الثاني — فلأفكر من جديد : أحقيقة تُدفن الحسنات غالباً
مع رفات المحسنين ؟

وكأنما أشرق على هذه المرة ضوء جديد ، إذ نظرت إلى الموضوع
من ناحية جديدة ؛ قلت لنفسي : دع عنك ما يقيمه الناس لموتاهم

المجيدين من تمائيل وما يكتبونه عنهم من كتب ، لأن ذلك كله قد يكون سداً من الإنسان لنقص أدركه في نفسه ، فربما أدرك الإنسان في نفسه سرعة نسيان الجليل ، فعالج نسيانه هذا السريع بما يُدَّكَّر . . . إنه إذا ثبت أن طبيعة الإنسان تمنعه من الاعتراف بالجميل لصاحبه ، وتدفعه إلى طمس معالم الفضل الذي أسدى إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، إذا ثبت ذلك في طبيعة الإنسان ، إذا فلا شك في صحة قول الشاعر ، بأن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين ، فلا يكاد المدين بفضل أن يُهَيَّل التراب على المتفضل ، حتى يتناسى الدين فينسى ، وينسى الناس معه ، وبذلك ترقد الحسنة مع رفات صاحبها في قبره إلى الأبد .

وحسبك وقفة لا تطول ، لتدرك على الفور أن الطبيعة البشرية تأتي على الإنسان أن يعترف بفضل أسدى إليه ، فإن أخذنا أنفسنا بهذا الاعتراف ، فلأننا قد أخذنا طبيعتنا بالتهذيب والتدريب ، وإذا فليس يحفظ الجليل إلا من اكتسب القدرة على قمع طبيعته والإسك بزمامها . . . ذلك لأن من أعطى أقدر ممن أخذ العطاء ، ومن أحسن أقوى ممن تقبل الحسنة ؛ ولما كان الإنسان بطبيعته أميل إلى إظهار جوانب قوته وإخفاء جوانب ضعفه ، كان من العسير عليه أن يعترف بما بدا من عجزه حين قبل المعونة من اعانه .

في العطاء قوة وفي الأخذ ضعف ، حتى ليركع الأخذ أمام معطيه

— حقيقة أو مجازاً — وإذا ما حَدَّثه جاء حديثه خافتاً ، وبدت عينه « مكسورة » حسيرة إن من الكتب التي أقامت لي ركناً ركيناً من ثقافتى ، قصة « راعى ويكفيلد » لـ « أولثر جولدسميث » ؛ هذا الكتاب العجيب الفريد ، الذى ينفذ فى الطبيعة البشرية نفاذاً يصل إلى أعماقها ، والذى له فى كل صفحة ، بل فى كل فقرة ، بل فى كل سطر من سطورهِ ، ملاحظة صادقة فى تحليل طبيعة الإنسان ؛ فى هذا الكتاب يقص عليك الكاتب فى سياق قصته ، أن مسافراً التقى بـ راعى ويكفيلد واستدانهُ قليلاً من المال يردّه له عند بلوغه غايته ؛ ثم حدث أن أقام الرجلان ليلة فى نزل فى الطريق ، ودارت بينهما مناقشة احتدّ فيها المسافر ، فأخذ العجيب من الـ راعى كيف استباح ذلك الرجل الجرىء لنفسه أن يحتدّ معه فى المناقشة مع أنه مدين له بمال ؟ !

ولما كان العطاء قوة والأخذ ضعفاً ، كان عسيراً كل العسر على من به كبرياء ، أن يضع نفسه موضع الآخذ ، لأنه يعلم أن ذلك سيصعبه اعتراف لغيره بالفضل ، وفى ذلك ما فيه من جرح ؛ ويزداد هذا الجانب وضوحاً ، حين يحسن المحسن عن شعور بقدرته ، فيثير فى الآخذ إحساسه بنقصه وعجزه — وقد يعطى المعطى عن شعور بالعطف على من أعطى ، كما يفعل الوالد مثلاً نحو ولده ، وتندبذ يغلب أن يبادله الآخذ عطفاً بعطف .

وانظر الآن في قولهم : « اتق شر من أحسنت إليه » ، أفلا ترى القول قد ازداد وضوحاً وبيانا؟ كم من مرة سألت نفسي حائراً : كيف يمكن أن يكون لمن أحسنتُ إليه شرأتقيه؟ لكنني أرى الآن كيف يثير فيه شعوره بنقصه وعجزه شعوراً بالمرارة نحو من أعطى ؛ خصوصاً إذا اختلط العطاء بالمنّ ، فعندئذ يستحيل على الآخذ ألا يحس نحو من أحسن إليه بالكراهية والمقت ؛ فلا ينزل الشر من أحسنت إليه إلا إذا أعطيته الإحسان في عطف خالص ، لا تكبر فيه ولا شموخ .

ولولا أن سرعة نسيان الحسنة من طبيعة الإنسان ، لما كان بالقائل حاجة أن يقول للناس « اذكروا حسنات موتاكم » — وإذا فلم يخطيء شكسبير كما ظننت ، حين لاحظ أن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين .

* * *

والحق أني ما قصدت إلى الكتابة في الحسنات التي تذهب مع الموتى في قبورهم ، وإنما أردت الكتابة في السيئات التي يقترفها الناس فتبقى بعد موتهم على وجه الأرض حية تسعى ينوء بحملها الأحياء بعد ذهاب أصحابها ، وأعجب العجب أن ترى هذه السيئات الباقيات على وجه الزمن ، قد اكتسبت جلالاً من جلال الزمن ، فإذا هي في الأعين مقدسات مصونات تجرّيحها بغيري ومسئها حرام .

كان لأسلافنا ظروف تحيط بهم ، وكان لهم سلوك يستجيبون به لتلك الظروف ؛ فوقفوا في حياتهم أو أخفقوا بمقدار ما جاءت استجابتهم ملائمة لظروفهم ؛ وقد مضى الأسلاف وجثنا ، فأية قوة في الأرض هذه التي تشدنا إلى سلوك أسلافنا ، نستجيب لظروفنا بمثل ما استجابوا لظروفهم ، تغيرت الظروف أو لم تتغير ، ووفقاً هؤلاء الأسلاف أو أخفقوا ؟ .

كانت لأسلافنا حرية الاختيار فاخترنا لأنفسهم وجهة النظر التي تسعدها وترضيها ، وليست هنالك قوة لا في الأرض ولا في السماء ، تلزمنا باصطناع وجهة نظرهم إلا بمقدار ما تتفق ظروفنا مع ظروفهم . . . لكننا مشدودون إلى منظرهم شداً ، لا نرى الأمور إلا بأعينهم ، كأننا هم وحدهم الرجال يُشرِّعون ونحن الأطفال نعمل وفق ما شرعوا — لقد قام علماء النفس المعاصرون بتجارب على الأطفال في لعبهم ، فاتهموا إلى نتائج علمية في نفسية الطفل من حيث وجهة نظره إلى القواعد الموضوعية للسلوك ؛ فأما الصغار فيما دون العاشرة ، فلو سئلوا : من الذي وضع لكم قواعد الألعاب التي تلعبونها معاً ؟ أجابوا بأنهم وجدوها كذلك ، ولا يجوز لهم أن يتناولوها بتحويل أو تبديل ؛ فإذا ما ضيق القائم بالتجربة عليهم سبل الفرار ، وحاول أن يظفر منهم بجواب محدد عن واضع القواعد التي يتبعونها في ألعابهم ، قال بعضهم إنه الله ، وقال آخرون

إنها الحكومة ، وقال فريق ثالث إنهم آباؤهم أو أجدادهم . . . حتى إذا ما تقدم هؤلاء الأطفال في أعمارهم قليلا ، وجاوزوا العاشرة إلى الثالثة عشرة أو نحوها ، وأعيد عليهم نفس السؤال : من الذى وضع لكم قواعد الألعاب التى تلعبونها معاً ؟ أجابوا عندئذ بأن واضعيها هم أطفال مثلهم ، وأن فى مقدورهم أن يغيروها إذا شاءوا وكيف شاءوا .

وأظننا نستطيع أن نستخدم هذا المقياس نفسه فى التمييز بين المجتمع فى طفولته وفى نضجه : فأبناء المجتمع الطفل ينظرون إلى أنواع السلوك التى يسلكونها فى مواقف حياتهم المختلفة نظرتهم إلى التراث المقدس الذى لا ينبغى بل لا يجوز أن يتناوله أحد بتغيير ، وأما أبناء المجتمع الناضج فيدركون أن الأمر لا قدسية فيه ، وأن التغيير مرهون بمشيتهم ، لأن الحياة حياتهم هم ولا بد أن يعيشوها على أكمل وجه مستطاع ؛ فإن كان السلوك الموروث عن الآباء صالحاً لهم فأنعم به ، وإلا فن حقمهم بل من واجبهم أن يغيروا منه ما شاءوا وما شاءت لهم ظروفهم — وأظنك تستطيع أن ترى فى وضوح ، أن روح الاستبداد والظفیان أقرب إلى الشيوع فى المجتمع الأول ، وأن روح الحرية والديمقراطية أقرب إلى السيادة فى المجتمع الثانى ، ذلك لأن حرية التصرف حرام هناك حلال هنا .

إن احترام التقاليد الموروثة فى ذاته أمر لا عيب فيه ولا غبار عليه ،

ما دمت آخذها أخذ السيد المسيطر لا أخذ التابع المطيع ، فهما هي ذى أرقى الأمم تحافظ على بعض تقاليدها على شرط ألا تعرقل لهم شيئاً من سياسة أو تجارة أو صناعة أو تعليم أو غير ذلك من شئون الحياة ؛ وكثيراً ما تراهم — إذا وجدوا التقليد عائقاً في سبيلهم — يبقون على صورته ويفرغون مضمونه وفجواه ، كأنما هم ينتزعون من الأنهى سمومها ليقى لهم جمال ظهرها الأرقط .

ولست أول من يتكلم في جناية أسلافنا بما فرضوه علينا فرضاً من وجهات نظرهم وأنواع سلوكهم ، فقد سبق إلى ذلك منذ زمن طويل أستاذنا الجليل أحمد أمين ، حين فصل القول تفصيلاً في جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي . . . لكنك تستطيع أن توسع من نطاق هذه الجناية حتى تشمل كثيراً جداً من تفصيلات حياتنا ، فعنهم أخذنا حب الظهور بكل ما له من ذيول ، وعنهم أخذنا الوضع الاجتماعي للمرأة بكل ما يستتبع من نتائج ، وعنهم أخذنا غير ذلك وغير هذا .

لكني أريد أن أترك تفصيلات ما جنوا به علينا ، لأغوص إلى ما تحت السطح من أعماق ؛ فهناك في العمق البعيد أمٌ تفرعت عنها هذه التفصيلات كلها ، وهي وجهة نظر معينة تصبغ كل شيء بلونها ، فورثناها عنهم كما هي وجعلنا ننظر ؛ وإنما أقصد بذلك نظرة وصفها الشهرستاني في عبارة نقلها عنه المغفور له الأستاذ مصطفى عبد الرازق في كتابه

« تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » (ص ٣٢) إذ قال : « من الناس من قسم أهل العالم . . . بحسب الأمم فقال : كبار الأمم أربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند ، ثم راجع بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء ، والحكم بأحكام الكيفيات والكميات ، واستعمال الأمور الجسمانية . »

ولو فهمنا عبارة الشهرستاني على أن العرب والهند من ناحية يمثلون ما يسمى بالشرق ، وأن العجم والروم من ناحية أخرى يمثلون وجهة النظر الغربية ، كان مؤدى كلامه بلغة يالفها قارئنا ، هو أن أهل الشرق يميلون إلى الأحكام الكلية التي تطمس الفروق التفصيلية بين الأجزاء ، وأن أهل الغرب يميلون إلى الأحكام الجزئية التي تلاحظ ما بين تلك الأجزاء من فروق ، والأولون روحانيون لا يستشهدون في أحكامهم بمشاهدات الحواس ، والآخرين جسمانيون يحتكمون في معارفهم إلى ما تدلهم عليه الحواس من مشاهدات .

ولو كان هذا هكذا ، ثم لو كان الأسلاف قد ألبسونا منظارهم ، فقد جنوا علينا الجناية التي أودت بنا وستودى إلى مهوى الهلاك ؛ فالبس

المنظار الذى يطمس لك الفروق بين الأجزاء تجد أفراد المجتمع قد أصبحوا فى عينك عجيبة واحدة ، لاشخصية لزيد ولا فردية لعمرو ، ولا وجود لخالد ؛ ومن ثم استبدال المستبد وطغيان الطاغية ؛ ثم عد فالبس المنظار نفسه تجد النمل والبعوض والذباب كلها حشرات ، والصقر والغراب والعصفور كلها طيور ، والجير والرمل والبازلت كله صخور ، وإذا فلا مشاهدات ولا تجارب ولا علوم ، ثم عد مرة ثالثة والبس المنظار الموروث الذى يطمس لك الخصائص الجزئية بين يوم ويوم وساعة وساعة ، تر الزمان كله قد انحصر فى امتداد من فراغ وعدم ، ومن ثم فلا تعلق بالدنيا الفارغة ولنضع الرجاء فى عالم آخر . . .

فالجنابة الكبرى التى جنى بها أسلافنا علينا ، هى هذا المنظار الذى أورثونا إياه ، فاستمسكنا به وتشبثنا كأنما نفقت سوق المناظير ، فلم يعد منظار سواه .

تعالوا نجرب منظار « العجم والروم » — على تعبير الشهرستانى — لتتبدل الدنيا فى أنظارنا ، فالعجينة المطموسة تصبح أفراداً متباينة الصفات والخصائص ، والكون الخلاء يمتلئ فى أعيننا ألواناً وأصواتاً فيعمر خرابه ؛ وهذه الحياة الزائلة الفانية تنقلب حياة خصبة مليئة تستحق أن نعمل لها كأننا سنعيش فيها أبداً .

ندوة الخميس

لو كان الله قد أتاح لندوة الخميس التي تنعقد في دار لجنة التأليف والترجمة والنشر كل أسبوع ، والتي لبثت على هذا النحو قرابة أربعين عاماً ، وكثيراً ما ضمت نقرأ من أئمة الأدب وقادة الفكر في مصر ، بل وفي بعض الشقيقات العربية أحياناً ، أقول لو كان الله قد أتاح لهذه الندوة عاملين : عنصر المرأة المثقفة والقلم الذي يسجل ، لكان لنا بذلك «صالون» أدبي قل أن يكون له نظير ، ثم لكان لنا كذلك ديوان من أخصب دواوين الأدب والنكر المعاصرين ؛ فالحديث في هذه الندوة يجري على غير نسق معلوم ، ولا يتقيد المتحدثون فيه بشيء من التحفظ والتزمت اللذين يلازمان الكاتب إذا كتب للناس ، ولذلك تراهم يرسلون أنفسهم إرسالاً ، هو أصدق ما يعبر عن خواطرم ومشاعرهم ، وهو بالتالي — لورصده الراصد — مرآةٌ بجانب حتى من حياتنا الفكرية والأدبية على السواء .

وسأسوق للقارئ هنا خلاصة لحديث الندوة يوم الخميس الرابع من شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ ، ذا كراً من أسماء المتحدثين أحررها الأولى ، لأنني لم أستاذنهم في هذا النشر ، على أنني إذا استطعت أن أنقل أمهات

الأفكار التي دارت في الحديث ، فليست بمستطيع أن أثبت خلال ذلك ما يسود المجتمعين في هذه الندوة دائماً من روح الفكاهة العابرة أحياناً ، والساخرة أحياناً ، فكأنما أنقل للقارىء هنا « رأساً » بغير « قلب » ، و « عقلاً » بغير « وجدان » إنني أسوق هنا إطاراً ، وللقارىء أن يملأه بما يسعفه به خياله من نبضات الحياة .

أ . — زارنا في هذه الندوة أديب صيني منذ سنوات ، وأراد أن يعلم شيئاً عن الاتجاهات الأدبية في مصر ، فسأل عن كبار الأدباء الذين يكتبون الأدب « الكلاسيكي » — إذا صحت هذه الكلمة — ثم سأل عن يكتبون للجمهور و يتصلون به اتصالاً مباشراً ، وعجب وأسف حين أنبأناه أن ليس بين أدبائنا من يتصل بالجمهور الشعبي هذا الاتصال المباشر الذي يريد .

ت . — إنه كان على خطأ ، لأن الأديب الحق لا يتصل أبداً بفجار الناس اتصالاً مباشراً ؛ إن هذا الاتصال المباشر مهمة الصحفي لا الأديب ، وينبغي أن نفرق بينهما تفرقة واضحة .

ح . — لماذا لا نقول عن (م . أ) وأمثاله من « الصحفيين » إنهم هم الأدباء الشعبيون ؟ إنهم يكتبون في جرأة تلفت لهم أنظار الناس .

ن . — ومن الذي هيا لهم هذا الجو الذي يستطيعون أن يكتبوا فيه بهذه الجرأة التي تستوقف لهم معظم الجمهور القارىء ؟ الذي هيا

لم هذا الجو هم أدباء ممن يعينهم الأستاذ « ت . » .

أ . — يظهر أننا قد وصلنا إلى شيء من التحديد ، فالأديب يخلق الجو الفكري والصحفي يكتب في هذا الجو الجديد لجمهور القراء ، فيتصل بهم اتصالاً مباشراً .

ت . — هذا صحيح ، فالتأثير في الناس يتم على درجتين : الأديب يؤثر في الصحفيين ومن إليهم من الكتاب ، وهؤلاء يكون لهم التأثير المباشر ؛ والأمس في ذلك شبيه بأستاذ الجامعة الذي لا يتصل بتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، إنما يخلق الشبان الذين يكون لهم هذا الاتصال ، وهذا الاتصال بطبيعة الحال يجيء في نفس الجو الفكري الذي نقله الشبان عن أستاذ الجامعة .

ن . — أظن أن هذا هو المقصود دائماً « بتأثير » الأدب في الناس ، أعني أن الأديب الكبير دائماً ينحصر تأثيره في الطبقة المستنيرة وحدها ، ومن هذه الطبقة ينتقل الأثر إلى من دونهم ؛ فلا أظن — مثلاً — أن برنارد شو يقرؤه الفلاح والعامل في إنجلترا .

م . — وماذا تقولون في شيكسبير الذي كان يعرض مسرحياته على طبقات الشعب رأساً ، وفي هومر الذي كان ينشد أشعاره في حلقات من الجماهير الدنيا ؟ أليس ذلك دليلاً على أن الأديب بأعلى معانيه ، قد يكون اتصاله بالشعب مباشراً وبغير واسطة ؟ .

ت . — لا ، ليس ذلك بدليل على هذا ؛ فلئن كانت طبقات الشعب قد استمعت لهومر أو شيكسبير ، فما ذاك إلا لأنه لم يكن لديهم من يستمعون إليه غير هؤلاء ، ولو وجدت لهم الصحافة أو ما يشبهها من الكتابة ، لانصرفوا عنهم إليها — أتظن أن امرأ القيس حين كان يقول شعره في الناس كان يفهم عنه من الناس إلا القلة المستنيرة ؟ لقد كان الناس يقولون عنه إنه مجنون ! أتظن أن المتنبي وأمثاله كانوا يهدفون بأشعارهم إلى غير حاشية الحاكمين ؟ فإن استمع الناس لما ينشده امرؤ القيس والمتنبي ، فلأنه لم يكن هناك من يستمعون إليه عن فهم . أما الآن فقد تغير الموقف ، إذ وجد المقروء الذي يصلح للشعب إلى جانب الأدب الرفيع ، فاقصر الأدب الرفيع على الطبقة المستنيرة ، وقصد الشعب إلى حيث يفهم ويتأثر .

ن . — يخيل إلى أن « الطبقة المستنيرة » عبارة تريد شيئاً من التحديد ، من أفراد هذه الطبقة . ؟ .

ت . — نستطيع أن نقول إنهم خريجو الجامعات ومن إليهم .
م . — أظن أن الأمر هنا لا يتوقف على التعليم الجامعي ؛ فالطبقة المستنيرة هي أولئك الذين يتغذون بالأفكار ، فلا تناقض بين أن يكون الشخص بائعاً في متجر أو عاملاً في مصنع ، لكنه إذ ما فرغ من عمله التمس الأفكار النظرية في الكتب أو المحاضرات — وأمثال هؤلاء

كثيرون في أوربا — وعندئذ تقول عنهم إنهم من « الطبقة المستنيرة ». ن . — ستيفن سبندر له مقالة في مجلة إنجليزية صدرت الشهر الماضي، يحاول فيها تحديد الطبقة المستنيرة ، ويكاد يشترط للداخل فيها أن يكون كاتباً ، ليعبر بكتابته عن فكره .

أ . — وماذا يقول مثل هذا الكاتب الذى يعبر عن فكره ؟ هل ينبغى أن ينصرف إلى الكتابة فيما يُصلح المجتمع ، أم الأمر مقصور على مجرد التعبير ؟ بعبارة أخرى : هل يجب على الكاتب أن يلتزم حدود الأخلاق فيما يكتب ؟

ت . — لا ، لاشأن للأديب بالمعايير الخلقية ؛ إنه يفكر ويعبر ، ومقياسه الجمال وحده ؛ ولذلك تسمعهم يقولون لك عن بعض الأدباء إنهم كانوا في مجتمعهم كالأفاعى تنفث السموم ، أى أنهم كانوا يفتنون فى بناء المجتمع ، ومع ذلك فهم أدباء ؛ الحقيقة أن الأديب الحق كالنحلة تعطيك الشهد ، لكنها قد تلسم .

ن . — إن مجرد ذكرنا لكلمتى « السموم » و « اللسع » يبين أننا ما زلنا متأثرين فى تقدير الأدب بمعيار المصلح الاجتماعى ؛ والأدب الخالص لا يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى المباشر ، ولا يقاس بمقياسه .

ت . — هذا صحيح ؛ لكنك من ناحية أخرى تستطيع أن تقول

إن الهدف في النهاية البعيدة هو هذا الإصلاح المنشود ، فحتى الذين يكتبون أدباً مكشوفاً عن الشئون الجنسية ، يريدون أن يضعوا تحت أعين الناس حقائق قد أغمضوا أعينهم عنها على خطرها وأهميتها ؛ هذا د . ه . لو. نس يرى الناس في إنجلترا قد أهملوا غرائزهم إلى حد الخطورة ، فراح بكتابته في تمجيد الغريزة الجنسية السليمة ينبه الناس إلى ما قد غفلوا عنه ؛ إن الرجل إذا ما تحفظ في طعامه تحفظاً يؤدي معدته بحيث لا تعود صالحة إلا لهضم « اللبن الزبادى » هو بحاجة إلى من يستثير شهيته للطعام بالتوابل القوية — ولورنس كان في مجال الغريزة الجنسية عند الطبقة المستنيرة أشبه شيء بالتوابل التي تحرك الغريزة السليمة .

ن . — الغريب في هذا هو أن الطبقة المستنيرة في إنجلترا انتقلت في نظرتها إلى الأمور الجنسية من النقيض إلى النقيض ؛ كان « المستنير » في العصر الفكتورى (القرن ١٩) يستبشع كل ماله اتصال بهذه الأمور من بعيد أو قريب ، وأصبح « المستنير » في هذه الأيام أقرب إلى العقيدة بأنها لا تقل ولا تزيد عن سائر ضرورات العيش التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الخجل — ولعل هذا الانتقال قد جاء بسبب ما كتبه لورنس ومن إليه .

... ..
... ..

أ . — إن العرب لم يقولوا أدباً عن الطبيعة فيه جدة .

ز — لماذا تعيبون على العرب أنهم لم يقولوا عن الطبيعة جديداً
والطبيعة نفسها لم تخلق الجديد ، فالأزهار العطرة ما تزال هي الأزهار
العطرة . . .

ش — أراك بذلك تخالف كلمة أذعتها عن الجديد والقديم .

ز — وهل من شك في أننا لا بد أن نبقى من القديم على
الطيب ؟

ن . — على شرط أن نحدد ما هو « الطيب » — ماذا نعده
طيباً ؟

ز — هو المشهور المعروف بأنه كذلك ، فشر المتنبي « طيب » .

ن . — لا يكون طيباً إلا إذا وافق عليه الناقد الأوربي الحديث
بمعياره في فهم الشعر وتقديره .

ز — أنا لا أنتظر الناقد الأوربي الحديث ليحدد لي ما أطرب
له — أنا أقرأ شعر المتنبي وأطرب له ، وفي هذا الكفاية .

ن . — وإذا فلا بد أن تعطى هذا الحق لساكن الأدغال حين
يطرب لضربات « الدربكة » لأنه هو الآخر يستطيع أن يقول : إني
أطرب لهذه الضربات وفي هذا الكفاية . . الأمر نسبي في كل ما يتعلق

بالمدينة إذا استثنيت العلوم وحدها ؛ فما يعد « طيباً » هو ما يعده أهل المدينة القائمة كذلك ، وقد يتغير الأمر بعد كذا من السنين ، فتعد عوامل المدينة القائمة الآن علامة همجية عندئذ . . .

أ . — (وقد أمسك كتاباً في يده) هذا كتاب كتبه أوربي عن « إقبال » فهل يكون ذلك إلا دليلاً على أنه قدره حق قدره بغض النظر عن عصره ؟

ن . — وهذا ما أقوله ، فالمتنبى شاعر يعد من يطرب له « متمدناً » لو وافق عليه نقدة هذه المدينة القائمة ، وإلا فهو ليس كذلك بالنسبة لهذه المدينة أيضاً ؛ فالقديم الذى يستطيعه أصحاب الرأى من أهل العصر الحاضر ، هو الذى يدخل فى جملة العناصر التى لا بأس فى أخذها والإبقاء عليها .

أ . — أنا أطرب للمتنبى وأعده شاعراً عظيماً ، و « نيكلسن » لم يعجبه شعر المتنبى . فماذا تقول ؟

ن . — الأقرب منكما إلى تشرب روح هذا العصر وذوقه فى الأدب هو الذى يعبر برأيه عن رأى العصر وذوقه .

د . — قل لى ، هل تطربك أنت موسيقى فاجنر ؟ .

ن . — إذا لم أطرب لها فلأنى لم أنشأ النشأة الصحيحة ،

فالعيب عيبي أنا ، ولا أعدّ في هذه الناحية بين المتمدنين ؛ لأنني لو أصررت على أن الأمر متوقف على ما أطرب له ، بغض النظر عن أهل المدينة الحاضرة هل يطربون معي أو لا يطربون ، فلا بد كذلك أن أعطى أهل الغابات هذا الحق نفسه حين يفضلون « الدربكة » على قاجنر .

أ . — أو ليست « الدربكة » خيراً من موسيقى « الجاز » التي يطرب لها أهل هذا الزمان ؟ .

ن . — ولو أخذ العالم المتمدن بهذه « الدربكة » نفسها لا تنقلت إلى عناصر المدنية — الأمر كما قلت اعتباري صرف ، والعبرة بما يقوله أهل الخبرة الدوقية في كل عصر .

ز — لقد التقيت اليوم مع صديق قصّ عليّ قصة فتاة فرطت في نفسها فثار عليها أهلها ، وكان هذا الصديق ساخطاً على هؤلاء الناس الذين يتدخلون في شأن الفتاة ، فهي وحدها المسئولة عن نفسها ما دامت قد بلغت الحادية والعشرين — أي أنه يريد لنا أخلاق أوربا في ذلك .

ن . — وما وجه الخطأ في ذلك ؟ إن كانت هذه هي « أخلاق » المدنية الحاضرة ، فهل يعيبها أنها ليست « كأخلاق » المدنيات السابقة ؟ إن المقياس هو ما يقرره أهل هذا الزمان لا أهل الأزمان الماضية .

أ . — وجه الخطأ هو أن هذا فساد محقق .

ن - الفساد هو ما يخرج على ما تواضع عليه أهل الزمن المعين ، وقد يصبح فسادُ زمن صلاح زمن آخر ثم يعود فساداً ، وهكذا تتغير النظرة مع تغير ظروف العصر - الحكم على السلوك بالصلاح أو الفساد في عصر ما ، متوقف على هذا السؤال فيه : هل يسود هذا السلوك في هذا العصر المعين أو لا يسود ؟

أ . - وهل تريد أن يكون الشرق كالعرب فيما يسود وما لا يسود ؟ .

ن . - ليست التفرقة بين شرق وغرب ، وإنما تكون التفرقة بين من أخذ بنصيب من المدنية ومن لم يأخذ .
وانقضت عند هذا ندوة الخميس .

ابتسامة الساخر

كان يتسم لي كلما رأني ، وكنت أحس القشعريرة كلما ابتسم !
فواعجبا لا ابتسامة مسمومة تُشيع في النفس فزعاً ورعباً ! إن هنالك
ابتسامة وابتسامة : هنالك ابتسامة الطفل التي لا تنطوي أبداً على خبث
وسوء ، كلها براءة وسذاجة وطمأنينة ورضى ؛ وهنالك ابتسامة تنفرج
عنها الشفاء « لتكشر » عن أنياب الشر والغدر ؛ ترى هل كان ذلك
ما قصد إليه « دانتى » حين وصف البسمات التي يلاقيها أصحاب النعيم
في الجنة بأنها بسمات الرُّضَع الأبرار ؟ .

أقول إن هنالك ابتسامة « يكشر » فيها صاحبها عن أنياب الشر
والغدر ؟ هل تعلم أن الضحك في حقيقة نشأته « تكشير » مكبوت
محبوس ؟ إن الطبيعة لا تعرف الضحك والمزاح ، إنها طبيعة متجهمة
عابسة ؛ إن السماء لا تقهقه بالضحك وهي تزجر بالرعود ؛ والحيوان إذا
ما التقى في الغابة بحيوان ، فإما هو لا يأبه به إذا لم يكن به حاجة إليه ،
وإما أن يكشر له عن أنيابه بانفراجة في شفتيه ؛ فلما أراد الإنسان
على تطور المدنية أن يخفي تكشيرة الحيوان ويحبسها في صدره ، نشأ
الضحك ؛ ولا يزال وجهه يتحرك في حالة الغضب أو الفزع بنفس

العضلات التي يتحرك بها في حالة البهجة والمرح !

ابتسامة الضاحك وتكشيرة الفاضب — في الطبيعة — صنوان ؛
وهنالك الحالات التي يختلط عليك فيها الأمر ، فلا تدري أيهش لك
الضاحك حقاً بقلب خالص ، أم يعبس لك بابتسامته ويتجههم ، كما
تخبر أبو العلاء في هديل الحمامة أهو بكاء أم غناء . . . إن الهجاء
في الأدب عبوس في هيئة الضحك ، أو ضحك يعبر عن عبوس ؛ كان
شاعر الهجاء عند العرب في حروبهم كحامل الرمح : هذا يقذف برمحه ،
وذلك يرمى بضحكاته الساخرة ، وكلاهما يفتك بالعدو على حد سواء .

الضحكات الساخرة في الأدب قذائف من اللفظ تلقيها على العدو كما
ترميه برصاص البنادق ، ذلك لأنك في كلتا الحالين « مكشر » له عن
أسنانك ، ولا فرق بين أن تكون ضاحكاً أو غاضباً ، إن ابتسامة
الساخر لكمة على الوجه أو ضربة في الرأس ، لعلها أفعل من ضربات العصي
ولطمات الأيدي .

ويغلب أن نلجأ إلى « قذائف » البسمات ، حين يكون « العدو »
داخل حدودنا ومن عشيرتنا ؛ فعندئذ يحسن أن نهاجمه بالضحك منه ،
ومتى يكون الرجل من أهل العشيرة عدواً ؟ يكون كذلك إن شذ عن
المجموعة ونشر ، فعندئذ تأخذنا الغضبة المزوجة بالخوف من هذا الشذوذ

الطارىء ؛ إننا لا نريد لحياتنا الآمنة أن تتغير ، ونبرز أنياب الأذى لكل من يحاول إخراجنا عن مجرى حياتنا المألوف .

ترانا نرسل الابتسامة الساخرة إلى كل « غريب » عن مألوفنا :
نرسلها إلى من يتكلم بلهجة مختلفة عما ألفنا سماعه ، ومن يلبس ثياباً غريبة ، ومن يأكل بطريقة غريبة ، ومن ينتبذ في سكناه مكاناً بعيداً عنا ، أو ينحو في تفكيره نحواً غريباً ؛ إن صاحب الفكرة الغريبة التي لم نألفها حقيق منا بالمحاربة — بالقذائف الضاحكة — كن يلبس على رأسه طربوشاً أخضر ، أو يتكلم في القاهرة بلهجة الريف ، أو يهجر المكان المعمور ليسكن في بيت في الخلاء بعيد عن مساكن الناس . . . كل هؤلاء « غرباء » يبعثوننا على الضحك — أو بعبارة أخرى يحملوننا على العبوس ، ما دام الضحك والعبوس عند الطبيعة لغتين مترادفتين في الخوف والتخويف ! وإنه لمن عبقرية اللغة أن تضغط في لفظة « الغريب » معنيين يتلاقيان على اختلافهما الظاهر ؛ « فالغريب » الذى يجيء إلينا من خارج بلادنا ، هو فى الحقيقة « كالغريب » الذى يشذ عن أوضاع بلادنا بالخروج عليها ؛ الأول « غريب » بمعنى أنه أجنبي دخيل يدعو إلى الحيطة والحذر ، والثانى « غريب » بمعنى أنه باعث على العجب ، لأنه منا وليس منا ؛ وكلا « الغريبين » يتطلبان

أن نكون منهما على أهبة المطاردة بالعبوس الساخر أو بالعبوس المقتنع بالضحك .

إننا بضحكات السخرية نُسوِّي أرضنا حتى لا يكون فيها مرتفع ومنخفض ، وتنسق نغماتنا حتى لا يكون فيها نثار ؛ فما نزال « بالغريب » عنا همزاً ولمزاً حتى يعتدل ويمجى معنا في فلك واحد ؛ وإنه ليقلق الغريب أن يعلم أنه هدف لابتسامة الساخرين ؛ وكثيراً جداً ما يشذ الشاذ وهو لا يدري ، حتى إذا ما لحظ الناس ينظرون إليه بابتسامة ساخرة ، أخذ يتحسس ملبسه ويتلفت حوله التماساً لما عساه أن يكون شاذاً فيه فيصلحه ؛ أما إن ابتسمنا للشاذ ، فظل على شذوذه وهو يعلم ، فما أسرع ما نقلب له الابتسامة إلى « تكشيرة » حقيقية ، وما أيسر هذا التحول فينا ، لأن حركة الوجه التي ابتسمنا بها ، هي نفسها التي نكشر بها تكشيرة الغضب . . . لكن أين هذا الذي يضحك الناس من شذوذه فيصمد لضحكاتهم ؟ إنه إذا استطاع فهو العظيم ، أو من فيه بوادر العظمة ، وهل رأيت في التاريخ كله عظيماً واحداً لم يكن موضع السخرية أول ظهوره ، ثم صمد للسخرية حتى اجتمع الساخرون أنفسهم تحت لوائه ؟ ! .

وليست ضحكات السخرية دائماً موجهة نحو الجديد ، بل هي أحياناً

تصب « غضبتها » على القديم إذا لم يعد هذا القديم مألوفاً مرغوباً فيه ،
إننا نضحك من متعالم يستخدم لنا كلمات عربية قديمة يستخرجها من
القواميس كما تستخرج الأجساد المحنطة من القبور ، ولن يصرفنا عن
الضحك أن اللفظ المهجور القديم صحيح بحجة القاموس ؛ فلئن أفلح
المتعالم مرة في حمل الناس على بعث لفظ قديم ، فقد أفلح الناس ألف
مرة على رده إلى حظيرة الاستعمال المألوف . . . إن الابتسامة الساخرة
ترسم على الشفاه ، لى مقياس أدق مقياس لما يذبو عنه ذوق الجماعة ؛
وأنت بعد ذلك حر في أن تصانع هذه الجماعة لتعيش بينها هادىء البال ،
أو أن تخرج عليها متحدياً ، عالماً بأن النقلة من الابتسامة إلى العبوس ،
هو عند الناس أهون الهينات .

لست أدري لماذا يستبد « دون كيشوت » بتفكيرى إلى هذا الحد
البعيد ؛ فكلمة طافت برأسى فكرة ، وَرَدَ « دون كيشوت »
على خاطرى ؛ فقد أراد « سيرفانتيز » أن يقلع أهل عصره عما أغرقهم
إلى آذانهم من حب للفروسية وتقدير لما كانوا يسمونه « شرف » الفرسان ؛
فماذا صنع ؟ خلق لهم بخياله « دون كيشوت » هذا ، يفعل نفس أفعالهم ؛
لكنه عرف كيف يجعله باعثاً على الضحك ؛ وما دمت قد أضحكت الناس
من شىء ، فقد خطوات أوسع خطوة إلى محوه ؛ ومن هنا نفهم قول

« بايرون » الشاعر الإنجليزي : لقد أزال سيرفانتيز الفروسية عن أرض أسبانيا باقتسامة .

اقتسامات السخرية وَخَزَات يَحْزِبُهَا النَّاسُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِيَجْتَمَعَ شَمْلُهُمْ عَلَى سُلُوكٍ وَاحِدٍ وَفِكْرٍ وَاحِدٍ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ
الضَّحِكَاتُ إِقْلِيمِيَّةً تَقِفُ مَوَاجَتَهَا عِنْدَ الْحُدُودِ الْجُغْرَافِيَّةِ ، فَمَا يَضْحَكُ النَّاسُ
هُنَا لَا يَضْحَكُ النَّاسُ فِي بِلَدٍ مُجَاوِرٍ ؛ وَمَنْ شَمَّ كَانَتْ تَرْجُمَةُ النِّكْتَةِ مِنْ لُغَةٍ
إِلَى أُخْرَى أَمْرًا مُتَعَذِّرًا أَوْ مُسْتَحْيِلًا ، فَالْنِكْتَةُ مُحْكُومٌ عَلَيْهَا أَلَّا تَعْبُرَ
حُدُودَ بِلَادِهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ ؛ إِنَّهَا لَا تَحْمِلُ جَوَازَ الْمُرُورِ ، وَلَا يَسْمَعُ لَهَا
بِتَغْيِيرِ الْجِنْسِيَّةِ ، فَمَا هُوَ مِصْرِيٌّ — مِثْلًا — يَظَلُّ مِصْرِيًّا ، وَلَا يَرْحَلُ أَبَدًا
عَنْ أَرْضِ الْوَطَنِ ؛ لَا بَلْ قَدْ تَنْحَصِرُ النِّكْتَةُ فِي جَيْلٍ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْبِلَدِ
الْوَاحِدِ ، فَنِكْتَةُ أَضْحَكْتَ النَّاسَ مِنْذُ عَشْرِينَ عَامًا أَوْ ثَلَاثِينَ قَدْ لَا تَضْحَكُنَا
الْيَوْمَ ، لِتَغْيِيرِ الظُّرُوفِ .

وَمَا كَذَلِكَ الْبِكَاءُ ! فَالْبِكَاءُ قُوَّةٌ يَتَخَطَّى بِهَا الْحَوَاجِزُ وَالسُّدُودُ ؛ الْبِكَاءُ
إِنْسَانِيٌّ عَامٌ ، فَمَا يَبْكِي إِنْسَانًا فِي أَقْصَى الْأَرْضِ مِنْ طَرَفٍ ، يَبْكِي زَمِيلَهُ
الْإِنْسَانَ فِي أَقْصَاهَا مِنَ الطَّرَفِ الْآخَرِ ؛ وَمَا قَدْ أَسَالُ الدَّمْعُ فِي عَهْدِ مِينَا
وْخُوفُو لَا يَزَالُ حَتَّى الْيَوْمِ قَادِرًا عَلَى إِسَالَةِ الدَّمْعِ ؛ إِنَّهُ لَيَقَالُ عَنْ
« مَا كُولِي » — وَفِي الْقَوْلِ مَبَاغَةٌ جَمِيلَةٌ — إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ الْإِلْيَاذَةَ يَوْمًا وَهُوَ
سَائِرٌ فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا طَالَعَ مَوْتَ هِكْتُورِ سَحَّتْ عِبْرَاتُهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَهَلْ

يمكن أن نسمع عن أديب آخر ، أخذ يقرأ ملهاة لأرستوفان وهو سائر
في الطريق فإذا هو يضحك حتى يشق الضحك جنبه ؟ !

* * *

وإذا كان من علائم الشخصية القوية أن تصمد للهجمات الضاحكة
يشنها عليك أبناء الأمة جزاء خروجك على أوضاعهم ، فإذا أنت قائل
في رجل يجعل نفسه هو الضاحك الساخر بأبناء بلده أجمعين ؟ .

فلعلك قد رأيت كيف يتفاوت الناس في روح الفكاهة ، فمنهم من
إذا ضحك منه « مات في جلده » — كما يقولون — ومنهم من يرد
الضحك بضحك أقوى ، وما يزال كذلك حتى يرتد سهم السخرية إلى
نحر الساخر الأول . . . وهكذا يكون موقف الساخر العظيم من أمته :
يشذ عن أوضاع الناس ، فيسخر منه الناس ، فيرد السخرية بسخرية
أمضى ، حتى تنتهي المعركة ، فإذا هو واقف وحده في الميدان ، يضحك
ويسخر ، وجموع الناس من حوله تضحك معه وتسخر ؛ وإنما يضحكون
عندئذ ويسخرون من ذوات أنفسهم !

من أمثال هؤلاء الساخرين الأفاضل فولتير ، وسويفت ، ودكنز ،
وشو . . . ومنهم — وكدت أقول على رأس الساخرين جميعا في العالم
طرا — أديب ياباني أمره في السخرية عجب ، هو « جينشا إيكو » —

هذا الذي أدقعه الفقر بين قومه ، فهزأ ساخرأ بالفقر وبقومه معا ؛ لم يكن في بيته أثاث . فعلق على جدرانها العارية صوراً للأثاث الذي كان يشتريه لو استطاع ! وفي أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم للقرايين التي كان يتقدم بها إلى هؤلاء الآلهة لو كان عنده المال ! .

لم يكن « إيكو » يصيب من كُتبه مالا ، فكان رقيق الحال رث الثياب ؛ وحدث مرة أن جاءه الناشر يزوره في بيته ، وكان هذا الناشر يرتدى ثوبا جميلا فاخرا ، فما زال به الأديب المتفكك حتى أغراه بالاستحمام — وكان اليوم عيدا — وما إن وقع الناشر في الفخ حتى لبس صاحبنا ثيابه تلك الجميلة الفاخرة ، وراح يزور بها كل من عرفهم من أهل وأصدقاء .

ولما كان « إيكو » في فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل إحراقه بضع لفائف أعطاهم إياها في وقار وجد ؛ وجاءه الموت ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذي أعد لإحراق جثته ، ووضعت اللفائف على جسده بين أسنة النار ، وإذا بها تحتوى على صواريخ ، أخذت تطلق في مرج ونشوة ، وراحت تنطلق في الهواء رسوما ملونة ؛ فلم يسع الحاضرين إلا الضحك ، بعد أن كانوا من رهبة الموت في حزن وخشوع ؛ كأنما أراد هذا الساخر العظيم أن

يلعلم الناس لكمة قوية تؤلب عليهم ضمائرهم ، التي أهملته حيا ، وجاءت
الآن تصطنع الهم والاهتمام أمام جثمانه !

ابتسامة السخرية أداة في يد الأديب القادر ، يصلح بها ما قد فسد
عند الناس من طرائق العيش والتفكير ؛ ويكاد يستحيل ألا تسخر من
جماعة إلا إذا كنت في أعماقك راضيا عن أسلوبها . . . ولك أن تسأل
بعد ذلك : أين في أدبائنا الأديب الساخر ؟ .

أنتيجونا

إلى أى الجانبين نتنصر إذا نشأ التعارض ونشب الصراع : أنتنصر
لذوى القربى من أبناء الأسرة ، أم للقانون الذى يمثل الأمة جميعاً ؟ .
وكثيراً جداً ما ينشأ ذلك التعارض وهذا الصراع فى صدور الأفراد ،
لأن كل فرد هو فى الوقت نفسه عضو من أسرة وفرد فى أمة ، وقد يحدث
أن يجيء فعله موافقاً لصالح أسرته وأمته معاً ، لكن قد يحدث كذلك
أن يكون الفعل الذى يخدم صالح أسرته مناهضاً لصالح الأمة ، والفعل
الذى يخدم صالح الأمة مناهضاً لصالح الأسرة ، فإلى أى الجانبين ينبغى
له أن يتحيز وينتصر ؟ .

أما من الوجهة النظرية فلا أحسب أن اثنين مختلفان ، فى الإجابة
عن هذا السؤال ؛ فالأمة عندنا جميعاً هى المجموعة الكبرى التى تحتوى
فى جوفها الأسر ، وهى التى يجب أن تظل سواء بقيت أو فنيت هذه
الأسر أو تلك ، فلا ضير علينا أن تزدهر أسرة أو تذوى ، أو أن
تولد أسرة أو تموت ، لكن علينا كل الضير إذا فقدت الأمة مقومات
بقائها ، لأن الخيط الذى يمسك الأفراد وأسره فى كل واحد ، ينقطع
عندئذ وينفطر العقد ، وتنتثر الحبات فرادى ؛ وبذلك نكون بمثابة

من يناقض نفسه ، لأننا حين أقمنا من أنفسنا مجموعة كبرى أسميناها أمة ،
قد اعترفنا ضمناً أننا في ظل هذه المجموعة وحدها نستطيع أن نعيش ؛ وماذا
أنت قائل في رجل يظل السنين يُنبت شجرة ويرعاها في سبيل أن يستمتع
بظلها ، حتى إذا ما نمت الشجرة وامتد ظلها ، أمسك بيده الفأس ليبتها
عن أرضها زاعماً لنفسه أن صالحه أحق بالرعاية وأولى ؟ كأن صالحه الفردى
لم يكن هو المبدأ الأساسى والدافع الأول لاجتماعه مع غيره في حظيرة
أمة واحدة !

نقول إنه لاخلاف على ذلك من الوجة النظرية ، حتى إذا ما وجدنا
أنفسنا أمام الموقف العملى الذى يتطلب منا أن نسلك هذه السبيل أو تلك ،
فإما أن نتصر لأبناء الأسرة التى ننتسب إليها ، أو أن نتحيز للأمة على
حساب الأسرة ، حين يكون بين صالح هذه وصالح تلك تعارض
واختلاف ، فعندئذ يتعذر جداً على غير من قطعوا من المدنية شوطاً بعيداً ،
أن يفضوا أطرافهم عن صوالح أسرهم في سبيل مصلحة المجموعة الكبرى .
وإذاً فذلك مقياس تستطيع أن تسبر به مدى ما نالك من تحضر
وتمدن ؛ هو مقياس تستطيع أن تجزم به لنفسك إن كنت لا تزال بدائياً
جاهلياً في تكوينك النفسى ، أم خطوت إلى أمام مع خطو الزمن ؛
وسأروى لك فيما يلى خلاصة لمسرحية أنتيجونا^(١) التى أنشأها سوفوكليس

(١) النصوص الواردة هنا مأخوذة من الترجمة العربية للدكتور طه حسين
فى كتابه « من الأدب التمثيلى اليونانى » .

ليصور بها هذا الصراع الذي ماينفك ينشب في صدور الأفراد حين يدعوهم الداعيان معاً : داعى الأسرة وداعى الأمة ، وحين يكون الداعيان على تناقض وخلاف ، سأروى لك هذه الخلاصة لتسأل نفسك بعدها : هل أشعر بالعطف على أنتيجونا التي آثرت واجبها نحو أخيها على واجبها إزاء قانون أصدره الملك لميثل به صالح الأمة ؛ أم أشعر نحوها بالسخط والغیظ ؟ فإن وجدت نفسك عاطفاً عليها راضياً عنها ، فاعلم أنك إذا ما تزال في هذه المرحلة الأولية البدائية بقلبك وشعورك ، وإن ظننت في نفسك غير ذلك وأنت في حاجة إلى أن تغير من نفسك ، ليغير الله ما يحق بأمتك من تهدم وتصدع وانحلال :

« إيثيوكليس » و « بولينيس » أخوان قضيا معاً في يوم واحد ، أما الأول فقد أجزى لجمانه أن يوارى في التراب وأن يؤدي إليه من الواجبات الدينية ما يسر نفوس الموتى ، لأنه جاد بنفسه في سبيل وطنه ، وأما الآخر فقد أمر الملك « كريون » — ملك ثيبة — ألا يدفن ولا يبكى ، وأن يُترك نهياً لسباع الطير التي تتأهب لافتراسه ، وذلك لأنه ناصر أعداء الوطن على وطنه ، ويحىء النبا إلى أختها أنتيجونا ؛ فماذا تراها صانعة ؟ إن رابطة الرحم التي تربطها بأخيها بولينيس تقضى عليها ألا تترك جثمانه في العراء بغير أن يقبر أو تؤدي إليه فروض الدين ، لكن هذا هو أمر الملك — والملك هنا هو الدولة وأمره هو صالح الأمة — هذا هو أمر الملك

صریح ، بأن من يحاول دفن ذلك الشقى الآثم ، سيلقى أقصى أنواع العذاب وسط المدينة وبمشهد من مواطنيه .

وتلتقى أنتيجونا بأختها أسمىنا لتحمل إليها النبا ، ولتطلب إليها أن تعاونها على دفن أخيهما :

أسمىنا — ماذا ! أى أنتيجونا التعسة ! أتقدمين على ذلك رغم أمر كريون ؟

أنتيجونا — أله الحق أن يقطع ما يصل بينى وبين قرابتى ؟ .

أسمىنا إن الذين يأمرون أشد مناقرة ، وإن علينا أن نذعن لما يريدون ...

أنتيجونا إفعلى ما تؤثرين ؛ أما أنا فوارية أخى ، فإذا أدبتُ هذا الواجب ، فما أجمل لى أن أموت .

وقامت أنتيجونا بما رأتها واجبها نحو جثمان أخيها ، فوارته التراب ، متعرضة بذلك إلى غضب الملك وعقابه ؛ ولم يزل الحراس يبحثون عن اجترأ على دفن بولينيس ، حتى علموا أنها أنتيجونا ، فساقوها إلى الملك كريون :

كريون — ماذا ! أتظلين مطرقة إلى الأرض من غير أن تنكرى ما تؤخذين به ! ...

أنتيجونا — كلا ؛ بل أنا أعترف به ، وأنا أبعد الناس من إنكاره .
كريون — أجيبي من غير محاولة ، أتعلمين أنى قد كنت حضرت
مؤارة بولينيس ؟ .

أنتيجونا — نعم ، أعلم ذلك . وهل كان يمكن أن أجهله ؟ وقد أعلن
إلى الناس كافة .

كريون — وكيف جرؤت على مخالفة هذا الأمر .

أنتيجونا — ذلك لأنه لم يصدر عن « ذوس » ولا عن « العدل »
مواطن آلهة الموتى ، ولا عن غيرها من الآلهة الذين يشرعون للناس
قوانينهم ، وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين
التي تصدر عن رجل أحق بالطاعة والإذعان ، من القوانين التي تصدر
عن الآلهة الخالدين ، تلك القوانين التي لم تكتب ، والتي ليس إلى محوها
من سبيل ؛ لم توجد هذه القوانين منذ اليوم ولا منذ أمس ؛ هي خالدة
أبدية ، وليس من يستطيع أن يعلم متى وجدت ؛ ألم يكن من الحق على
إذا أن أذن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحداً من الناس ؟ قد كنت
أعلم أنى ميتة . . . ومن ذا الذى يعيش من الآلام فى مثل هذه الهوة التي
أعيش فيها ثم لا يرى الموت سعادة وخيراً . . . وقد كنت أتعرض لما هو
أشد لنفسي إيذاء لو أنى تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التي حملتنى .

وجعل الملك يبدى من دهشته لجرأة الفتاة ، وجعلت الفتاة تبدى
من فخرها لأدائها واجبها ، قائلة فيما قالت : « وأى مجد أحب إلى من
أنى قد وارىت أخى ؟ »

ويسألها الملك : ألا يخزيها أن تسلك سبيلا غير السبيل التي سلكها
أهل ثيبة جميعاً حين أطاعوا أمره ؟ فتجيبه : ليس هناك ما يحمل على
الخزى إذا شرف الإنسان من يصل الدم بينهم وبينه .

ويلفت كريون الملك نظر أنتيجونا إلى أنها قد كان لها أخوان ،
لا أخ واحد ، أحدهما دافع عن وطنه فاستحق التشريف ، وجاء
الآخر يدمر وطنه فاستحق اللعنة . فكيف يسوغ لها — إذا — أن
تسوى بين الأخوين في المعاملة ، فتجيبه أنتيجونا بأنها لا تفرق بين
أخويها ، فكلاهما أخوها لأبيها وأمها ، وإن الآلهة لتأمرها بتشريفهما
جميعاً .

ولا يجد الملك بدأ من أن يأمر بالفتاة فتلقى في كهف حتى تموت ؛
لكن الأديب الفنان سوفوكليس ، يمضى في تعقيد الأمور ، ليتبين
مُشاهد المسرحية كيف ينصب البلاء على من يحاول العبث بتقاليد
الناس ، لأن التقاليد في عصره لم تزل أقوى من قوانين الدولة ، فهو
ينتصر لأنتيجونا ، راعية التقاليد على كريون مشرع القوانين ؛ فجعل
« هيمون » بن كريون ونخاطب أنتيجونا ، يلقي بنفسه وراء حبيبتة في كهفها ،

فيموتان معاً . وتسمع الملكة — زوجة كريون — أن ابنها قد لقي حتفه .
ثمناً لعناد أبيه ، فتنشعر حزناً عليه ؛ فتنزل الكروب بالملك : « مثلٌ سيءٌ
ضرب للناس يبين لهم ماذا يجر الهوج على الملوك أنفسهم » .

كريون : قودوني إلى مكان بعيد ، أنا هذا الشخص المجنون ! أى
بني لقد قتلتك دون أن أريد ، ولقد قتلتك أنت أيضاً أى أوريديس
(الملكة) واحسرتاه ! لست أدري إلى أيكما أنظر ، ولا إلى أى جهة
أتحول ، لقد فقدت كل شيء ، لقد ألح على رأسى قضاء لا يطاق .

رئيس الجوقة — إن الحكمة لأول ينابيع السعادة . . . إن غرور
المتكبرين ليعلمهم الحكمة بما يجر عليهم من الشر ، ولكنهم لا يتعلمون
إلا بعد فوات الوقت وتقدم السن .

* * *

ونعود فنسأل القارىء : ماذا ترى من نفسك ، وإلى أى جهة تميل ؟
أنتاصر أنتيجونا أم تناصر الملك ؟ إن انتصارك لأنتيجونا انتصار
للأسرة على الأمة حين ينشأ التعارض بينهما ، وانتصارك للملك انتصار
للقانون على حكم القاليد — ما أحسبك إلا ذاهباً بعطفك وعاطفتك مع
أنتيجونا ، لأنك — مثلى — قد نشأت فى جو يُقَرَّب إلى قلبك الأهل
بأشد وأقوى مما يُقَرَّب المواطنين « الغرباء » ؛ وقد يهون شر ذلك

في مثلك ومثلي ، لأن كلينا ليس من أصحاب الحكم ، فأيثاره بجانب على جانب ليس بذى خطر بعيد ، لكن الطامة الكبرى حين يتأثر أصحاب الحكم بما تتأثر به — أنت وأنا — من عواطف العامة والدهماء .

إننى أقول ما قاله كريون مدافعاً عن وجهة نظره : « ليس من سبيل إلى أن تُعرف نفس الرجل وذكأؤه وأخلاقه إذا لم يجلس مجلس الحكم ، ولم يوكل إليه تدبير الدولة وحماية قوانينها ؛ أما أنا فأعتقد وقد اعتقدت دائماً أن ذلك الرجل الذى يكلف الحكومة وحماية القوانين فلا يقف نفسه على النصح للدولة وتوضيحية كل شىء فى سبيلها ، بل يمنعه الخوف من ذلكم — أعتقد أن هذا الرجل شرير ممقوت ، ولا أستطيع إلا أن أزدري ذلكم الذى يؤثر منفعة الصديق على منفعة الوطن . »

إنه لم يعد بد — كما قلت فى موضع آخر — من تغيير قيم الأشياء والأوضاع ، فما كان صالحاً لأبائنا لم يعد صالحاً لنا ؟ فقد كانت شدة الروابط الأسرية موضع فخر حين كانت الحياة بدوية متنقلة بين أطراف الصحراء ، فكان حتماً على أبناء الأسرة الواحدة أن يتحدوا جبهة واحدة أمام هجمات الأسر الأخرى أو القبائل الأخرى — والقبيلة أسرة كبيرة — أما اليوم فسبيل الخير هو أن نخلخل الروابط الأسرية بعض الشىء ، حتى لا يجد الرجل نفسه ملزماً بحكم تر بيته أن يؤثر ذوى رحمه على سواهم حين

يؤول إليه زمام الحكم وتلقى في أيديه مقاليد الأمور ، ويصبح قادراً على
الضر والنفع .

إنه لاتناقض بين أن تكون للأسرة المكانة الأولى عند الطفل ،
حتى إذا ما تم له النمو في محيطها وخرج للناس رجلاً ، تصبح لأسرته
المكانة الثانية ؛ كما أنه لاتناقض بين أن يطعم الرضيع من ثدى أمه ، حتى
إذا تجاوز حدود الرضاعة التمس لرزقه مورداً آخر .

إن بين أمثالنا التي تصور أخلاقنا مثلاً يقول : « أنا وأخى على ابن
عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » — صورة قوية موجزة للتكتل
الأسرى البغيض ، ونريد أن يأتى الزمن الذى تقول فيه أمثالنا :
ألا « غريب » بين أبناء الوطن الواحد ، وأنتى وأخى وابن عمى وأبناء
الوطن جميعاً على من نوليه أمورنا فيؤثر « قريباً » على « غريب » .

نشر القديم

إني أتهم أدباءنا ومفكرينا بالجهن والخور ؛ وأمام من يخورون
ويجبنون ؟ أمام سواد الناس من الأميين وأشباههم ! أتهم أدباءنا
ومفكرينا بالجهن والخور أمام السواد ، ولست أدري فيم إذا حملهم للقلم
إذا لم تكن مهمتهم الأولى أن يستحيل هذا « السواد » على أيديهم
بياضاً ؟ .

أدباؤنا ومفكروننا يرتعدون خوفاً ورعباً مما عسى أن يقوله الناس
فيهم ، كأن الله قد خلق الطعام ليلوا على أصحاب الفكر ما يكتبون
ويزجروهم عما لا يكتبون ، ولم يخاق أصحاب الفكر لكي يكونوا لهؤلاء
الناس نبراساً يهتدون به ويرشدون .

سيطر هذا الخوف على أدباؤنا ومفكرينا — لا أكاد أسنتي من
كبارهم أحداً — حتى لقد أصبح من المؤلف لقارئ أن يسأل قارئاً كلما
كتب الكاتب من هؤلاء الكبار مقلاً أو أخرج كتاباً يتمشى مع
عقيدة العامة ووجهة نظرها : أحقاً يعتقد فلان هذا في صدق ما كتب ؟
أصبح من المؤلف أن يسأل قارئاً قارئاً مثل هذا السؤال عما يكتبه كبار
أدباؤنا ومفكرينا مما يالثون به سواد العامة ، لأن القراء قد أدركوا هذه

المهوة السحيقة التي أصبحت تفصل بين ما يدور في باطن الفكر وبين ما يخرج للناس على الورق ؛ وأصبح القراء في حيرة من أمر قادة الفكر فيهم : متى يقصد هؤلاء القادة حقاً إلى صدق ما يكتبونه ومتى لا يقصدون ؟ .

إن كانت فكرة الكاتب متمشية مع فكرة العامة ، مضى فيها الكاتب من أول حياته الأدبية إلى آخرها ، لأنه ليس في طريقه خطر يحمله على انتهاج سبيل آخر ؛ وأما إن كانت فكرة الكاتب متعارضة مع رأى العامة ، فهنا تلحظ الأعاجيب في سيرة الكاتب ، فهو يبدأ حياته الأدبية بشيء لينتهي آخر الأمر إلى تقيضه ، ومن ثم سؤال القراء بعضهم بعضاً ، أحقاً يعنقد الكاتب في صدق ما يروي ؟ دلتى على مفكر واحد من أصحاب القلم عندنا قد عُرف بفكرة معينة تصدم عقيدة سواد الناس ، ثم ثبت عليها ، وأخذ يكتب فيها دون أن يتحول عنها .

قد يبدأ الكاتب عندنا بشيء من الشجاعة فيعلن الرأى الذى يخالف ما قد ألفه الناس وتواضعوا عليه ، لكنه سرعان ما يعود يسراه ليمحو ما خطته يميناه ، ولا يتردد في تمزيق أوتاره جميعاً ليعيد مكانها وترأى يبعث به النغم الذى يحلوقعه في المسامع — لماذا ؟ لأن المسكين يريد أن يبيع بضاعته في سوق رائجة التماساً للقمّة العيش ؛ ألا قبّح الله عيشاً يكون العهر الأدبى وسيلته .

على أن لقمة العيش إن كانت في أعين الناس مبرراً كافياً لهذه الزندقة الفكرية ، فماذا يبرر أن نرى الكاتب قد أصاب ما يكفي جوفه وجوف أولاده من شِبَع وريّ ، ومع ذلك يدس عقيدته بين ضلوعه ابتغاء مجد شعبي أو شهرة رسمية ؟ إنى لأذكر بهذه المناسبة سطرين من الشعر الإنجليزي ، قالها شاعر محزون في منتصف القرن التاسع عشر ، إذ رأى واحداً من زملائه الشعراء قد اختطفته من بين زهرتهم يد تشبه يد المنون في بشاعتها ، وأغنى به « تِدْسُن » (على ما أذكر) حين اختاروه أميراً للشعراء ، وهو لقب كان يحتم على صاحبه أن يكون تابعاً من توابع السلطان.. فقال الزميل المحزون على فقد زميله سطر به المشهورين :

« من أجل حفنة واحدة من الفضة قد تركنا

تركنا ابتغاء شريط يلصق بسترته » .

ومن يدري ؟ لعل هذه المقدمة الطويلة قد أملاها على الهوى ، لأمهّد بها لرأى جرىء أريد أن أجنأ به القارىء ثم أترك على الله بعد ذلك رزقي ؛ فقد أردت أن أعبر في هذا المقال عن رأى أراه وأؤمن بصدقه ، وهو أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة بهذه النسبة الكبيرة البادية فيما نُكثّر من نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، هو أشبه شيء بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه ؛ وربما أحدث هذا

الوباء في عقولنا من الضر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره .

أردت أن أقول إن كثيراً جداً مما نقوم على نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، لا تساوى قيمته قيمة الورق الذي طبع عليه ؛ وليت الأمر في ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل إنه ليعيد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمنىء به رثاتنا وصدورنا ، فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقري ؛ فلست أدرى بأى حلق أصبح حتى تسمع الصيحة ؛ فأقول : إننا يا قوم في وادٍ والدنيا المتحضرة في وادٍ آخر .

والأمر أمر نسبة صحيحة بين الأشياء ؛ فلو كان كل كتاب عربي قديم تقوم المطابع على إخراجه واستنفاد الورق والخبر فيه ، يقوم إلى جانبه ألف كتاب مما ينقل إلينا ثمار المدنية الحاضرة والفكر المعاصر ، لما كان هنالك موضع للشكوى ؛ أما والمطابع منصرفة بمعظم مجهودها إلى شد الأعناق إلى الوراء ، حتى لنكاد نطالع كل يوم إعلاناً جديداً عن كتاب آخر قديم كتب له النشور وشهد النور بعد ظلمة القبور ، فمن ذا يلومنا على آهة الحسرة نبعثها من أعماق النفس أسى وأسفاً ؟ .

الكتاب القديم تحفة نضيفها إلى المكتبة لنضيف بها صفحة الماضي

إلى صفحات الحاضر ، لكننا نعيش على صفحات الحاضر وتسلمى
بذكريات الماضي ، اللهم إلا إذا كان المراد بنا أن تكون حياتنا كلها
أحلاماً نستعيد بها مجدنا القديم ، فتمضي الحياة الحاضرة تحت أنوفنا
ونحن نيام رقود ؟ .

أست ترانا نجتمع الآثار القديمة في متحف واحد أو متحفين أو عشرة ،
ثم نترك ألوف الألوف من المباني بعد ذلك للسكنى والعيش ؟ من ذا يريد
أن يكون المتحف المصرى داره التى ينام فيها ويأكل ويعمل ويسمر مع
أهله وأصدقائه ؟ !

لكن الذين يريدون أن يملأوا علينا رفوف المكاتب بالقديم
المنشور هم من يريدون أن يُنسونا أمور عيشنا ويجعلون من المتاحف
مضطرب حياتنا ؛ لقد يكون، من الخير أن تضع تمثالاً فى هذا الركن أو ذاك
من أركان دارك ، أو تعلق صورة هنا أو هناك على جدرانها ، على أن
تستبقى لنفسك معظم فراغ الدار للجلوس والحركة والأكل والنوم
والطهى والغسل .

الكتاب القديم المبعوث من قبره هو كالكراसे القديمة نعثر عليها
تحت الأثاث المخزون ، وتتصفحها فنجدها أثراً جميلاً من آثار الطفولة ،
ففى الكراسة التى كنا نكتب فيها الحساب أو الإنشاء ونحن فى المدرسة

الأولية ، فنبتسم لها ابتسامة الإشفاق ونمسح عنها التراب ونضعها في ركن من خزانة الكتب احتفاظاً بذكرى يوم مضى ؛ لكن الأمر يتقلب جنوناً صريحاً إذا جعلنا هذه الكراسة بعد ذلك شغلنا الشاغل ، نقرأ ما فيها قراءة من يتوهم الجد في عمله .

ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الذين يلون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء ؟ ماذا يريدون للمهندس الذى يبني العماثر والجسور ويرصف الطرق أن يقرأ ليقوم بما نحب له أن يقوم به من بناء وتعمير ؟ ماذا يريدون للطبيب الذى يُسأل عن شفاء المرضى أن يقرأ ليؤدى ما نسأله عن أدائه ؟ ماذا يريدون للاقتصادي الذى نطالبه بتصريف بضائعنا في الأسواق العالمية وباستيراد حاجتنا من تلك الأسواق بأحسن الشروط ، ماذا يريدون لهذا الاقتصادي أن يقرأ لكي يحقق لنا هذا الذى نطالبه به ؟ ماذا يريدون للزارع الذى تود له أن يملأ علينا المخازن غلة وثماراً أن يقرأ لتتوافر لنا بمجوحة العيش وورخاؤه ؟ أم هل يريد هؤلاء الناس لنا أن ننصرف عن هندستنا وطبنا واقتصادنا وزراعتنا لنقرأ الوافى بالوفيات ونوادر المخطوطات وكتاب الإرشاد والمزهر وترجمة ابن عساكر . . . ؟ !

« لا ، يا جاهل ! » — الآن خيل إلى أن قراء كثيرين سيشفقون على من هذا الجهل المطبق الذى أبدية ، وسيخاطبوني من بعد قائلين :

« لا ، يا جاهل ! فما لنا الآن بالهندسة والطب والاقتصاد والزراعة ؟ !
هذه الكتب القديمة التي نشرها إمامي للثقافة والتثقيف » كان
الشرط في « التثقيف » عندهم أن يمتلئ الرأس بما ليس ينفع الحياة في شيء
من بناء الدور وشفاء المرضى .

والحمد لله فقد رضيت لنفسي بالجهالة المطبقة إن كانت هذه الكتب
هي أدوات الثقافة التي أملأ بمكنونها رأسي ! لو كان ما أريده فناً من
الفنون ، فقبل أن أقرأ هذه الكتب لا بد لي أولاً أن ألم بما يكتبه
جهاذة الفن من أهل المدينة القائمة ؛ ثم أعقب على ذلك إن شئت
بصفحة أقرؤها من صفحات الطفولة الماضية لأتسلى بلهو الماضي إلى جانب
جد الحاضر ؛ وإن كان ما أريده أدباً من شعر أو نثر أو قصة أو مقالة
أو ماشئت ، فلا بد لي أولاً أن أملأ جعبتي بالزاد الذي يغذي غداء
حديثاً لأسير مع السائرين في ركبهم ، ثم بعد ذلك ألهو ساعة أو ساعتين
بنوادر المخطوطات — وإنما ضربت المثل بالفن والأدب ، وهما ما قد يظن
أهل الظنون أن لنا فيهما شيئاً نفاخر به بين ما تفاخر به سائر الأمم ،
ولم أذكر شيئاً عن العلوم التي لا أحسب مكابراً يريدنا على ترك ما عند
العرب منها لتزود بما قاله فيها العرب الأقدمون .

احكموا بيننا أيها المنصفون : هذا كتاب قديم نشره الناشرون ،
فيه — مثلاً — طب قديم أو علم نفس قديم ، فكم من الزمن ينبغي

أن أخصه لمثل هذا الكتاب بحيث يكون في دراستي شيء من الاتزان ،
فلا يطغى قديم على حديث ؟ في رأي أنه كلما أنفقت ألف ساعة فيما يقال
عن الموضوع عند الباحثين المعاصرين ، يكفي أن أنفق ساعة واحدة في نظرة
أنظر بها إلى ما قاله صاحبنا القديم ، ويكون ذلك على سبيل اللهو والتسلية
الذي لا جد فيه — وإن كان ذلك كذلك فقد كان ينبغي أن يصدر ألف
كتاب فيها ثقافة حديثة كما صدر كتاب واحد قديم — لكن انظر إلى
ما تخرجه لنا المطابع هذه الأيام واعجب .

إن كل أنواع العزلة شر على الحياة الخصب المليئة ، إلا إن كانت عزلة
مؤقتة فيها استعداد لما بعدها ، وشر أنواع العزلة جميعاً هي العزلة الفكرية
عن سائر العالم ؛ فليس الفكر طاحونة تدور في أهواء ولا تطحن شيئاً ،
إنما الفكر يدور في أبحاث علمية من طبيعة وكيمياء ونبات وحيوان ونفس
 واجتماع واقتصاد وزراعة وتجارة وحرب ، ونظم سياسية ونظم تربوية
 وغيرها ، وفي كل هذه الأمور يكتب المؤلفون من رجال الغرب عشرات
الكتب ولو عشراتها ، فهل نترك هذه الأكاداس الفكرية كلها ،
لتنطوي على أنفسنا في جب مظلم مليء بالتراب ، فننفض الغبار عن كتاب
قديم فيه — مثلاً — أسماء الخليل عند العرب أو ذكر الأعشاب وطرائق
تحضيرها والعلاج بها ، ونهش ونبش لهذا الكنز الثمين ، ونروح نغدق
عليه المال على فقرنا ، والورق على ما نحن فيه من مجاعة ورقية ، ونشغل

به أصحاب التفكير والقراء في آن معاً؟ والأمر - كما أسلفت - هونسية صحيحة بين الأشياء ، فلو أخرجتُ هذا الكتاب وإلى جانبه ألف كتاب - على أقل تقدير - مما ينقل إلى ثقافة الغرب القائمة اليوم ، والتي يسير العالم الآن على هديها ، وعلى شرط أن تكون هذه الكتب الألف موضع الجد والدراسة ، وأن يكون ذلك الكتاب القديم الواحد بمثابة التحفة التي ننظر إليها نظرة من لا يريد أن ينسى طفولته الدابرة ، لو حدث هذا لما كان لنا على نشر القديم ملامة وعتاب .

ماذا يكون مصير الأجيال الجامعية الناشئة حين تتلفت في عالم الكتب العربية لتقرأ ، فلا تجد على رفوفها إلا هذه الهياكل العظمية التي أخرجناها من قبورها ولففناها بورق أبيض ناصع ، وقلنا هاكم الأزاهر النضرة فاملأوا خياشيمكم بشذاها؟ مصيرهم محتوم ، وهو أن يُقبلوا عليها بقدر ما في وسع شبابنا الجامعي أن يقبل على قراءة ، وما هو إلا أن يظن هؤلاء الشباب أن العلم هو هذا ، وأن الدنيا هي هذه التي طالعوها على صحائف تلك الكتب ، ولسنا في هذا النقد بمسرفين ، فعلى بعد خطوات منا معاهد تأخذ بمثل هذه الدراسة ؛ فعليكم بها وانظروا ما « العلم » في جوها وبين أبعائها .

وهكذا سيمضي الغرب في طريقه وسنمضي : هو يشتغل بتفتيت الذرة ، ونحن نعبث بتشقيق الشعرة . هل هذه اللفظة قالها العرب مفتوحة

أو مضمومة ؟ وهل هذا الحرف في النص الأصلي فاء أو قاف ؟ سيمضى
الغرب في طريقه وسنمضى : هو يحاول الصعود إلى ذرى السماء ، ونحن
نحفر الأجداث لنستخرج منها الرمم .

لست أدعى أنتى فريد قومي في هذا الرأي الذى أراه ، فهم يعدون
بالألوف أولئك الذين يضحكون سخرية من هذا الإسراف فى نشر
الكتب القديمة ؛ ودليل ذلك أنهم يعدون بالألوف أولئك الذين لا يقرءون
صفحة واحدة من هذه الكتب لو أهديتهم إياها بغير مقابل من مال ؛
لكن أحداً من هؤلاء لا يجرؤ على الجهر بهذا الرأي خوفاً من العامة
وأشباههم ؛ إن رأى العامة هو أن للآثار العربية قدسية لا ينبغى أن تدوسها
قدم ، فإذا كتب كاتب فليتغن بهذا اللحن أو فليصمت .

وهأنذا أبيع سمعتى العلمية بغير ثمن ، لأن تسعة وتسعين قارئاً من كل
مائة سيتمم لنفسه قائلًا عنى : جاهل لا يعرف قيمة الدر النفيس .

سُلم القيم

ليست قيمة الشيء كائنة فيه جزءاً منه ، كما تكون عقارب هذه الساعة التي أمامي جزءاً منها يتصل وينفصل ؛ إنما تنشأ قيمة الشيء عن علاقتنا به ، فنحن الذين نجعل للأشياء قيمتها ، مهما يكن نوع تلك القيمة ، اقتصادية أو خلقية أو جمالية ، صادرين في تقويمنا للأشياء عن مصالحنا الذاتية ، فما يخدم لنا صالحاً كان له من القيمة بمقدار ما يخدم ؛ ولذلك ترانا ندرّج الأشياء المختلفة التي تشبع فينا حاجة أو غرضاً ، ندرّجها في سُلم متفاوت من القيم ، حسب تفاوتها في إشباعها لحاجتنا وتحقيقها لأغراضنا .

لهذا قد تجعل للشيء قيمة في موضع معين أو سياق معلوم ، حتى إذا ما تغير موضعه أو اختلف سياقه ، فقد قيمته ، وكلنا قد قرأ إبان الطفولة قصة المسافر الذي انقطع به الطريق في الصحراء ، وقد فرغ منه الزاد وكاد الجوع أن يهلكه ، فراح يخبط في سيره يميناً ويساراً حتى وقعت عيناه على صرة ملقاة ظنها طعاماً ، فأخذته نشوة من الفرح ردت إليه الأمل في الحياة ، لكنه فتحها بيد مرتعشة ليجدها مليئة بالدر والجوهر ، فألقى بمكنونها « النفيس » في يأس وقنوط ، إذ لم تكن لذلك الدر والجوهر عندئذ قيمة رغيف واحد من الخبز .

ويصدق هذا الكلام على القيم الأخلاقية والجمالية صدقه على القيمة الاقتصادية ؛ فالفعل فضيلة أو رذيلة حسب مايقوم به ذلك الفعل في نهاية الأمر بتهيئة أسعد حياة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس ؛ وليس في الفعل ذاته — كائناً ما كان — شيء يجعله فضيلة أو رذيلة بغض النظر عن الظروف المحيطة به ؛ حتى ليحدثنا علماء الأجناس البشرية بأنه ما من فعل يطوف بخيالك ، إلا وجدته هو نفسه فضيلة عند بعض القبائل وفي بعض العصور ، ورذيلة عند قبائل أخرى وفي عصور أخرى .

كان الرق فعلاً مباحاً فيما مضى فأصبح محظوراً محرماً ؛ كانت الطاعة العمياء لولى الأمر عبادة أيام بناء الهرم الأكبر ، فأصبحت عبودية تضع الدساتير لها قيوداً وحدوداً ؛ كان الثأر واجباً لامندوحة لأفراد الأسرة أو القبيلة عن أخذه بأيديهم عاجلاً أو آجلاً ، فأصبح علامة على المهجبة التي يقف في وجهها القانون ، وهكذا وهكذا مما لا يكاد يحصيه عد من الأفعال والأوضاع .

وحتى حين يحكم فريق من الناس في عصر معين على فعل بأنه خير ، فهم لا يقصدون بالخير إلا صورة الفعل كما تبدو حركاتها الجسدية في عين الرأى ، بل يقصدون إلى ما يترتب على ذلك الفعل من نتائج جالبة للعيش الرخى السعيد ؛ وإلا فإن تجد فرقاً في الصورة الحركية الظاهرة لفعل الشجاعة وفعل الجبن : كلاهما مشى أو جرى ، الشجاع

يمشى نحو عدوه أو يجرى ، والجبان يمشى مبعداً عن عدوه أو يجرى ؛
لكن المشى أو الجرى في الحالة الأولى ينتج نتائج نسعى إليها ونرضاها ،
وهو في الحالة الأخرى يعود علينا بما لا نحبه أو نبتغيه .

كذلك قل في القيمة الجمالية : فالشيء الذي نقول عنه إنه جميل ،
قد يكون شديد الشبه جداً في صورته الخارجية بالشيء الذي نقول عنه
إنه قبيح ؛ لأن جمال الجميل وقبح القبيح ليس كائناً في الشيء ذاته ،
ولمّا ينبعث من نظرتنا الذاتية لهذا وذاك ؛ وإلا فما الفرق في الصورة بين
ثدي « جميل » على صدر فتاة ناهد ، وبين ورم « قبيح » على عنقها ؟
وما الفرق بين ماء الشلال الدافق حين تنظر إليه ساعة التنزه ، وبينه
حين تنظر إليه وطفلك غارق فيه ؟ لا فرق إلا ما تحدده أهواؤنا ومصالحنا
الشخصية الذاتية .

أهواؤنا ومصالحنا — إذاً — هي التي تملي ما النفيس وما الخسيس
في تقدير القيمة الاقتصادية ، وهي التي تملي ما الفضيلة وما الرذيلة
في تقدير القيمة الخلقية ؛ ثم هي كذلك التي تقرر ما الجميل وما القبيح
في تقدير القيمة الجمالية — هذا رأى من الوضوح بحيث تعجب أشد
العجب كيف وقع الخلاف في أمره بين رجال الفكر ونقّدة الفنون ؛
فمن هؤلاء فريق يزعم أن فضيلة الفعل الفاضل ، وجمال الشيء الجميل ،
كائن في الفعل نفسه أو الشيء نفسه ، كما يكون التربيع في الشيء المربع

والتدوير في الشيء المستدير ؛ وتترتب على ذلك بالطبع نتيجة من أخطر النتائج ، وهي ما كان فضيلة عند آبائنا وأجدادنا ينبغي أن يظل كذلك بالنسبة لنا وإلى أبد الأبدين .

تعجب أشد العجب أن تجد هذا الفريق من رجال الفكر وأصحاب النقد الفني ، ينظر هذه النظرة الموضوعية في القيم ؛ وإذا طالبت أحدهم أن يحلل لك الشيء موضوع الحكم إلى عناصره ليريك عنصراً من بينها اسمه « فضيلة » أو عنصراً اسمه « جمال » ، فلا يجيبك إلا بنظرة ازدراء ، لأنك تكون في رأيه « مادياً » ممقوتاً ذمياً ؛ وأما هو « فروحاني » لا يريد أن يرى الفضيلة بعينه ويلبسها بيديه ، أو أن يرى الجمال ويلسه عنصراً مستقلاً قائماً بذاته على النحو الذي يرى به أو يلبس قطعة من النحاس أو الحديد ؛ هو « روحاني » يكفيه أن يقول إن الفعل الفاضل فضيلته جزء منه ، وإن الشيء الجميل جماله جزء منه ، ولا بأس عنده في أن تكون هذه « الأجزاء » من أفاعيل السحر ، نحكم بوجودها لنكتنا لا ندرکها بحاسة من حواس « الماديين » الأجلاف الغلاظ .

ليقولوا في ذلك ماشاءت لهم مثاليتهم ، وأما نحن فرأينا في قيم الأشياء والأفعال هو كما أسلفنا : فالأفعال والأشياء في ذاتها محايدة ، ونحن الذين تضطرنا ظروف العيش أن نفضل فعلاً على فعل ، حين نرى أن الفعل المفضل أضمن الفعلين طريقاً إلى الحياة السعيدة القوية لأكثر عدد من

أفراد المجتمع ، أو من أفراد الإنسانية قاطبة إن شئت .

فإذا تغيرت ظروف العيش ، تغير في إثرها — أو يجب أن يتغير — سلم القيم ؛ فما كان في أعيننا ذا قيمة قد يصبح ولا قيمة له ، لأنه لم يعد هو وسيلة احتفاظنا بوجودنا — وإذا تغيرت ظروف الحياة ولم يتغير في إثرها سلم القيم ، كان الأرجح أن يظهر مصلح عظيم ينادى بالثورة أو الانقلاب ؛ وما الثورة أو الانقلاب عندئذ إلا تحوير في تقويم الناس للأشياء بحيث يجيء التقويم متناسباً مع ما تقتضيه الظروف القائمة .

إنه من سوء حظ الإنسان في تاريخه ، أن ظروف حياته المادية تتغير بخطى أسرع جداً مما تتطور به طريقته في تقدير قيم الأشياء والأفعال والأوضاع ، فتظل طريقة التقدير متلكئة حتى تصبح كالثوب الضيق الممزق ، ويصبح خلعه ضرورة محتومة ، يراها صاحب النظر السليم وإن عارضه فيها سواد الناس ، فإن استطاع هذا أن يغير من وجهة نظر الناس حتى يدركوا ما أدركه ، كان هو المصلح الاجتماعي العظيم .

وأعتقد أننا في مثل هذا الموقف الآن : فظروف اجتماعية واقتصادية تغيرت واشتد بها التغير ، وسلم للقيم باق على حاله ؛ وإذا فالثورة الحقيقية التي نريدها ، هي أن نقلب هذا السلم قلباً تتغير معه أوضاع درجاته بنسبة بعضها لبعض ، وعندئذ نجد أن درجات سفلى ستعلو ، ودرجات عليا ستسفل .

كنا أمة زراعية رعوية ، نشتغل بالزراعة اليدوية فنتخلق بأخلاقها ،
وإلى جانب ذلك ورثنا أخلاق الرعاة البدو عن آباؤنا العرب ، فكان لنا
من هذا المزيج الزراعي الرعوي أساس تقويمنا لكل شيء ؛ لكن الزراعة
والرعي قد مستهما عجلات الآلات الصناعية ، وللصناعة أخلاق غير أخلاق
الزراعة والرعي ، فلا بد لنا من ثوب جديد ليلائم الجو الجديد .

* * *

لم يعد بد في الحياة الجديدة من رفع قيمة العلم الطبيعي وخفض قيمة
الوسائل الكلامية ، لأن آلات المصانع لا يديرها الشعر المقتني ولا النثر
المسجوع ؛ فإن كانت الإبل في حياة البدو الرُّحْل بحاجة إلى حذاء
الشاعر لتقطع الفلاة على حلو النعم ، فإن القطار لا يستمع إلى غناء ولكنه
يريد قضباناً من حديد ، والطائرة لا غنى لها عن محركات من الصلب
الصليب ؛ كان آباؤنا العرب يتنافسون في عكاظ كل عام ليروا أيهم
أشعر من أخيه ليتقرر بذلك أي القبائل أعلى منزلة وأعز جانباً ، لكن
ميدان التنافس اليوم كائن بين مخاير المعامل وأمايبها وغازاتها وعناصرها ،
لأن الغلبة للسابق في إعداد الآلة ، ولم تعد الغلبة كما كانت للشاعر
المجيد وعشيرته .

نفتح كيس البريد الوارد إلى «الثقافة»^(١) فإذا نسبة الوارد هي عشر
قصائد من الشعر مقابل مقالة واحدة ، وبين المقالات الثرية نفسها تجد

(١) كان الكاتب مشرفاً على تحرير مجلة الثقافة عند كتابة هذا المقال .

نسبة البحوث الأدبية إلى البحوث العلمية عشرة إلى واحد أيضاً ؛ أعنى أن في كل مائة ممن يهتمون بالكتابة تسعين شاعراً وتسعة من الأدباء النافرين وعالماً واحداً ؛ وربما تطيب هذه النسبة الثقافية في قبيلة بدوية أو في قرية زراعية تجر المحراث بالأيدي ، فتعمل ساعة وتستريح خمس ساعات تستمع خلالها لما ينشده الشعراء من شعر . لكن العالم قد تغير ، وقيم الأشياء ينبغي كذلك أن تتغير تبعاً له .

ولا يزال لواء الحكم معقوداً عندنا - في أغلب الأحيان - للخطيب البليغ في تنميق اللفظ ، التقدير في رفع الصوت وخفضه ، لا للعالم الإحصائي في شئون الدنيا الجارية من حرب واقتصاد ؛ وحتى الكاتب الذي يكتب للناس في الصحف ، تراه أميل إلى صب أسلوبه في قالب الخطابة الذي يؤثر في النفوس الساذجة ، أكثر منه إلى مراعاة الدقة والأمانة في رصد الحقائق .

ولم يعد بد في الحياة الجديدة من رفع قيمة العامل بيديه وخفض قيمة الفكر النظري الذي يشطح بفكره في السماء ويأبى النزول إلى الأرض مع أبناء آدم وبناته ؛ فالكفاءة العملية لا « شهادة الكفاءة » النظرية هي مقياس التقدير ، ومضى العهد وانقضى الذي كان فيه التفكير النظري المجرد من القدرة على التطبيق من علامات التهذيب والسيادة .

ولم يعد بد في الحياة الجديدة من تغيير النظر إلى المرأة تغييراً كاملاً

شاملاً ؛ ولست أقصر حقها على ما تطالب به من فتح الأبواب أمامها على مصاريحها لتعمل إلى جانب الرجل وتنافس به ، بل أزيد على ذلك نقطة أخرى أغفلها المطالبون للمرأة بحقوقها ، وأراها جوهرية في تكامل شخصيتها تكاملاً يلائم روح العصر الجديد النشط العامل ، وتلك أن للمرأة مسئولة عن نفسها ، وليس المسئول أخا لها أو والداً كما كانت الحال أيام القبيلة ، حين كانت المرأة وعاء يستولده الرجل ماشاء لنفسه من بنين وبنات .

عفة المرأة في الحياة البدائية هي الشغل الشاغل ، وهي محور الأخلاق كلها ، فإن سلمت كانت الأخلاق بخير ، مهما يكن بعد ذلك بين الناس من تقتيل وسرقة ونهب ورشوة وفساد ؛ وذلك لأن الغريزة الجنسية عندهم هي الهدف الوحيد الذي يحميون من أجله ؛ وها نحن أولاء نسمع كل يوم صراخاً ينبعث من هنا وهناك خوفاً من « المدينة الغربية » لأنها تهدم الأخلاق ! ! و « الأخلاق » عند الصارخين المستغيثين هي عفة المرأة ولا شيء غير ذلك ، ظناً منهم أن المرأة عندنا أعف منها عندهم ؛ أما أن يكون من الأخلاق ألا تسرق أموال الدولة وأنت قيمٌ عليها ، وألا ترفع أنصارك وأصهارك على حساب أصحاب الحق ، وألا تجبن عن التصريح برأيك حين تشعر بأنه الحق ، وألا تسكت على ظلم تراه ، وألا تسطو على العاجزين في طعامهم ، حين تستبيح لنفسك أكثر مما ينبغي لك ، فيتبقى

للعاجزين أقل مما ينبغي لهم ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة العريضة من « الأخلاق » بمعناها الصحيح ، فليس ذلك كله عندهم بشيء مذكور مادام « الحريم » مصوناً في الخلدور .

لكن لم يعد بد من إعادة النظر في سلم القيم ، لتعيد الموازنة السليمة بين درجاته ، فنضيف إلى هذا « أُلُخْلُقُ » الواحد الذي صببنا عليه كل اهتمامنا ، عدداً كبيراً جداً من « الأخلاق » الأخرى التي ليس من اكتسابها بد .

ولم يعد بد في الحياة الجديدة أن تكون الفردية هي أساس كل تفكير سياسي واجتماعي ، فليس زيد زيداً لأنه عضو في أسرة كذا أو قبيلة كذا ، بل إن زيداً زيد لأنه زيد ؛ على أن زيداً وعمراً وخالداً كلهم سواء في المادة الإنسانية وإن تفاوتت بينهم ألوان العمل وأقدار المال ؛ فإذا تكلمنا عن جماعة بلغة الحياة القديمة قلنا هذه قبيلة كذا التي يرأسها فلان ؛ أما إذا تكلمنا عن تلك الجماعة بلغة الحياة الراهنة ، وجب أن نقول : هذه جماعة قوامها فلان وفلان وفلان .

وبعد فربما أكون قد أخطأت في التطبيق هنا أو هناك . أما المبدأ الذي أردت أن أقرره — وهو أننا في أشد الحاجة إلى تغيير نسبة القيم بعضها إلى بعض ، ليكون لنا بذلك سُلْمٌ جديد نهتدى به — فلست أحسب أنني قد أخطأت في تقريره .

نموذج المتمدن

يقول « لِنْ ستريتشى » — الأديب الإنجليزى الحديث — عن نفسه هذه العبارة : « أنا المدنية التى تحاربون من أجلها » .

وقفت عند هذه العبارة متفكراً متدبراً ، فكان أول ما استوقف نظرى منها ، هو أنها تطبيق جيد لمبدأ فكرى آخذ به ، وأحاضر فيه ، وأدعو إليه طلابى كلما سنحت لذلك فرصة مناسبة ؛ وهو مبدأ غاية فى البساطة والوضوح ، لكنه بعيد النتائج عميق الأثر ، وهو كفيل لصاحبه أن يهديه سواء السبيل فى كثير مما يشغل الناس من خلاف واختلاف .

وبخلاصة هذا المبدأ ، هى أن كل كلمة من كلمات اللغة ، تكون صوتاً فارغاً من المدلول ، إلا إذا كانت تدل على أفراد جزئية مما يمكن أن يشار إليه ، أو يقع لحاسة من الحواس المعروفة ؛ فلفظة « كتاب » — مثلاً — دالة على معنى ، لأننى أستطيع أن أشير لك إلى فرد أو أفراد من الأشياء التى أضمها جميعاً فى حزمة واحدة ، وأطلق عليها كلمة « كتاب » ؛ أما لفظة مثل « عدم » فهى بغير معنى ، ولا فرق بين أن تكتبها أو أن تخطّ مكانها خطوطاً مهوشة كالتى يخطها الأطفال الصغار

على الورق ؛ هي علامة مرقومة على الورق — أو موجة صوتية إن كانت منطوقة — لا دلالة لها بين الأشياء ؛ فليس هنالك الشيء المفرد الذى يمكنك أن تشير إليه قائلاً : « هذا عدم » ؛ إنك لا تستطيع أن تشتري من السوق « عدماً » تأكله أو تشربه ، ولا أن تطلب إلى الخياط أن يخيط لك « عدماً » تتقى به برد الشتاء ؛ وقل مثل ذلك أيضاً في لفظة مثل « وجود » فهما بحثت في عالم الأشياء ، فان تقع بينها على شيء اسمه « وجود » ؛ إنك ستقع على نهر وشجرة ، وبناء وكتاب ، ومقعد وسيارة ، ونملة وطائر ، وكلها « موجودات » ؛ لكنك لن تجد بين الأشياء شيئاً قائماً بذاته اسمه « وجود » .

ولقد ضربت لك المثل بكلمتين الله أعلم كم ملأتنا من صحائف وم شغلنا من عقول ، فما أكثر ما كتب أوقيل في « الوجود والعدم » ؛ مع أنهما لفظتان فارغتان جوفوان ليس وراءهما شيء ، فالأمر كله غير ذى موضوع كما اعتاد الناس أن يقولوا اليوم .

كذلك ضربت المثل بهاتين الكلمتين ، لأن أستاذنا العقاد ، حين تفضل مشكوراً بنقد كتابي « المنطق الوضعي » قال في سياق الحديث : « إن الإنسان يستطيع أن يجزم بحقيقة لا صورة لها في الخارج على الإطلاق ، لأنه يستطيع أن يقول (إن عدم مستحيل) ، ولا يمنع من تقرير ذلك أن المحسوسات خلت من شيء يسمى العدم أو شيء يسمى

المستحيل . ونحن نرد على أستاذنا في هذا بقولنا : إن أمثال هذه العبارات ليس مما يجوز قوله ولا تقريره ، لأن كلماتها فارغة من الدلالة ؛ ولنتصور مثلاً عالماً من علماء الكيمياء أو الطبيعة أو ماشئت من علوم ، وقف أمام مجمع علمي يقرر زملائه « أن العدم مستحيل » ؛ وزملاؤه ممن يسارعون إلى المعامل والأنابيب ، وممن يطالبون بإقامة التجارب ؛ فأى تجربة يستطيع القائل أن يثبت بها زملائه مثل هذا الادعاء ؟ ماذا يضع في الأنابيب وماذا يلاحظ ليقبل الدعوى أو يرفضها ؟ . . . فإن كانت العبارة ليست مما يقوله العلماء ، فمن إذاً يجوز له قولها وهو آمن مطمئن ؟ أولئك الذين لا يريدون أن يُسألوا عن معنى ما يقولون ، فضلاً عن أن يُسألوا عن إثبات صدقه - هذه الألفاظ وأمثالها قد اكتسبت « معانيها » من كثرة تكرارها ؛ كررنا النطق بها ، وتكرر سمعها ، حتى توهمنا أنها كلمات « مشروعة » ، والحقيقة أنها أصوات أو علامات زائفة لا بد من حذفها .

لكن ذلك استطراد قد طال ، فلعله يلقي لنا ضوءاً على الكلمة التي نحن الآن بصدد الحديث فيها ، وهي كلمة « المدنية » - فهي الأخرى من الكلمات التي يقوم فيها الجدل ويعنف ويشتد ، فتراهم يسألونك : هل نأخذ بالمدنية الغربية أو لا نأخذ ؟ وإذا أخذنا بها ، فإلى أى حد وبأى مقدار ؟ أو ليس الأصلح لنا أن نتمسك بمدنيتنا الشرقية ؟ ومنشأ الإشكال كله لفظة غامضة لم يحددوا معناها ؛ « فالمدنية » - كأي كلمة أخرى - لا يكون لها معنى إلا إذا وجدنا في عالم الأشياء أشياء بذواتها ، تشير

إليها بأصابعنا قائلين : هذا وهذا وذلك « مدنية » ؛ وأنا أؤكد للقارىء أنه لو أمسك بقلمه ومذكراته ، وخرج إلى الشوارع ، وتنقل بين المدن والقرى ليسجل قائمة بالأشياء التي يعدها مدنية ، لا نحسم كل خلاف ، لأنه لن يجد ما يسجله في قوائمه إلا ما يثبت له أن مدنية العالم الحاضر في صميمها واحدة لا تعدد فيها ، وما عداها قواقع من جهل وخرافة خلفها جَزَرُ الأيام على شاطئ الحياة .

ولست أدري إن كان « لن ستريتشى » حين قال عن نفسه : « أنا المدنية التي تحاربون من أجلها » قد قصد إلى شيء من هذا التحليل الذي أسلفته لك ، أى أنه قصد إلى أن الكلمة لا تكون ذات مدلول ومعنى إلا بمفردات مسمياتها ، وأنه لذلك أشار إلى نفسه على أنه هو الفرد الجزئى الذى يحدد معنى كلمة « مدنية » ومدلولها ، حين رأى أن فى شخصه قد تجمعت عناصر ، هى التي نريدها باستخدامنا لهذه الكلمة — أقول إنى لا أدري إن كان « ستريتشى » قد قصد إلى شيء من هذا ، لكنه على كل حال هو ما نطالب به إذا أردنا أن تكون الكلمة ذات مدلول ومعنى .

* * *

وهنا ننتقل إلى الجانب الهام من موضوعنا ، وهو : ماذا عسى

أن تكون العناصر التي إذا ما اجتمعت في شخص ، استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

أول ما نذكره في الإجابة عن هذا السؤال هو أن هذه العناصر متغيرة مع تغير الزمن ، فكل عصر « مدنيته » التي قد تعد همجية في عصر آخر ؛ « فالتمدن » في العصور الوسطى الأوربية — مثلاً — هو المسيحي المتبتل المنقطع لصلاته وعبادته في الصومعة أو الدير ؛ فلما جاءت النهضة تغيرت عناصر « التمدن » وأصبح « التمدن » رجالاً آخر غير راهب العصور الوسطى .

وإنه لما يقال في هذه المناسبة ، أن « سير فيلث سدفى » (١٥٥٤ — ١٥٨٦) كان عند الإنجليز إبان نهضتهم نموذجاً للرجل التمدن بمقياس ذلك العصر ؛ فقد كان شاعراً وناقداً وعالماً وجندياً محارباً ورجلاً من رجال السياسة ؛ فكان يصور بهذه العناصر في شخصه ما كان يصبو إليه الناس من مثل أعلى في الرجل الواحد ؛ لأنهم لم يعودوا عندئذ يرون المدنية — كما كان يراها أسلافهم الأقربون — في المسيحي المتبتل الزاهد ، بل أصبح مثلهم المنشود فناناً ينتج الفن أو يقدره ، أو عالماً يدرس ظواهر الطبيعة ، أو مغامراً يركب الصعاب ، أو رجلاً يستمتع بلذات الحياة ؛ فإن اجتمعت هذه الصفات لرجل واحد ، فكان مشغولاً بالفن ، محباً للملم ، مقاتلاً بأسلاً ، مغامراً يعمد في ألوان الرياضة والصيد ، عاشقاً

توافرت فيه شروط الحب كما يعرفه عشاق زمنه ، كان ذلك الرجل صورة للمثل الأعلى ؛ وقد جاهد الأدباء في عصر النهضة أن يصوروا ذلك المثل الأعلى ، ورأى الناس أن هذه الصفات قد تجسدت وتجمعت في « سير فليب سدفى » فجعلوه نموذجاً يحتذى في عصره .

وإننا لنضل سواء السبيل ، إذا ما جاهدنا بدورنا في تصوير نموذج « للمتمدن » في عصرنا ، فالتمسنا في أبطال الماضي ؛ فهؤلاء الأبطال أبطال في عصورهم ، بمقاييس أهل زمانهم ؛ وإني لأجنى على الشباب الذين يعيشون اليوم جناية كبرى ، إذا رحلت أزخرف لهم حياة الزهد ، والعصر يريد المتعة بالدنيا والفرحة بالحياة ؛ وأجنى عليهم جناية كبرى إذا رحلت أزخرف لهم حياة التأمل النظرى ، والعصر يريد الصناعة والنشاط والعمل ؛ إننى يستحيل أن أجد للشباب نموذجاً من بين أبطال الماضي بكل عناصره ، فذلك يكون بمثابة أن ندعوهم إلى العيش في غير عصرهم ، والتمدن بغير مدنياتهم .

ونعود من جديد فنسأل : ماذا عسى أن تكون العناصر التى إذا اجتمعت فى شخص استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

سأحاول الجواب موجزاً فى غير إطناب وتفصيل ، ومعتزلاً منذ الآن أنه جواب أسوقه على سبيل « رأى » لا على سبيل الحصر والتوكيد ؛

إذ الموضوع أخطر وأعمق من أن يفصل في أمره بمقال يكتب في ساعة ليملاً بضع صفحات في كتاب .

وسأحاول الجواب على هذا النحو الموجز ، مهتدياً بالتقسيم الثلاثي الذي اشتهر في علم النفس التقليدي ، حتى أصبح عموداً من أعمدة هذا العلم ، لا يثور عليه الثأرون إلا ليؤكدوه ، وهو أن كل حالة من سلسلة الحالات الشعورية التي تتألف منها حياة الإنسان الواعية ، يمكن تحليلها إلى جوانب ثلاثة : إدراك ووجدان ونزوع ؛ فأنت في كل موقف من مواقف حياتك الشعورية الواعية ، تدرك شيئاً ما أو فكرة معينة ، ثم تحس إزاءها وجداناً معيناً . ثم تتصرف بناء على ذلك حسب تربيتك وتدريبك على الرد على المواقف المختلفة بألوان معينة من السلوك (وقد يكون الامتناع عن السلوك في موقف ما ، ضرباً من التصرف) .

ولا شك أنك قد رأيت كلمات « الحق والخير والجمال » متجاورة في كثير جداً من المواضع ، كلما أراد الكاتبون أن يعبروا بعبارة موجزة عن أحلام الإنسانية وأمانيتها ؛ فهذه الكلمات الثلاث تستطيع أن تجعلها تعبيراً آخر للجوانب الثلاثة نفسها التي ذكرناها : « فالحق » هو ما نشده في حالات الإدراك ، و « الجمال » هو ما نبتغيه في حالات الوجدان ، و « الخير » هو ما نقصد إليه في جانب السلوك .

١ — وأهم ما يميز الإدراك عند « المتمدن » في عصرنا هذا ، هو

التقيد بالواقع ، وإدراك الواقع كما هو يتطلب القضاء على الخرافة بكل ما يتصل بها من لواحق وأتباع ؛ وللتخريف مظهران أساسيان في طريقة تعليلنا للحوادث والظواهر ؛ الأول أن نعلل حدوث الأشياء المحسوسة بأشياء غير محسوسة ، والثاني أن نعلل شيئاً محسوساً بآخر محسوس ، لكنه لا يرتبط معه ارتباطاً يدل عليه طول الملاحظة ودقة التجربة ؛ فلو قلت مثلاً إن المرض في جسم المريض سببه شيطان حال في الجسم ، أو إن السماء ترعد وتبرق لأنها غاضبة ، فأنت مخرف من النوع الأول ؛ ولو قلت إن السفر يوم الأحد مشثوم ، ونعيق الغراب نذير بالموت ، فأنت مخرف من النوع الثاني — وفي كلتا الحالتين أنت خارج بإدراكك للأشياء على منهج « المتمدن » في هذا العصر الذي أبرز ما فيه هو العلم وما يؤدي إليه وما ينتج عنه .

حتى الآداب والفنون قد أصبح معيارها هو الواقع ، ولا أقصد بذلك أن الأديب أو الفنان يقف حيال الظاهرة المعينة موقف العالم الذي يحللها ويصفها بالمقاييس والأرقام ؛ بل أريد أن أقول إن الآداب والفنون في ميدانها — ميدان التعبير عن النفس وما يدور فيها من مشاعر — أصبحت تنزع بقوة نحو إثبات الواقع بغير حياء ولا خجل ، فما قد كان يستحي منه أسلافنا لا يتحتم أن يكون عندنا نحن كذلك موضع استحياء ؛ ومن ثم نرى اليوم أدباء لا يتورعون عن تصوير مجرى شعورهم كما هو ،

فيكون بين ذلك رغباتهم الجنسية وانحرافاتهم الإجرامية وما إلى ذلك ؛
ونرى اليوم مصورين لا يجلسون أمام الشيء يصورونه كما يبدو ، بل
يصورونه كما يختلط بأفكارهم في لحظة التصوير ؛ فإذا جلست مثلاً إلى
طائر تصوره ، وأثناء ذلك دق جرس شغل بؤرة شعورك ، وجب أن تدخل
هذه الصورة الطائرة على نحو ما ، لأنها جزء منك في اللحظة التي أردت
تصوير نفسك فيها ، ومن هنا كان كثير مما نعده « خلطاً » في التصوير
الحديث — وهكذا .

٢ — وأهم ما يميز الجانب الوجداني من « المتمدن » في عصرنا
الحديث ، هو التأثير بما ينتجه رجال الأدب والفن المحدثون ، فأنت متخلف
عن عصرك ومدنيته إذا لم تأخذ بنصيب — قليل أو كثير — في تقدير
ما ينتجه هؤلاء الرجال من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وتمثيل ورقص
وغناء ، مهما يكن عمالك وموضوع اختصاصك ؛ فقد تكون طيبياً
أو مهندساً أو رجلاً من رجال الأعمال ، لكنك لكي تكون إلى
جانب ذلك « متمدناً » فلا بد من إضافة عنصر آخر ، هو التمتع
بنتائج الفنون .

أقول إنه لا بد من أخذك بنصيب في تقدير هذه الأشياء كلها ، ولا أحتم
عليك أن تحب كل ما تراه منها أو تسمعه ؛ فلك أن تحب أو أن تكره ،
على شرط أن يكون حبك وكرهك قائمين على معيار هذا العصر نفسه ،

لأن الآداب والفنون كلها تعبير عن روح العصر ، ويستحيل أن تتشرب روح العصر وتتمرد في الوقت نفسه على كل آدابه وفنونه .

لقد رأيت أناساً هم في مكان القيادة من طليعة « المثقفين » عندنا ، لا يعرفون الألف والباء في أمهات الإنتاج الأدبي في العالم المتحضر الحديث ، ولم يشهدوا في حياتهم معرضاً للتصوير أو النحت ، وحتى لو شهدوا ذلك لما كان لهم فيه رأى ولا فهم ؛ فاذا ذكر — مثلاً — اسم « بيكاسو » في جماعة من « المثقفين » عندنا . وانظر كم يعلمون عنه وكيف يقولون القول فيه ؛ وأكرر القول بأننى لا أحتم على كل إنسان أن يحب فن « بيكاسو » — فكثيرون من الأوربيين لا يحبونه — لكنهم لكي يحبوه أو يكرهوه ، لا بد لهم أولاً أن يمسه ويعرفوه — ولا أقول شيئاً عن الغناء والرقص ، فلك عندنا فنون « حرام » ليس لأصحاب الوقار أن يأخذوا منها بنصيب كبير أو صغير !

٣ — وأهم ما يميز السلوك عند المتمدن الحديث هو مقدرته على ضبط زمام نفسه ، فليس من اليسير عليك أن تثير فيه الغضب الذي يطير بصوابه ، وهو لا يغلو في مظاهر الفرح ولا مظاهر الحزن ، فأنت « متمدن » بمقدار ما يتصرف « الإنسان العاقل » فيك لا ما يتصرف « الحيوان » منك ؛ والحيوان منك هو الغرائز تنطلق كما هي بغير ضبط ولا تعديل — وأعجب العجب أننا نفخر بسرعة انفعالنا وشدة هيجان شعورنا ، ونصف الأوربي

التمدن في هذه الناحية « بالبرود » لأنه لا يفعل ولا يهيج !

كذلك من أميز ما يميز سلوك التمدن الحديث — طريقته في ملء فراغه ، فهو متخلف عن عصره إذا قضى فراغه نائماً أو جالساً ، لأن الفراغ في المدينة الحديثة ألواناً من النشاط كثيرة معروفة ، ليس منها النوم والنعوم ؛ فهي لعب وارتحال وتغيير لجرى الحياة المألوفة على نحو ما ؛ بالقدر الذي تسمح به قدرة الناس المالية على تفاوتها ؛ ويستحيل أن يبلغ الفقر بإنسان حداً يمنع من المشى وطلوع الجبل !

إن في خاطري الآن اسماً أو اسمين لرجال أراهم بيننا أقرب الناس تمثيلاً للمدينة الحديثة في نزعتها العلمية وفي استمتاعها بألوان الفن ، وفي ضبط النفس عند السلوك وفي ألوان النشاط عند الفراغ من العمل ، لكنني أمسك عن ذكر الأسماء ، وأكتفي بوضع القواعد ، وللقارئ أن يطبقها على نفسه وعلى من حوله كيف شاء .

الحس المشترك

كثيراً ما تدل اللفظة من ألفاظ اللغة على طور من أطوار التاريخ الفكري ، اجتازه أصحاب تلك اللغة فيما مضى ، أو لا يزالون في مرحلة اجتيازه الآن إذا كانت اللفظة ما تزال قائمة بدلالاتها تلك ؛ فمثلاً لفظنا « رَحِمَ » و « رحمة » في اللغة العربية ، وما بينهما من تشابه ، تدلان على أن الرحمة في طور من أطوار التاريخ الفكري لأصحاب هذه اللغة ، كانت مقصورة على ذوى الرحم ، وذلك أيام أن كانت القوانين الأخلاقية ملزمة للفرد إزاء بنى أسرته أو قبيلته ، وغير ملزمة له بالنسبة إلى أفراد القبائل الأخرى ؛ ولفظنا « نفس » و « نَفَس » تدلان أيضاً بما بينهما من تشابه على طور من أطوار التاريخ الفكري لأصحاب هذه اللغة ، كانت العقيدة فيه سائدة بأن النفس في الكائن الحي إن هي إلا الأنفاس التي يدخلها أو يخرجها شهيقاً وزفيراً ، والعلاقة بنفسها قائمة بين لفظتي « روح » و « ريح » ؛ وهكذا تستطيع أن تستشف كثيراً من للذاهب الفكرية لأمة من الأمم من خلال دراستك لألفاظها على هذا النحو .

ومن هذا القبيل لفظة Sense في اللغة الإنجليزية ؛ فهذه اللفظة عند

أصحاب هذه اللغة حتى اليوم معنيان ، فهي قد تعنى « الحس » بإحدى الحواس (كالبصر والسمع واللمس) ، وهي قد تعنى كذلك « العقل » أو « المعنى العقلي » فتراهم يصفون لك الشخص ، أو العبارة ، بهذه الكلمة ومشتقاتها ، ليدلوا بذلك على أن الشخص ذو عقل حصيف أو خلو منه ، وأن العبارة ذات معنى يسيغه العقل أو خلو منه .

ولهذا الازدواج فى معنى كلمة Sense فى اللغة الإنجليزية دلالة قوية فى تاريخهم الفكرى ، لأن أبرز طابع يميز الفلسفة الإنجليزية منذ نشأت إلى يومنا الراهن ، هو اعتبارها الحواس مصدر المعرفة ، فليس « العقل » عند كثير من فلاسفتهم إلا ما قد أدركته « الحواس » أو ما تستطيع أن تدركه ؛ فالإنجليز فى تفكيرهم — حتى الفلسفى منه — أميل الشعوب إلى التزام الأمر الواقع الذى تبصره الأعين وتسمعه الآذان ، « فالحس » وحده وما قد يقع له من مدركات هو كل المعرفة التى يُعتمدُ بها ويُستند إليها ، وكل تفكير لا يجد له ركيزة بين المحسوسات ، فهو حلم أو كالحلم الذى لا ينعنى ولا يسمن .

لا يجب إذاً أن نرى المعنيين قد التقيا عندهم فى لفظة واحدة ومشتقاتها ؛ فإذا وصفوا العبارة أو الفكرة بأنها nonsense كان المراد أنها عبارة أو فكرة بغير مدلول ، أو إن شئت فقل إنها عبارة أو فكرة لا اعتماد فيها على ما تدركه الحواس ، لأن هذه الكلمة معنيين ؛ فهي

تعنى « لا معنى » وهى كذلك تعنى « لاجسّ » — أى ليس هنالك من المدركات الحسية ما يجعل للعبارة معنى .

ولهم فى هذا الباب عبارة ينفردون بها ، لأنها تدل على صفة تميزهم من سائر الشعوب ، وهى عبارة Common sense ، ومعناها الحرفى هو — فى رأى — أدق ترجمة لها ، وهو « الحس المشترك » أو قل « الفهم المشترك » مادام « الحس » و « الفهم » عندهم شيئاً واحداً ، لأن ما لا يُحسُّ لا يُفهم ، وما يُفهم لا بد أن يُحسُّ ؛ و « الحس المشترك » أو « الفهم المشترك » هو ما يشترك الناس — كلهم أو معظمهم — فى إدراكه على نحو معين ، لا يختلف باختلاف الأفراد .

وبديهى أنه كلما ازداد أفراد الشعب الواحد اتفاقاً فى ثقافتهم ، ازدادوا قريباً من الحس المشترك ؛ فهم يتفقون فى أحكامهم على الأشياء بمقدار اتفاقهم فى الثقافة واتحادهم فى وجهة النظر ؛ والظاهر أن الإنجليز فى هذا الاتحاد فى وجهة النظر إلى الأشياء والحكم عليها ، قد بلغوا مبلغاً قصرت من دونه سائر الشعوب ، ومن ثم كان تفرّدُهم بعبارة « Common sense » حتى لقد نقلتها بقية الشعوب عنهم إما بنصها أو بأقرب ترجمة لها .

* * *

وإذا حلت المواقف التى يستخدم فيها « الحس المشترك » للحكم على

سملوك الناس بالصواب أو بالخطأ ، وجدتها المواقف التي يهتدى فيها الإنسان إلى الحكم الصحيح دون أن يكون على وعى بالمقدمات المنطقية التي يستند إليها في حكمه ذلك ؛ فكأنما هو حكم صائب بالفطرة السليمة ، ولا يحتاج إلى سند من أدلة وشواهد — ترى الإنجليزى يحكم على هذا السلوك أو ذلك بأنه صواب ، أو بأنه خطأ ، فإذا سألته : كيف عرفت ذلك ؟ أجابك بقوله : « بالحس المشترك » ثم لا يزيد على ذلك شيئاً .

ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على العادات والتقاليد ، بل الحكم هنا للعادات والتقاليد نفسها ؛ فإذا لبست سيدة السواد لوفاة زوجها أو ابنها ، ثم سئلت : لماذا تفعل ذلك ؟ كان جوابها : « هي العادة الجارية ، أو هو التقليد السائد ، في إظهار الشعور بالحزن » ؛ وإذا فليس هذا مجال الحس المشترك .

كذلك ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على المسائل العلمية ؛ فالعالم الطبيعى — مثلاً — لا يحكم « بحسه المشترك » على الوزن النوعى فلذهب أو مقدار الضغط الجوى على جبال الهملايا ؛ والعالم الرياضى لا يحكم « بحسه المشترك » على مساحة الدائرة والجذر التربيعى للعدد ٣ — هذه المسائل العلمية يُرجع فيها إلى التجربة إن كان العلم من العلوم الطبيعية ، وإلى التحليل إن كان من العلوم الرياضية ؛ والحكم فى كلتا الحالتين مستند إلى مقدمات معروفة مذكورة ؛ حتى إذا ما سئل العالم الطبيعى : كيف عرفت

أن الضغط الجوي على جبال الهملايا هو كذا ، أظهر التجارب التي قام بها هو أو غيره من العلماء لإثبات ذلك ، وإذا ما سئل العالم الرياضي : كيف عرفت مساحة الدائرة ، بين الخطوات التي سار فيها تحليله حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من نتائج ؛ لكن حين يكون الحكم مستنداً إلى « الحس المشترك » فلا يكون صاحب الحكم على استعداد لإبراز مقدماته التي استند إليها ، وكل ما في وسعه أن يجيب به إذا ما سئل : كيف عرفت ذلك ؟ أن يقول : « بالحس المشترك » فمثلاً إذا سألت : لماذا ينبغي أن تخضع الأقلية لحكم الأثرية ؟ لم تجد لذلك جواباً عند علم من علوم الطبيعة أو الكيمياء ، وإنما حكاه عند « الحس المشترك » .

وذلك نفسه هو ما يجعل لأحكام « الحس المشترك » أهمية كبرى في حياة الناس الاجتماعية ؛ لأنه — لسوء الحظ — لم يبلغ الإنسان في فهم نفسه فهماً علمياً إلا شوطاً قصيراً ؛ ولذلك ترى أحكامه على أنواع سلوكه بالصواب أو بالخطأ كثيراً ما تعوزها الدقة العلمية ، فلا بد له من الركون إلى فطرته يحكم بها حكماً سريعاً نافذاً حتى تسير مجلة الحياة ؛ وإن عجلة الحياة لتزداد في سيرها سهولة ويسراً كلما ازداد الناس قدرة على أحكام « الحس المشترك » في شتى المواقف ، بحيث لا يحدث بين الأفراد من الاختلاف والتصادم إلا حده الأدنى .

* * *

وتستطيع بعد هذا التحليل أن تعلم لماذا تقع على معركة ناشبة بين الأفراد هنا في مصر كلما خطوت خطوة ، مع أنك قد تعيش الأعوام في بلد كأنجلترا ولا تصادفك معركة واحدة ؟ تركب الترام هنا فيندر جداً ألا تسمع اشتجاراً بين الكسارى وراكب أو أكثر من راكب واحد ؛ وتسير في الطريق العام فيندر جداً ألا تشهد اختلافاً في الرأي بين الشرطى والباعة ، أو بين بائع وشار ؛ بل تدخل البيوت فيندر جداً ألا ترى ما يهولك من اتساع هوة الخلاف بين الزوج وزوجته ، وبين الوالد وأبنائه أو بين المخدم وخادمه . . . الخلاف بين أفراد الشعب هنا يستوقف النظر بحدته وشدته واتساع نطاقه : هو بين الرئيس ومرءوسيه ، وبين صاحب الأرض أو العقار ومستأجريه ، وبين العمدة وأهل القرية ، وبين رب الأسرة وأفرادها ، وبين المدرس وتلاميذه ، وفي كل مجال يتصل فيه الأفراد بعضهم ببعض في شأن من شئون الاجتماع .

أقول إنك تستطيع في ضوء التحليل الذى قدمناه « للحس المشترك » أن تجيب لنفسك عن سؤالك : لماذا يقع كل هذا الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد ؟ فالجواب الصحيح هنا هو : لأنهم أفراد بغير حس مشترك ! إنهم لا يحكمون على الموقف الواحد حكماً واحداً ؛ فقد شهدت — مثلاً — بالأمس جندياً من جنود الجيش يركب سيارة عامة أجر الركوب فيها ثلاثة قروش ، ولما كان للجندى حق الركوب بنصف أجر ،

فقد كان عليه أن يدفع قرشاً ونصف قرش ، لكنه أبى إلا أن يدفع ما يدفعه في السيارات الأخرى ، وكان خلاف ، وكان وقوف للسيارة ، وكان غضب أخذ نطاقه يتسع حتى شمل الراكبين جميعاً ؛ وما أظن أن موقفاً كهذا يجوز أن يقع في بلد بين أبنائه « حس مشترك » أو « فهم مشترك » للأمور . . العلة كلها هي أننا نحكم بأحكام مختلفة على الموقف الواحد ، ومن ثم يقع بيننا ما يقع من ألوان التنافر التي أشرت إليها ، التنافر في البيت والطريق العام والديوان وعربات الترام والمتاجر وغيرها .

ليست الروابط بين الأفراد واستقرارها أمراً تافهاً يسيراً ، لأنها هي عصب الحياة ؛ إنك تعيش — راضياً أو كارهاً — على صلوات بغيرك ، تعيش متصلاً بأبنائك وإخوتك وجيرانك ، وتعيش متصلاً برئيسك أو مرءوسك ، وبالتاجر الذي تعامله وبالشرطي في الطريق وهكذا ؛ فإن كان لك في كل صلة من صلواتك تلك سبب للشقاء فانظر كيف تكون حياتك في مجموعها ! وإنك لتعجب أن يكون بيننا هذا الاختلاف كله وهذا الشقاء كله ، ولا يكاد يقوم منا باحث واحد يبحث « العلاقات الإنسانية » بحثاً علمياً ، في الوقت الذي تسير فيه الصلوات الاجتماعية في بلد كأنجلترا على درجة من التفاهم يحسد الأنجليز عليها بغير شك ، ومع ذلك لا يزال يقوم من مؤلفيهم من يتناول « الروابط بين الناس » بالبحث المفصل ؛ وإني لأذكر في هذا الصدد كتابين يحضرائني الآن ، ولا بد أن

يكون هناك سواها مما لم أقع عليه : أحدهما كتاب بعنوان « العلاقات بين الناس » لكاتبهم « لاندو » والآخر كتاب لكاتب أمريكي هو « ستيوارت تشيس » وعنوانه « علم الروابط بين الناس »

وقد يسأل سائل : ولماذا انعدم « الحس المشترك » بيننا ؟ وأجيب جواباً سريعاً بأن ذلك يرجع أول ما يرجع إلى التباين الثقافي الواسع المدى ، الذي تراه منعكساً في تباين الأزياء وتباين المساكن والمآكل والمشارب ؛ إنك تسير في البلد الأوربي فيستوقف نظرك التشابه في المساكن حتى لكأن كل إنسان يسكن بيتاً لا يكاد يختلف في باب أو نافذة عن بيت زميله ، وحتى لتظن ألا موضع بينهم لاختلاف الفقر والغنى ؛ وتأكل في بيت الأسرة المتواضعة وفي بيت الأسرة الغنية فيدهشك التشابه الشديد بين ألوان الطعام هنا وهناك وطريقة الأكل ، حتى لتظن أن القوم كلهم من طبقة واحدة ، تخرجوا كلهم في معهد واحد .

أما نحن

الفكرة الواضحة

« ستيوارت تشيس » كاتب معاصر ومصالح وفيلسوف ، يروي لنا عن نفسه قصة تستوقف النظر ، لها دلالة بعيدة المدى ، خلاصتها أنه قد بدأ حياته العاملة مصححاً اجتماعياً متحمساً ، لكنه ما لبث أن وجد وسائل الإصلاح « بالكلام » لا تجدى فتيلاً ، فأخذه العجب : لماذا لا يتأثر الناس بما يقوله وما يكتبه ، مع أنه واضح صادق ؟ وسرعان ما وجد لنفسه الجواب ، وهو أن الأفكار التي يظنها هو ، ويظنها معه الناس واضحة ، ليست كذلك ؛ فلا بد له — إن أراد إصلاحاً حقيقياً — أن يبدأ بأبحاث تحليلية يوضح بها الألفاظ التي يكثر دورانها على الألسن ، حينما يتحدث الناس عن إصلاح حالهم ؛ فاسمع إليه يقول : « لما كنت في سن الشباب أحاول الإصلاح ، أخذت أنظم الاجتماعات ، وأكتب النشرات ، وألقى المحاضرات ، وأرسم الخطط ، وأنشر الدعاية على نطاق واسع في حماسة حارة ؛ لكن رجائي قد خاب ، حين نظرت فوجدت أن الناس ما زالوا على حالهم ، لم يتحولوا قيد أنملة عما كانوا عليه حين بدأت حملتي ؛ وكما مضت بي الأعوام ، ازددت يقيناً ، بأنني فيما كنت أبذل فيه جهدي ، إنما كنت أضيع وقتي سدى ؛ فرسالتى — التي لا أزال أعتقد أنها رسالة

رحمة وإنسانية — لم تبلغ القلوب ، إذ الطريق بينى وبين من أخطبهم
مغلق مسدود .

وصادف هذا الذى قرأته عن « ستيوارت تشيس » هوى فى نفسى ،
لأنتى فى أعوامى الأخيرة ، قد تنبعت فى شدة وحماسة ، إلى أن غموض
الأفكار عند الناس هو أسُّ البلاء ؛ فالرءوس ملأى بالأشباح بسبب
ما فيها من أفكار غامضة ، والتعصب لهذه العقيدة أو تلك قد أنزل
بالناس الكوارث ، بسبب أفكارنا الغامضة ؛ وحدة الغضب التى
تأخذنا عند اختلافنا فى رأى ، سبب الأفكار الغامضة ؛ ومجهودات
المصلحين تذهب صيحة فى واد بسبب الأفكار الغامضة ؛ ولو وضحت
الأفكار ، لاخفت الأشباح من الرءوس « المسكونة » ، وزال التعصب
للرأى والعقيدة تعصباً أعمى ، وخفت الغضب وهذا الانفعال حين يختلف
الناس فى وجهة النظر ، ووجدت أقوال المصلحين أرضاً خصبة صالحة
للنماء والإثمار .

فما هى الفكرة الواضحة ؟

أول ما أسارع إلى إثباته فى الإجابة عن هذا السؤال ، هو أننا كثيراً
ما نتخذع بالإلف والعادة ، فنألف كلمة معينة ونعتاد قولها وسماعها ، حتى
ليخيل إلينا أنها فكرة واضحة ، مع أنها قد لا تكون من الواضوح
فى شيء ، ولا تزيد على كونها « صوتاً » مألوفاً لأسماعنا ؛ وإنى لأحسب

أن ديكارت نفسه — وهو على رأس من نادوا في التاريخ الحديث بالتزام التفكير الواضح — قد أخطأ هذا الخطأ الذي أشرت إليه ، وهو أن يظن الكلمة المألوفة لفكرة واضحة ؛ بدليل أنه قد جعل عبارته المشهورة « أنا أفكر » مقياساً للفكرة الواضحة ؛ فقد حسب — أولاً — أنها عبارة واضحة بذاتها ، وأنها — ثانياً — يصح أن تتخذ مقياساً لما ينبغي أن يكون عليه الوضوح في غيرها من العبارات ؛ أي أن الفكرة التي تبلغ عنده من درجة الوضوح ما بلغت هذه الفكرة ، تؤخذ على أنها هي الأخرى واضحة .

مع أن عبارته هذه تحتوى على كلمتين : كلمة « أنا » وكلمة « أفكر » هما أبعد ما تكون الكلمات عن الوضوح ؛ ومن ذا الذي يستطيع حتى اليوم أن يقول إنه قطع برأى يقيني جازم في حدود الشخصية الإنسانية وعناصرها التي نجعلها جميعاً تحت كلمة « أنا » ، أو يقول إن « التفكير » قد عرف معناه على وجه التحديد الذي لا إبهام فيه ولا غموض ؟ — كلا ، إنما خُدع ديكارت بالإلف والعادة ؛ فما دامت كلمة « أنا » مألوفة ، وما دامت كلمة « تفكير » معهودة مكرورة ، فهما — في ظنه — واضحتان ، والعبارة التي تتألف منهما واضحة لا تحتاج إلى مزيد من بيان .

ولدى من التعليق على معنى الوضوح عند ديكارت كلام طويل عريض ، لا أجد هنا مكاناً لذكره ، لأننى لا أحب أن أدخل القارىء في مناقشة

فلسفية قد لا يكون به ميل إليها ، وكل ما أردته هو التحذير من هذا الخطأ الذي سرعان ما يزلُّ فيه الإنسان ، حين يظن أن الفكرة واضحة ، ما دامت الكلمة المعبرة عنها مألوفة للأسماع .

إذا فتى تكون الفكرة واضحة ؟

الفكرة الواضحة هي التي يمكن تحويلها إلى عمل ، فكل فكرة لا تدلك بذاتها على ما يمكن عمله ، بحيث يكون هذا العمل هو معناها الذي لا معنى لها سواء ، تكون « صوتاً » فارغاً ، مهما قالت لنا القواميس عنها ؛ الفكرة الواضحة هي ما يمكن ترجمته إلى سلوك ، وما لا يمكن ترجمته على هذا النحو لا ينبغي أن نقول عنه إنه فكرة غامضة وكفى ، بل ليس هو بالفكرة على الإطلاق ؛ وليس هنالك في الدنيا شيء اسمه « فكرة نظرية » لا شأن لها بالعمل والتطبيق ، إذ الفكرة النظرية هي الخطة التي يمكن تنفيذها ، وما لا سبيل إلى تنفيذه عملاً وسلوكاً ، ليس من الفكر في شيء ؛ ولذلك لا فرق بين الفكر النظري والفكر العملي إلا في الترتيب الزمني ، فما هو الآن فكرة عملية كان منذ حين فكرة نظرية ؛ وما هو اليوم فكرة نظرية يمكن أن يصبح غداً فكرة عملية . . « النظر » من جهة و « العمل » من جهة أخرى ، طرفان لشيء واحد — هو الفكرة — ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء ، فنحن نقول عنها اصطلاحاً إنها « فكرة » حين نشير إلى طرفها

الداخلي ، ونقول عنها إنها « عمل » حين نشير إلى طرفها الخارجى .

وفىما يلي أمثلة توضح ما نريد :

« الصلابة » فى الجسم فكرة واضحة إذا كنت أعرف ماذا أعمل فى الجسم لأتبين فيه ما أسميه بالصلابة ؛ كأن أحاول خدشه بأجسام أخرى كثيرة ، فلا ينخدش ، فأقول عندئذ إنه « صلب » وأعد نفسي قد فهمت فكرة « الصلابة » فهما « واضحاً » لأنى عرفت ما نوع السلوك الذى أسلكه حين أريد ترجمة الفكرة إلى عمل ؛ أما إذا وصفت شيئاً بأنه « جميل » فليست أعرف ماذا أعمل بحيث يكون عملى هذا هو ما أسميه فى الشئ بالجمال ؛ وإذا فالفكرة ضامضة ، أو قل إن « الجمال » ليس فكرة على الإطلاق ؛ وكل مناقشة فى جمال الشئ أو عدم جماله عبث لا يودى إلى طائل ؛ فإذا رأيت الفلاسفة على خلاف لا ينقضى فى تحديد معنى « الجمال » ، فاعلم أن ذلك لا يرجع إلى « صعوبة » فى الفكرة ، بل يرجع إلى أن أصحابنا يحاولون أن يقبضوا الريح ، إذ هم يناقشون فى غير موضوع .

و « الثقل » فى جسم من الأجسام فكرة واضحة ، لأنى أعرف ماذا أعمل فى الجسم لأتبين فيه ما أسميه ثقلاً ، وهو أن أزيل الحوائل التى تمنع سقوطه على الأرض ، فإن سقط كان « ثقيلاً » ، وكانت فكرة

« الثقل » واضحة لأنها قد انتقلت إلى عمل منظور ؛ أما إذا قلت عن شيء ما إن له حقيقة وراء ظواهره المحسوسة ، كأن أقول مثلاً إن الكهرباء شيء كامن وراء آثارها الظاهرة ، كان قولى هذا هراء ، بمعنى أنه ليس « فكراً » على الإطلاق ، دع عنك أن يكون فكراً واضحاً ، ذلك لأنى لا أعرف ماذا أعمل بحيث أتبين فى الشيء حقيقته الخفية المزعومة .

الفكرة الواضحة مشروع لعمل يمكن أدائه إذا شئنا ، ولا شيء غير ذلك ؛ حتى الأفكار الرياضية مشروعات لأعمال يمكن أدائها : لقد طلبت إلى خادمى يوماً أن تشتري لىنا بثلاثة قروش ونصف قرش ، وأعطيتها لذلك ورقة ذات عشرة قروش ؛ فلما أردت حسابها ، قلت لها : لقد اشتريت اللين بثلاثة قروش ونصف قرش ، وكنتُ مديناً لك بقرشين ، فهأتى أربعة قروش ونصف قرش ؛ فبدأ عليها الاضطراب ؛ فقلت : ضعى هاهنا ماتبقى لديك من القروش العشرة ؛ فوضعتُ على المنضدة ستة قروش ونصف قرش ؛ قلت لها خذى منها قرشين كنتُ مديناً لك بهما ، ففعلت وانتهى الإشكال . . كانت العملية الحسابية غامضة فى ذهنها أول الأمر ، لأنها لم تكن بعد قد تحددت على صورة سلوكية يمكن إجراؤها عملاً ، وكانت العملية « واضحة » فى ذهنى لأنى كنتُ أعرف كيف أترجمها إلى عمل .

ولئن كان بين الناس خلاف شديد فى المذاهب السياسية والاجتماعية ،

فما ذاك إلا لأن الألفاظ الشائعة في هذا المجال لم تتبلور أفكاراً واضحة بعد ، أعني أن الأفكار المتداولة لا يُعرف لها طريقة معينة محددة للتنفيذ ؛ إننا نفهم كلمة « جمهورية » فهماً واضحاً إذا عرفنا ماذا نصنع في المجتمع بحيث يجرى ما نصنعه شيئاً هو الذى نسميه بهذا الاسم ؛ لكن ألفاظاً مثل « ديمقراطية » و « حرية » و « شيوعية » و « اشتراكية » تعبر عن أفكار غامضة ، ومن هنا كان الخلاف ، بل كان القتال ؛ لأن الديمقراطية — مثلاً — لا تكون فكرة واضحة إلا إذا عرفنا ماذا نعمل ، وعلى أى وضع نقيم الناس والحكومة ، وبأى صورة تجرى الصناعة والزراعة والتجارة ، حين يكون هنالك ما نسميه بالديمقراطية ؛ — وما دامت الفكرة غير محددة فى طريقة تنفيذها ، فليست هى بالفكرة الواضحة ؛ وقل ذلك فى سائر أخواتها .

لكن قائلاً قد يقول : إنك قد اخترت لأمثلك أفكاراً بسيطة مما يمكن أن يحقق رأيك فى الوضوح ، لكن هناك أفكاراً « عميقة » يستحيل أن ينطبق عليها هذا المقياس . والحق أنى ما كتبت هذا المقال إلا لأحمو كثيراً جداً من هذه الأفكار « العميقة » محوياً . أيها القارىء الكريم : لا يخذعك هؤلاء « المتعمقون » لأنهم لا يفهمون لما يقولونه معنى ، ثم يجاوزون بشرتهم حدود أنفسهم فيدفعونك فى خلط يفسد عليك حياتك الفكرية والعملية على السواء . إنهم يريدونك أن تكتفى من

دنياك بالكلام ، ولقد شعبنا كلاما حتى التخمة ، ونريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

فمثلاً يقول لنا هؤلاء « المتعمقون » في تفكيرهم : كونوا يا أهل الشرق « روحانيين » . وتسألهم عن معنى « الروحانية » التي يقصدون فلا تدري بماذا يجيبون ؛ فإننى — كما قلت يوماً في كلمة ألقيتها — « لا أرى بين ضلالتنا ضلالة أشد تضليلاً من هذا الذى يكثر ترديده على السنة المتكاملين وأقلام الكاتبين — وهو أننا شعوب روحانية بالقياس إلى الغرب المادى ؛ يقولون لنا ذلك وكأنما يريدوننا أن نفكر ونعمل ونزوى أبناءنا على هذا الأساس . ولست أتمنى شيئاً بمقدار ما أتمنى أن يتفضل على قاضل من هؤلاء فيوضح لى ماذا يريدوننا أن نفعل وكيف يريدوننا أن نفكر ، لأنى حاولت جهدى أن أرى كيف تأكل الشعوب الروحانية وكيف تشرب ، كيف ترصف الطرق وتبنى الجسور ، كيف تقاوم أمراضها وتجري صناعتها وتجاريتها ، كيف تحارب أعداءها ، بل كيف تلهو فى ساعات الفراغ ، حاولت جهدى أن أفهم كيف تتم هذه الأشياء عند الشعوب الروحانية كى تجيء مخالفة لما يصنعه الماديون فى الغرب ، فلم أفهم » — فإذا كانت الفكرة « الروحانية » كما ترى ، يستحيل ترجمتها إلى سلوك ، إذاً فليست هى بالفكرة على الإطلاق ، بل هى لفظة فارغة يجب حذفها حتى لا تفسد علينا الحياة . إننا فى صراع مع ما يسمونه غرباً ولن نظفر من

صراعنا بنصر إذا كانت عدتنا كلاما لا يتحول إلى عمل .

وأحسب أن القارىء الذى اعترضنى منذ حين ، سيعود إلى اعتراضى قائلاً : لكنها تُعدُّ بالملئات ، تلك الألفاظ التى نقولها دون أن يكون فى مضمون معناها عمل ممكن الحدوث ؛ ومنها ألقاظ عزيزة جداً على نفوسنا ، نجبها ونردددها فى الصباح وفى المساء . . . فأجيبه مطمئناً واثقاً : إنها لغولن تتقدم به الإنسانية قتراً ولا شبراً ؛ إننا نعيش ونحيا بالأفكار القليلة الواضحة ، أى أننا نعيش ونحيا بالأفكار التى يمكن أن تتحول عملاً وسلوكاً ، فأما تلك التى لا تغير من دنيانا شيئاً فشر يجب أن نتقيه .

إننا نريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

جناية الألفاظ

أرأيت بوارج البحر ودبابات الأرض ومقاتلات السماء التي تنفث
اللهب؟ أرأيت هذه المدمرات كلها بما فيها من قوة الفتك والتخريب؟
إذا فاعلم يا سيدى أنها جميعاً لا تكون شيئاً مذكوراً إذا قيست في ذلك
إلى كلمة واهنة ضعيفة من هاتيك الكلمات التي تخرجها أفواهنا في موجة
صوتية قصيرة ضئيلة، أو نجريها على الورق بقطرة من مداد، لو تجمعت
على سن القلم لأوشكت عين الرأى ألا ترى شيئاً.

من هذه الموجة الصوتية القصيرة الضئيلة، أو هذه القطرة المبحهية
من مداد قد تنطلق شياطين البوارج والدبابات والمقاتلات وغيرها من
وسائل التقتيل والتدمير؛ فمنها قد تفور الدماء في العروق ويطير عن الرؤوس
صوابها فإذا الجماعات البشرية قطعان من كائنات تدفعها الغريزة كما يندفع
سيل الماء من أعلى الجبل مدفوعاً بقوة الجذب دون أن يكون له في مسلكه
اختيار — ألا إن هذه الألفاظ التي نكتبها أو نتلق بها، لقمقم حبست
في أحشائها الأبالسة والشياطين.

وقصة الألفاظ في هذا الصدد مأساة محزنة حقاً، فهذه الألفاظ قد
خلقها الإنسان خلقاً. وحسب أن قيادها بين يديه ورهينة لسانه، فإذا

بالألفاظ على مر الزمن يتطور أمرها وتصبح كالمردة الجبابة ، تمسك بزمام
الإنسان راكبة فوق ظهره ، فتتحرف به يمناً أو يسرة كما يشاء لها عماها
الذى لا يبصر سواء الطريق ! .

وكنت أود أن أسير مع القارىء في فصول هذه المأساة المحزنة سطرأ
بعد سطر ، ليرى هول الجناية التى تقتربها فى حق الإنسان تلك المخلوقات
التي ظاهرها وهَنُّ وضعف وباطنها طغيان وجبروت ؛ لكن هذه المأساة
البشرية الكبرى أعقد جداً وأطول جداً مما يستطيع الكاتب أو القارىء
أن يقطع شوطه فى مقالة واحدة أو يضع مقالات ؛ فلأمندوحة لنا — إذا —
عن القناعة بالخطوط الرئيسية نرسمها أمام أبصارنا ، لعلنا مستطيعون أن
نرسم الصورة كلها بلمحات الخيال .

وأول ما نذكره فى هذا السبيل ؛ أن الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغة
التي نستخدمها للتفاهم ، هى فى الحقيقة رموز بغير مدلول ولا معنى ! ! وإذا
كان الأمر كذلك ، فتستطيع أن تتصور كل كلمة (تقريباً) مما ينطق به
الناس علامةً نصبت فى عرض الصحراء وكتبت عليها إشارة تدل على ماء
قريب ، والحقيقة أن ليس هنالك فى القريب أو فى البعيد إلا سراب ! ! .
ولنضرب لك مثلاً لما نريده كلمة « إنسان » ؛ إن العالم فيه أفراد ،
ولكل فرد اسمه الخاص ، فهذا زيد وذلك عمرو أو خالد ؛ فإذا ناديت
قائلاً : « تعال يا زيد » جاءك رجل بعينه ، وكذلك إذا ناديت يا عمرو

أو ياخالد ؛ ولما كنت مضطراً في كثير جداً من الأحيان أن أتحدث عن هؤلاء الأفراد جميعاً دفعة واحدة ، ولما كان ذكر أسمائهم جميعاً يتطلب من الوقت والجهد ما لا طاقة لي به ، فقد اخترعت كلمة « إنسان » اختراعاً ، لكي تدل على هؤلاء الأفراد جميعاً دون أن تكون هي نفسها اسماً لفرد منهم ؛ فإذا ناديت : تعال يا إنسان ! ما جاءك أحد لأنه ليس هنالك مسمى لهذا الاسم المخترع .

فأول فصول المأساة إذاً ، هو أن كل لفظة نستخدمها في كلامنا (ما عدا الألفاظ التي سمينا بها أفراداً جزئية معروفة) هي رمز ابتكرناه لسهولة التفاهم وسرعته ، لكنه رمز لا يدل على شيء ، أعني أنه رمز لا يشير إلى شيء قط في عالم الأشياء — ليس الاسم أو الكلمة هو الشيء المسمى ، احفظ هذا المبدأ جيداً وانظر بعد ذلك إلى المصائب الكبرى التي تنزل على رهوس الناس من جراء نسيانهم لهذا المبدأ الواضح البين .

فإذا أردت فهماً للأمور من خلال ما يقال لك من عبارات وألفاظ ، فلا سبيل إلى ذلك إلا أن تدرب نفسك على النظر من خلال الألفاظ إلى الأفراد والأشياء الجزئية التي وراءها ؛ فإذا قلت لك مثلاً : الشعب المصري جاهل ، فقير ، مريض ، فقد يخيل إليك للوهلة السريعة الأولى أنك فهمت المراد ، لكنك في أغلب ظني لم تفهم شيئاً ، واعدرتني في هذا الاتهام ،

لأننى أحكم بما قد جرى عليه الناس من طريقة الفهم لما يكتب أو يقال .
فليس « الشعب المصرى » إلا علامة سوداء أمامك على الورق ،
فإذا وقفت عند هذا الحد من الرؤية ، فأنت لم تفهم شيئاً على سبيل اليقين ؛
لكنك تأخذ فى الفهم حين تقف أمام هذه العلامة السوداء لتتخذها
منظاراً لا أكثر ولا أقل ، هى منظر ترى خلاله عشرين مليوناً من
الأنفس رجالاً ونساء وأطفالاً ؛ حاول أن توقف هؤلاء العشرين مليوناً
أمام مخيلتك صفّاً طويلاً يمتد — مثلاً — من منبع النيل إلى مصبه ، ثم
حاول أن تنقل بصرك فى هذا الصف الطويل من هذا الرجل (زيد)
إلى هذه المرأة (هند) إلى ذلك الغلام (خالد) — هؤلاء جميعاً يا سيدى
ناس ، لكل منهم مشاعر وخواطر من قبيل مشاعرك وخواطرك ؛ وإذا
عض الجوعُ واحداً منهم فهناك فرد يتألم ، وإذا خاب رجاء واحد منهم ،
فهناك فرد يتحسر ويحزن ؛ ليس (الشعب المصرى) بذى دلالة إلا إذا
أدركت إدراكاً واضحاً أن الكلمة فى ذاتها ليس لها معنى ، وإنما المعنى
المراد هو الحزمة الضخمة من الأفراد الأحياء الذين أسمينا كل فرد منهم
باسمه الخاص ؛ وبإلينا نستطيع — كلما أردنا أن نتحدث عن الشعب
المصرى — أن نكتب قائمة طويلة بالأسماء كلها ، فذلك أقرب إلى الفهم
الصحيح لما نريد .

فإذا قلت بعد ذلك عن هذا الصف الطويل من أفراد البشر ، إنه

(جاهل) فقد تحسب مرة أخرى أنك قد فهمت المراد ، لكنك هنا أيضاً في أغلب الظن قد اكتفيت بالنظر إلى علامة سوداء خطت أمامك على الورق ؛ ولكي تفهم المعنى المراد على حقيقته ، انظر خلال هذا المنظار إلى أمثلة الجهل القائمة فعلاً ؛ عدّ إلى الصف الطويل من أبناء آدم الذي بلغ عشرين مليوناً ، عد إلى ذلك الصف الطويل وانظر إلى الأفراد واحداً بعد واحد ، فستجد لكل فرد مواقف وأقوالاً ، وستعلم أن كثيراً جداً من تلك المواقف ، وهذه الأقوال ، لا يصور دنيا الواقع في شيء ، وعندئذ فقط سيتبين لك كم نسبة الجهل في الفرد الواحد ، وكم نسبته في المجموعة كلها ، وما أنواعه البشعة الفظيعة ؛ سيتبين لك يا سيدي أن معظم (المتعلمين) جهلاء ؛ لأنهم في سلوكهم وفي أقوالهم وفي عقائدهم يسرون في وادٍ والدنيا بأسرها تسير في وادٍ آخر ؛ سيتبين لك يا سيدي كم من أفراد هذا الصف البشري يعيش في أوهامه ؛ وعندئذ فقط ستعلم في شيء من الواضوح قولك عن (الشعب المصري) إنه (جاهل) .

وهكذا قل في طريقة فهمك لكلمة (فقير) وفي كلمة (مريض) — نشدتك الله ألا تكتفي بالنظر إلى هاتين اللفظتين الصغيرتين في حيزهما الضئيل على الورق ، ثم توهم نفسك أنك قد فهمت المراد ؟ لا يا سيدي ، اخرج إلى الطريق وسافر إلى الريف وانظر إلى (الفقراء) فقيراً فقيراً ، فكلمة (فقير) لا معنى لها بعيداً عن هؤلاء (الأفراد الفقراء) الذين يطلق على كل منهم اسم خاص به ؛ فهذا (زيد) وذلك (إبراهيم) وتلك

« فاطمة » ؛ ثم اخرج إلى الطريق وسافر إلى الريف ، أستغفر الله ، إنما أردت أن أقول تسلل إلى الجحور البشرية التي تملأ الأرض عن يمينك وشمالك ، لكي ترى « المرضى » مريضاً مريضاً ، فليس لكلمة « المرض » معنى إذا لم يكن معناها هؤلاء الأفراد المرضى الذين يطلق على كل منهم اسم خاص به في شهادة ميلاده !!

أرأيت إذاً كم تستغرق من الزمن وكم تنفق من الجهود لتفهم عبارة واحدة قصيرة ، مثل « الشعب المصرى جاهل فقير مريض » ؟ .

لكنها جناية الألفاظ علينا هي التي تخيل إلينا أننا بالنظر إلى الكلمة مكتوبة أو مسموعة ، قد فهمناها !! وأصل الجريمة هو كما أسلفت لك ، الظن بأن الكلمة هي نفسها الشيء المسمى ، لكن احفظ جيداً هذا المبدأ الواضح البين ، وهو : ليس الاسم هو المسمى ، ليست اللفظة هي الشيء . . . الأسماء والألفاظ مناظير ينبغي أن ننظر خلالها إلى الأفراد الذين تتحسس بأيدينا فنلمسهم ، وننظر بأبصارنا فنراهم . . .

* * *

وذلك فصل واحد من فصول المأساة ، وأما فصلها الثانى فهو تلك الكلمات المجرمة التي تثير مشاعرنا فنأتى الكباثر ، مع أنها في ذاتها ليست بذات معنى ! انظر إلى هذه الأمثلة من الكلمات المجرمات :

إنسانية ، دولة ، ديمقراطية ، حرية ، أمة ، دستور ، مدنية ،
إلى آخر أفراد « العصابة » إن كان لهذه العصابة الأئمة من آخر .

فما كان أهون على رجل واحد أن يقوم فينادى بألوف الألوف من
فتى الشباب ليقذف بهم في جهنم الحرب إرضاء لشهواته هو ، لأنه يريد
أن يقود ويسيطر ؛ ما كان أهون على ذلك الرجل أن يقذف بألوف
الألوف من الشباب الفتى القوى باسم « الدولة » - مثلاً - أو باسم
« الديمقراطية » أو بما شئت من هذه الطلائع السحرية . . .

وها هنا نريد لك أيها القارئ أن تحفظ مبدأ آخر حفظاً جيداً ،
وهو أن مدلول الكلمة هو الأشياء الجزئية المحسوسة التي تشير إليها ؛ فإذا
قيل لنا « الدولة » وأردنا أن نفهم فيجب أن نسأل بدورنا : أين هي ؟
لا بد أن أضع يدي عليها لألمسها ، وأن أفتح عيني وأميل بأذني لأراها
وأسمعها ، وعندئذ ستري أن الدولة مجموعة من أفراد ؛ وليس في ذلك
بأس ، لكن البأس كل البأس في أن نتوهم أنها كائن إلهي غيبي لا حق
لنا في نقده ومناقشته الحساب .

وقد يقول القائلون : لكن هنالك من الألفاظ ما لا سبيل إلى
الرجوع به إلى أشياء تلمس بالأيدى وترى بالأعين وتسمع بالأذان ، وإلا
فماذا تريد أن تلمس في معرفتك لمعنى كلمة « الديمقراطية » مثلاً ؟

والجواب على ذلك هو أننا بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أنه من الممكن أن نعثر في عالم الأشياء الواقعة المحسوسة المرئية على ما نسميه بهذا الاسم وأمثاله ، ولو بعد جهد وحصر انتباه ودراسة ، فيكون لهذا الاسم وأمثاله معنى ، وإما أن يكون ذلك مستحيلاً فلا تكون الكلمة عندئذ ذات معنى على الإطلاق ، وتكون جريمة كبرى أن نستخدمها في إثارة المشاعر ، وما تستتبعه من تقتيل وتخريب وفتك ودمار .

حرام عليكم أيها الناس أن تحرصوا على « ألفاظ » حتى إن كان الثمن ألوف الألوف من الشباب الفتى الحالم الآمل ؛ فهاتيك الألفاظ موجات صوتية ضئيلة ، أو هي قطرات من مداد سكبناها على الورق في صورة معينة ، أما هؤلاء الشباب فأفراد أحياء في أجوافهم قلوب وورثات ودماء وأعصاب ! .

* * *

لا عجب والله إن كانت للألفاظ قوة السحر عند الشعوب البدائية الأولى ؛ فهذه اللفظة تشفى من الحمى ، وتلك اللفظة تهزم العدو في القتال ، إلى آخر ما كان سائداً بين تلك الشعوب من أحلام وأوهام .

اعلم أفادك الله أن اللفظة من ألفاظ اللغة إذا لم تدلك على مسمى تراه بعينيك فهي لفظة فارغة ، هي موجة صوتية كأي اهتزاز آخر يهتز

به الهواء ، أو هي نبش على الورق كأي نبش يحدثه الطفل اللاهي ؛
فاسأل — إذا أردت الفهم والتفاهم — عن الشيء أو الأشياء التي يراد
للفظة المستعملة في الحديث أن تشير إليها ؛ فإذا وجدتها فاخلطها بينك
وبين خصمك لن يطول ، وإلا فسيظل الخلاف في الرأي قائماً إلى
يوم الدين .

فما أكثر ما يطول النقاش بين فريقين حول كلمة ، كالحرية مثلاً
أو كالديمقراطية أو الدولة أو الأمة ، وتكون علة الخلاف بينهما هي أن
كلاهما يقصد بالكلمة إلى معنى غير المعنى الذي يقصد بها إليه زميله ؛
فإذا جعلنا دستورنا في الفهم والتفاهم هو تحديد المسميات أولاً — المسميات
التي نراها بالأعين ونحسها بالأيدي ، انحصر مجال الخلاف وقصر أمده
كما هي الحال بين رجال العلوم مثلاً .

والكارثة الحقيقية في أمثال هذا الخلاف الذي قد يؤدي إلى حرب
وسفك دماء ، أن يقوم الخلاف على لفظة فارغة زائفة إن بحثنا لها عن
مدلول في عالم الأشياء لم نجد شيئاً .

راجع التاريخ في ضوء هذا الكلام ، وانظر كم أودت الألفاظ الزائفة
بأنفس البشرية ! فكلمة « جهاد » وحدها مسئولة عن سفك أنهر
من الدماء لا يعلم إلا الله مداها ؛ واسنا بطبيعة الحال تنكر استعمال هذه

الكلمات وأمثالها ، لكن الذى ندعو إليه هو أن يكون المتكلم والسامع على بينة مما تشير إليه كل كلمة من تفصيلات فى عالم الأشياء الواقعة ؛ قل للشباب بملء فيك : جاهدوا فى سبيل الحرية ، على شرط أن تكون أنت ، وأن يكون الشباب على علم تام بالتفصيلات التى نطلق على مجموعتها كلمة « جهاد » وبالتفصيلات التى نطلق على مجموعتها كلمة « حرية » : فعلينا منذ الآن بالترفة الدقيقة بين الألفاظ الحقيقية والألفاظ الزائفة كما أردنا الجدّ فى الكلام والكتابة ، وليسمح لى القارىء أن أعيد هنا ما قلته فى كتابى المنطق الوضعى فى هذا الصدد ، لعله يفيد : « الفرق بين اللفظة الحقيقية واللفظة الزائفة هو أن الأولى وراءها « رصيد » من المسميات الجزئية ، وأما الأخرى فليس وراءها شىء يشار بها إليه ؛ فما أقرب الشبه بينهما وبين الورقة النقدية الحقيقية بالقياس إلى الورقة النقدية الزائفة ، فهاتان قد تكونان فى الصورة الظاهرة متساويتين ، لكن الأولى حقيقية لأن هنالك « رصيذاً » من الذهب أو ما إليه يجعل لها قيمة « فعلية » . وأما الورقة الزائفة فليس وراءها مثل ذلك « الرصيد » ، ولذا فهى لا تشير إلى شىء وراءها من محفوظات « البنك » مما يجعل لها قيمة حقيقية .

« إن الكلمة لا ينفى عنها الزيف طولُ أمد استعمالها فى التفاهم بين الناس ، فإذا مضينا فى تشبيهنا الألفاظ الزائفة بالنقد الزائف ، قلنا إن اللفظة الزائفة التى طال أمد استعمالها بين الناس حتى ظنوا أن لها معنى ، شبيهة

بظرف مقفل ليس بداخله شيء ، لكنه دار بين الناس مدة طويلة على
زعم وهمي ، وهو أن فيه ورقة من أوراق النقد ، فظلت له هذه القيمة
في التعامل ، حتى تشكك في أمره متشكك ، وفتحها ليستوثق أن له
قيمتها المزعومة ، فلم يجد شيئاً ، بل وجدته فارغاً ولا « قيمة » له .

وهكذا قف إزاء الكلمات التي تراها مكتوبة أو تسمعها منطوقة ،
وانظر في عالم الأشياء المحسوسة باحثاً عن « رصيدها » فإن وجدتتها كانت
الكلمة ذات معنى وصالحة للتفاهم ، وإلا فهي فارغة زائفة ، بل هي
مجرمة آثمة .

مهمة الكاتب

اللهم إني كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، فمن لنا بعشرة آلاف قلم
تنفت من أسنانها اللحم ، لعلها تلسع الجلود فتوقظ الرقود من سباتهم العميق ،
وتحفز الوقوف إلى الحركة والسير ، وتستحث السائرين ليسرعوا الخطى ،
عسى أن ندرك الركب ، فقد بعدت المسافة جداً بين الرأس والذنب .

كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، لأن الكتاب عندنا قد ظلوا
يكتبون ويكتبون ، ولم يزل الناس على حالهم غرقى في أوهامهم ؛ فهما
وجهنا اللوم إلى كبار كتابنا على ممالأتهم الناس في كثير مما كتبوه ، حين
جعلوا يمجدون لهم أمجادهم ويتزعمون لهم بالأنعام التي تصادف هوى
في نفوسهم ، فلا بد لنا إلى جانب اللوم أن نعترف لهم بالفضل في محاولتهم
تغيير كثير من القيم السائدة ، التي أصبح قيامها محالاً بين شعب أراد
أن يتحضر ؛ فنذ ثلث قرن أو يزيد ، أخذ كبار كتابنا ينقلون إلينا معايير
جديدة للأخلاق ونظم الحكم والتربية ، ويعلموننا مقاييس جديدة تقيس
بها الآداب والفنون ، ويلفتون أنظارنا إلى القواعد الصحيحة التي ينبغي
أن نحكم بها على الأشياء في هذا العصر الحديث — كتبوا وكتبوا ،

وما يزال الناس على حالهم فيما أرى ؛ حدث تغيرٌ طفيفٌ في القشرة ،
أما اللباب فهو هو كما كان منذ قرون .

كنت أتحدث إلى أستاذنا العقاد منذ حين ، فقلت له في سياق
الحديث : إننا لا نتطور ولا تتغير ، كأنما قوانين التطور الاجتماعى التى
تسرى على سائر البشر لا تنطبق علينا ، فقال باسمًا : بل قل إن شئت
إن القوانين الطبيعية نفسها توشك فى أرضنا ألا تفعل فعلها . . . وهو
بذلك يعنى أن ما تتوقعه فى أى بلد من بلاد الأرض قد لا يقع لك
فى هذه البلاد ، فربما وضعت وعاء الماء على النار متوقعًا للماء أن يغلى ،
فإذا به ينجمد ثلجًا ؛ وبعبارة أعم ، إن المقدمات عندنا قلما تنتج نتائجها ،
والنتائج قلما تتفرع عن مقدماتها الصحيحة ؛ أنظر — مثلاً — إلى الخطة
التي وضعناها منذ ربع قرن لمحو الأمية ؛ حسبنا الحساب وقلنا سنفعل كذا
وكذا ، وستنمحي الأمية بعد كذا من السنين ؛ وتمضى السنون ، وتساءل
كيف الحال ؟ فلا تجد من يعرف كيف يجب — ليس لك أن تعجب
لحدوث شيء فى أى زمان وأى مكان ، لأن العجب إنما يكون لشذوذ
يحدث وسط انتظام واطراد فيستوقف النظر ويستثير العجب . أما إن
كان الأصل فى الأشياء هو ألا نظام ولا اطراد ، فلا عجب ولا تعجب ،
إلا إذا شاء الله لجزء من الحوادث فى ركن من البلاد أن يسير مؤقتًا على
سياق منتظم من قانون معلوم ! . . . ليس فى ذلك مبالغة أو إسراف ، فالذى

يلفت أنظارنا اليوم هو أن نجد رجلاً قد أوّمن على عمل للشعب أو مال للدولة فأبجز العمل أميناً ، أو أدى المال كاملاً .

ولعل كبار كتابنا قد أدركوا أنهم كانوا ينفخون في قرية مقطوعة حين كانوا يقصدون إلى الجدد فيما يكتبون ، فانقلبوا إلى كتابة التسلية وإزجاء الفراغ ، وشجعهم على ذلك أن بعض الشركات المالية التي أرادت لها المصادفة أن تشرف على إصدار الصحف والمجلات ، قد أغرتهم بالمال ، على شرط أن يكتبوا لها ما تطلب إليهم الكتابة فيه وبالمقدار الذي تطلبه ، وبالكثافة التي تقررها ، والموضوع والمقدار والكثافة عند أصحاب تلك الشركات المالية ، كلها أمور يقررها الجمهور الشاري ، إذ لا فرق عندها بين المجلات والصحف التي تنزلها إلى السوق ، وبين رموس الماشية وقوالب الطوب ، والفول والعدس — كلها سلع تجارية ، ولا بد فيها جميعاً أن ينظر إلى الشروط الصالحة للبيع والشراء

إذا فقد انصرف كتابنا الكبار عن الكتابة الجادة لسببين : الأول أنهم وجدوا كتابتهم لا تغير من الأمر الواقع شيئاً ، فالناس هم الناس سواء كتب الكتاب أو لم يكتبوا ، والثاني هو أن زمام الكتابة لم يعد في أيديهم هم ، بل انتقل إلى أصحاب رموس الأموال الذين اختاروا لاستغلال أموالهم تجارة الصحف والمجلات ؛ ولك إن شئت أن تنظر إلى

إنتاج هذا الأديب أو ذاك ، فتأتى بمجموعة من مقالاته التى أصدرها منذ
عشرين عاماً أو ثلاثين ، ثم تقارنها بمجموعة من مقالاته التى يكتبها هذه
الأيام فى المجلات التى أعنيها ، وسرى الفرق واضحاً : كان هناك جد
وعزم على تغيير عقول القراء ، فأصبح هنا استهتار وعدم مبالاة بما
يجرى به القلم ، لأن الأمر عنده وعند صاحب المجلة لم يعد يزيد أو يقل
عن صفتين يكتبهما ليتسلى بهما القارىء حين لا تسعفه للتسلية
وسيلة أخرى .

لكن لو أخلص هؤلاء الكتاب لوجدوا أن مهمتهم لا تزال باقية
على حالها ، فهم لم يغيروا من عقائد الناس شيئاً ، إذ لا يزال الناس فى حالة
شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى . . . إن أميز ما يميز
التفكير فى العصور الوسطى هو الاستناد فى الأحكام على الكتب
القديمة ، فإذا قال قائل قولاً ، وطالبه السامعون بالسند ارتد إلى الكتب
القديمة يستخرج الدليل حتى إذا ما وجدته اقتنع هو واقتنع السامعون على
السواء . والنهضة الأوربية التى جاءت لتنفض غبار العصور الوسطى ،
كان معناها هو هذا : أن يرجع الناس فى أحكامهم إلى ما تقوله الطبيعة
وما يقوله الواقع ، وأن تكون وسيلتهم إلى ذلك هى عيونهم وآذانهم ،
لأن الله أرحم جداً وأقدر جداً من أن يقصر العيون والآذان على

عصر واحد ذهب ومضى ليكون الناس من بعده صمًا عمياً لا يسمعون ولا يبصرون .

لا يزال الناس عندنا في حالة شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا في العصور الوسطى ؛ يؤمنون بأفواه مفتوحة ولعاب سائل ؛ فإذا تمنينا لهم شيئاً ، فهو أن يقيض لهم الله من أصحاب الفكر وأرباب القلم مثل من أنعم بهم على عباده من الأوربيين إبان نهضتهم ، فلو استعرضت أوربا عندئذ بخيالك وجدت مفكريها وكتابها قد عقدوا عزمًا من حديد على تنظيف الرءوس وتجديد النفوس ، ليستقبل الناس عهداً جديداً ، هو الذى نسميه اليوم بأوربا الحديثة — فأين لنا من علمائنا من يقوم بالدور الذى قام به جاليليو وكبلر ونيوتن إبان النهضة الأوربية ، ليلفتوا أنظارنا إلى الطبيعة ندرسها ، بدل الانطواء على أنفسنا مكبين على صفحات صفر معفرة بالتراب ؟ وأين لنا من فلاسفتنا من يدعو إلى ما دعا إليه ديكارت ويكن أيام النهضة الأوربية ، ليرسموا لنا منهاج التفكير الجاد الصارم ، الذى لا يلين أمام عاطفة حتى يبلغ الحق ، وهو فى سبيل ذلك يتشكك ويتثبت ويتحقق حتى لا يتخذع بإيمان السذج البلهاء ؟ وأين لنا من أدبائنا من يكتب بمثل الأقلام التى كتب بها سيرفانتيز ومونتيني وشيكسبير ، ليهزوا فينا الخيال هزاً عنيفاً ، فترسم الدنيا أمام أنظارنا فى صورة جديدة ؟ .

لا . . . ليس بيننا العلماء وليس بيننا الفلاسفة . . لا صغار ولا كبار — وأعظم من يعظمون في أعيننا من هؤلاء هم « تلاميذ » حفظوا كثيراً أو قليلاً مما كتبه العلماء والفلاسفة في أوربا التي نعوذ بالله من شيطانها الرجيم !! إننا نتسامح في استعمال الألفاظ إلى الحد الذي نقول عنده عن فلان إنه « عالم » حين يكون فلان هذا قد وعى رأسه قائمة طويلة من الحقائق التي وصل إليها العلم ؛ لكن « العالم » الحق ليس هو من وعى وحفظ ، إنما هو من عرف كيف يسأل الطبيعة سؤالاً وكيف يجعلها تجيب له عن سؤاله بما يجرى من تجارب في أناييه ومخايره ؛ وليس بيننا من يعرف كيف يسأل الطبيعة سؤالاً جديداً ، ويجعلها تجيب له عنه جواباً يذيعه في العالم المتحضر على أنه من كشفه هو وبجهوده هو .

لا .. ، ليس بيننا العلماء وليس بيننا الفلاسفة ، وكان يمكن أن يكون بيننا الأدباء ، لكنهم — واحسرتاه — قد انصرفوا عن مهمتهم إلى حيث الكلام الخفيف اللطيف ، الذي يبيعه لشركات الصحف والمجلات ، يبيع التاجر الذي يراعى في سلعته ظروف العرض والطلب . ولم يكن قد حان الوقت بعد هؤلاء الكتاب أن يلقوا السلاح من أيديهم ، لأننا لم نزل أمة في عصورها الوسطى ، تنتظر الانتقال إلى العصر الحديث على أيديهم ؛ إنه لما يستوقف النظر في أمتنا أنها تنقسم قسمين :

أقلية ضئيلة جداً في ناحية وأكثرية كبيرة جداً في ناحية أخرى ؛ وهي تنقسم هذين القسمين في كل شيء : في الثروة ، وفي العلم ، وفي التحضر بأسباب المدنية الحديثة ؛ فأقلية ضئيلة بلغ بها الغنى حد الإفراط ، وأكثرية كبيرة مرَّتها الفقر في الوحل ؛ وأقلية ضئيلة بلغت من العلم شأوا ، وأكثرية كبيرة نزلت من الجهالة إلى حد الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب ؛ وأقلية ضئيلة تكاد تنخرط مع الأوربيين في حضارتهم ، وأكثرية كبيرة لم تلمسها يد القرون التي تتابعت على الإنسانية في تاريخها الطويل .

إننا لم نزل أمة بدائية في احتكامنا إلى العواطف حيث ينبغي تحكيم العقل ؛ فبالعاطفة نرفع الحكومات ونخفضها ، وبالعاطفة نرسم المشروعات وننسخها ، وبالعاطفة نحالف الدول الأخرى ونخاصمها ، وبالعاطفة نملأ المناصب ونخليها ، وبالعاطفة نؤيد ونعارض ونستحسن ونستهجن - أف تكون هذه حالنا والكتّاب عندنا مشغولون بالكتابة الخفيفة لتسلية القراء وإثراء الشركات الصحفية ؟ .

إننا لم نزل أمة بدائية تملأ الخرافة رءوسنا ، تتشام وتنفاءل وتؤمن بإيمان العجائز ؛ واسمع القصة الآتية واسخر : أقمنا ذات يوم حفلاً نودع به راحلاً ونستقبل قادماً ، وجلس على المائدة أمامي رجل صناعته تدريس الفلسفة في الجامعة ؛ فأخذ هذا الفيلسوف يقص علينا كيف يفعل الإيمان

الأعاجيب ، قال : كان في شبرا شيخ تقى صالح ، له مريدون كثيرون ؛
وكنت أحضر جلساته أحياناً ، وقد أخذ يعلم تلاميذه كيف يقولون البسمة
بإيمان ، ثم يمشون بعد ذلك على سطح الماء فإذا هم يدوسون بأقدامهم على
مسطح أصلب من الحجر ؛ وحدث ذات مرة لبائع فجل (ولست أدري
لماذا وقعت الواقعة لبائع الفجل وحده ، ولم يقع مثلها لزميله الأستاذ
الفيلسوف) من تلاميذ الرجل أن فرغ من بيع بضاعته ، وأراد الرجوع
إلى داره في امبابه ؛ وسار على قدميه شوطاً ، ثم تنبه فجأة إلى دروس
أستاذه الشيخ ، فوقف على شاطئ النيل ، وأغمض عينيه ، وقال بكل
قلبه « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم مشى ، فإذا هو الماشى من النهر على
أرض يابسة ! — هكذا قص علينا الفيلسوف قصة ، ولولا أنني أتمنى له
السلامة لتمنيت عندئذ أن يقوم هو الآخر بالتجربة عينها ، ليتخفف الشعب
من عامل من عوامل التخريف — وإن كان هذا شأن القمة العليا من
طبقة « المثقفين » (!؟) فإذا تكون حال الملايين من السواد ؟ أفبعد
هذا كله يلقي كبار كتابنا من أيديهم أقلامهم الجلادة كأنما قد فرغوا من
مهمتهم ، ولم يبق عليهم سوى أن يكتبوا ما تطلب إليهم شركات الصحف
كتابته لتسلية القراء ؟

ونحن لم نزل أمة بدائية في عقيدتنا بأن الإنسان العوبة في يد القدر ؛
فتلك هي نظرة الشعوب الأولى التي لم تكن تدري كيف يسقط المطر

إعانة المجالات العلمية

لوزارة التربية والتعليم جهود مشكورة في تشجيع الحركة العلمية والفنية في كثير من صورها ، تشجيعاً لولاه لما استطاعت تلك الحركة — في أرجح الظن — أن تحقق هذا الذي حققته اليوم على قلته وضآلته .

فهي تعين المدارس والجامعات إعانة مبسطة الكف لاتدخر في ذلك وسعاً ، حتى لتدفع كل نفقات الطالب في بعض المراحل التعليمية ، وقسطاً كبيراً من تلك النفقات في المراحل التعليمية الأخرى ؛ وهي تدفع مكافآت مجزية في تشجيع حركة الترجمة حتى لقد يبلغ ما تدفعه أجراً على ترجمة الكتاب أحياناً مبلغاً يزيد على ما يكسبه مؤلف الكتاب نفسه ، وهي تبذل بدلاً حميداً في تشجيع المؤلفين بشراء بضع مئات من كل كتاب تقريباً ، مما يعوض على المؤلف شيئاً مما أنفقه في تأليف كتابه من جهد ومال ، وهي تعين الفرق التمثيلية الأجنبية والمصرية على السواء بألوف الجنيهات كل عام ، وهي كذلك تسخر على كثير من الجمعيات العلمية والنوادي الأدبية والاجتماعية بمال كثير أو قليل ؛ وهكذا وهكذا إلى آخر ما تنفقه الحكومة في هذا السبيل ، وإذا فهي جهود للحكومة مذكورة مشكورة مهما يكن بها من نقص هنا أو عيب هناك ؛ إن لم

تصلحه اليوم ، فهي لا بد فاعلة غداً ؛ فحسبك من أصحاب الحكم في هذا الصدد أن تراهم قد ولوا وجوههم نحو الخير الصحيح ، فإن كان في خطام تعثر في أول الطريق ، فالأرجح أن يعتدل بهم السير بعد حين .

لكننا نرى أن وزارة التربية والتعليم قد غفلت عن إعانة المجالات العلمية إعانة تمكنها من القيام بواجبها على نحو كامل ، وهي بإغضاؤها عن هذا الجانب من البناء الثقافي بمثابة من يصلح الأدوار العليا من البناء ويترك الأساس متداعياً منهاراً ؛ ولست أطلق الكلام هنا إطلاقاً عن غير وعى بمعناه ، ، وإنما أعنى هذا الذي أقوله بأدق ما يؤديه من معنى .

فالمجلات العلمية والأدبية هي حقل التجارب الذي يخرج لنا الكتاب والمؤلفين فيما بعد ؛ فإذا أنت محوته فقد محوت تسعة أعشار الفرصة التي تنهياً للأقلام الناشئة ، وبالتالي فقد محوت تسعة أعشار المؤلفين في الجيل المقبل ؛ ولست بذلك أعنى أن المجالات العلمية مقصورة على أقلام الناشئين ، لكنها توشك أن تكون هي المجال الوحيد أمام هؤلاء ؛ أما الكاتب الذي استقام واعتدل وقويت ساقاه فيستطيع أن يتنفس في الكتب إن ضاقت أمامه المجالات التي تتناسب مع مكانته العلمية والأدبية ، وأنا أقول ذلك تفاؤلاً مني بكبار كتابنا ؛ وإلا فلو قلت ما أعتقده حقاً لقلت مرة أخرى ما أعلنته في مواضع عدة ، وهو أن الكتاب عندنا في معظم الأحيان تستنفد مجهوده المقالة الواحدة ؛ وليس

هو كالكاتب الأوربي بمسطيع أن يستطرد مع فكرته حتى يملأ بها كتاباً ، وإذا فإضعاف المجلات العلمية والأدبية عندنا معناه المباشر هو سد الطريق في وجوه أصحاب القلم جميعاً ، صغارهم وكبارهم على السواء .

كانت المجلات والصحف عندنا هي العمل الذي أخرج لنا قادة الفكر الذين نفخر بهم ونعتز ، والذين نخشى مخلصين أن يتركوا وراءهم فراغاً يستحيل على الجيل التالي لهم أن يملأه ؛ فلولا الكتابة الصحفية لما كان لدينا العقاد والمازني وطه حسين وأحمد أمين وهيكل وغيرهم ؛ وقد كدت أقول توفيق الحكيم ، وأنا أتمفظظ بالنسبة إلى الأستاذ الحكيم لأنه على خلاف هؤلاء جميعاً قد بدأ أدبه الممتاز بالكتاب الكامل ، ثم جرفه التيار العام ، فعقب على الكتاب بالمقالة ، وأتبع مرحلة التمثيلية الكاملة ذات الفصول ، بمرحلة التمثيلية ذات الفصل الواحد ، التي تناسب مع الإخراج الصحفي ؛ وهو لاشك سير في الطريق من آخره إلى أوله ، لكنه يدل دلالة قوية على سيطرة المجلة أو الصحيفة على أدبائنا . فكيف إذا تكون الحال لو عشنا في خلاء من مجلات و صحف أدبية ممتازة ؟

فكر في قادة الأدب عندنا واحداً بعد واحد ، واسأل : ماذا يستطيع فلان أن يكتب إذا امتنعت دونه كتابة المقالة ؟ تجد جواب السؤال حاضراً في أغلب الحالات ، وهو : لا يستطيع أن يكتب شيئاً ، لأنه أضل فكراً من أن يخرج فكره في كتاب متصل ؛ وكم مر علينا من تجارب ، سدت

فيها أبواب الصحف على كبار كتابنا ، فسكتوا وطووا أقلامهم لأن الواحد منهم إما أن يكتب مقالة أو لا يكتب شيئاً ؛ والكثرة الغالبة من نتاجنا الأدبي الذي يتخذ في النهاية صورة الكتب ، إن هي إلا مقالات جمعت في كتب ، وايست هي بالكتب الأصيلة التي أنشأها منشئوها على أساس الكتاب لا على أساس المقالة .

لست هاهنا ناقداً يشير إلى وجه من أوجه النقص في إنتاجنا الأدبي والعلمي ، ولكنني أصف هذه الحالة لأتهدى إلى النتيجة التي تتفرع عنها ، وهي أنه إذا انعدمت المجلات الأدبية والعلمية فقد انعدمت بالتالي الفرصة الوحيدة التي يتنفس فيها كبار كتابنا ، والتي تهيم مجال المران لصغارهم الناشئين .

قرأت في العدد الأخير من المجلة الإنجليزية « القرن التاسع عشر وما بعده » مقالةً هو الذي انبثقت منه فكرة هذا المقال الذي أكتبه ؛ إذ قرأت تحت عنوان : « حالة الجمعيات العلمية » (في إنجلترا) ما يشبه البكاء على تدهور الجمعيات العلمية هناك بسبب قلة الإعانة المالية التي تقدمها حكومتهم إليها ؛ ويقول كاتب المقال متجهاً بقوله إلى رجال الحكومة : إننا في أثناء الحرب الأخيرة قد حرمانا كثيراً من ألوان التسلية واللهو ، حتى يتوافر مجهودنا كله للقتال ، ومع ذلك لم نجرؤ على تحريم سباق الخيل ، وكانت حجة الحكومة عندئذ هي أن إغلاق حلبات السباق يؤدي إلى

تعريض تربية الجياد الكريمة لخطر جسيم ؛ ولما كانت الحكومة حريصة على اتصال سلسلة الجياد الكريمة حتى لا ينقطع حبلها ، فقد أبت على الدافع الأول إلى تربيتها والعناية بها ، ألا وهو السباق وحلبته — وبعد هذا التشبيه ينتقل الكاتب إلى حالة الجمعيات العلمية عندهم ، فيقول : أليست تحرص الحكومة على اتصال سلسلة رجال الفكر كما كانت تحرص على الجياد الأصيلة ؟ إنها لا بد حريصة على ذلك أشد الحرص ، وإذا فلا مناص من صيانة الحلبة التي يؤدي وجودها إلى وجود رجال الفكر ، ويؤدي انعدامها أو ضعفها إلى انعدامهم أو ضعفهم ، وما تلك الحلبة سوى الجمعيات العلمية بما لها من مكاتب ومجلات وغيرها .

ويقول كاتب ذلك المقال أيضاً : إن هنالك الجامعات العلمية الرسمية ، مثل « الجمع الملكي » للعلوم الطبيعية والرياضية ، و « الجمع العلمي البريطاني » للتاريخ والأدب والفلسفة والآثار — هذه الجامعات العلمية الرسمية تحظى برعاية الحكومة على الوجه الأكمل ؛ لكن كيف السبيل إلى إمداد تلك الجامعات بقيادة الفكر إن لم يكن لدينا « جمعيات » تكون بمثابة صفوف الشعب التي تخرج منها هؤلاء القادة ؟ هل تستطيع أن تظفر بالقادة دون أن يكون لديك المجال الذي يتخرجون فيه ويتمرسون في ميدانه ؟ فلا مناص لنا — إذا — من رعاية الجمعيات العلمية والأدبية حتى تخرج لنا فيما بعد قادة الجامعات .

وإن صح هذا القول مرة واحدة في إنجلترا ، فهو صحيح ألف مرة بالنسبة لنا في مصر ، وسائر بلدان الشرق العربي ؛ ونحن ننظر إلى مجلاتنا العلمية والأدبية نظرنا إلى « الجمعيات العلمية » التي وردت في المقال الذي أشرنا إليه .

أنظر إلى « الجمع اللغوي » عندنا — مثلاً — وهو يضم فريقاً من القادة ، تجد أعضائه جميعاً قد بلغوا ما بلغوه بفضل المجلات والصحف التي هيأت لهم سبيل الكتابة في شبابهم وكهولتهم على السواء ؛ ولك أن تسأل بعد ذلك : ما مصير كتابنا الناشئين الذين يحملون بذور التفكير والكتابة ، إذا لم يجدوا أمامهم المجلات القوية التي تعينهم وتشجعهم على الكتابة والتفكير ؟ أليس واجباً محتوماً على القائمين بالأمر أن يتعهدوا هذا المصدر حتى يضمنوا لحياتنا العلمية استمراراً وازدياداً في القوة والنماء ؟ أم تراهم يحسبون أن الزمان قد وقفت دورته ، وأن الحاضر هو الزمان كله من أزله إلى أبده ؟ .

إن الصراحة هنا واجبة لأن الأمر في رأينا خطير غاية الخطر ؛ فإذا استثنت المجلات التي تصدرها دور النشر الكبرى صاحبة رؤوس الأموال الضخمة ، وجدت سائر مجلاتنا الأدبية المحترمة في طريقها إلى الانهيار والزوال ، وما قيامها إلا تضحية كبرى من أصحابها ؛ أين المجلات التي شهدها شباب الجيل الماضي — والتي كانت ميدان قادة الفكر عندنا

اليوم — السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة في عنفوانها والثقافة في إبانها ، بل أين المجلة القوية التي لم تشهد النور إلا حقبة قصيرة ، مجلة الكاتب المصري ؟ زالت كلها أو هي كالزائلة . لأن الحكومة لا تعينها بالقدر الذي يمكنها من البقاء ، ولا يكفي من الحكومة أن تعين بشراء بضع مئتين من أعدادها ، بل لابد هنا من السخاء في العطاء ، لأن المسألة متعلقة بينائنا الفكرى من أساسه .

لا ينبغي لوزارة التربية والتعليم أن تترك المجلات العلمية لعوامل العرض والطلب في السوق ، وإلا فلن يكون هناك مجلة علمية واحدة ، لسبب بسيط ، وهو أن السوق تتطلب مادة سهلة للتسلية ؛ والمجلات التي في مقدورها اليوم أن تعيش عيش الرغد والرواج هي التي تغذى ذلك الاتجاه في السوق ، غير آبهة بمثل أعلى لابد من فرضه على جمهور القراء ؛ فليس من الحكمة في شيء أن تتركوا أصحاب الفكر لأبناء الشارع يسرونهم كيف شاءوا ، كما تتركون بائعي الصابون لعوامل العرض والطلب في سوق البيع والشراء .

جناية الأدباء

كانت أمسيات الصيف كثيراً ما تثقل على كاهلي ، فلا أدرى كيف أخلص من ساعاتها الطويلة المديدة التي تسبق النوم ؛ لذلك كنت أطيل التردد على السينما في دورها الصيفية المكشوفة ، حيث « أقتل » قتلا من مسائي ثلاث ساعات أو أربعا ، ألهو فيها عن نفسي بما أرى على الشاشة ؛ وكان معظم الأفلام التي عرضت في تلك الدور المكشوفة التي قصدت إليها وقصد إليها ألوف كثيرة جداً ممن هجروا ديارهم فراراً من حرارة الصيف ، كان معظم هذه الأفلام عربي التآليف والتمثيل .

وإني لأشهد الله أني ما عدت من هذه الأفلام العربية ليلة ، إلا ضيق النفس بما قد رأيت ، آسفاً لهذه الهاوية التي نعيش في ظلماتها فناً وذوقاً وتمثيلاً وإخراجاً ، نائراً على أدبائنا الذين غضوا أنظارهم عن هذه الصفحة البيضاء التي فتحت لهم صدرها رحباً ليملاؤها بنتاج أقلامهم ؛ غضوا عنها أنظارهم ، فاتهبها أصحاب الأذواق الفجة السقيمة ، التي لا تميز بين طيب وخبث ؛ أستغفر الله ، بل لعلها تميز بين الطيب والخبث تمييزاً تستطيع به أن تمحو الطيب كله وأن تثبت الخبيث كله .

ولست أقصد بالخبث هنا خبيث الأخلاق كما قد تراءى لكثيرين

من تعرضوا لنقد أفلامنا العربية ؛ لأنى رجل لا أبالى فى الإنتاج الفنى بالأخلاق طيبها وخبيثها على السواء ؛ بل لا أكاد أفهم اللغة التى يتحدث بها الذين ينتقدون الفنون على أساس الأخلاق ؛ ماذا عساهم يريدون بالخير الأخلاقى أو الشر الأخلاقى ، حين يقولون فى تقديم لإنتاج فنى إنه خير أو إنه شر ؟ إن الكاتب الذى يصور ملاكاً رحيماً تصويراً بارعاً كالكاتب الذى يصور شيطاناً رحيماً تصويراً بارعاً ... أم تراهم يقصدون بكلامهم عن الخير والشر فى الإنتاج الفنى ، ما يبثه هذا الإنتاج فى نفوس الناس من تعاليم ؟ فالأدب الخير عندهم هو ما علم الناس أخلاقاً تواضعنا على اعتبارها رقيمة سامية ، والأدب الخبيث عندهم هو ما علم الناس أخلاقاً اتفقنا على اعتبارها خسيصة دنيئة ؟ لو كان هذا هو ما يقصدون إليه بتقديم ، إذن فالطامة أكبر ، وفهمهم للأدب أبعد جداً من الفهم الصحيح ، لأن الأدب الذى يعلم الناس شيئاً ليس من الأدب فى كثير ، وربما كان من الأدب فى قليل ضئيل ؛ فلم يخلق الله الأديب — أو رجل الفن بصفة عامة — أديباً أو فنانياً ليقف من الناس معلماً وواعظاً ؛ بل خلقه أديباً أو فنانياً ليحاكى الطبيعة فى خلقها للكائنات ، فيضيف إلى خلقها خلقاً جديداً من نوع جديد . . . لكنى لا أريد استطراداً فى هذا ، فما أكتب الآن لأوضح رأياً فى طبيعة الفن ، بل أكتب فى خاطرة كانت تتردد على رأسى كلما قصدت داراً من دور السينما التى تعرض أفلاماً عربية .

أعود فأقول إني لم أريد بالخبيث خبيث الأخلاق ، حين ذكرت عن أصحاب الأفلام العربية أنهم يثبتون على شاشتهم كل الخبيث ذوقاً وفناً ولا يفسحون للطيب من تلك الصفحة البيضاء مكاناً كبيراً أو صغيراً .

فإنه أعلم مني بطبيعة هذا الذوق الذي يبيح لصاحبه أن يحسرفي القصة الواحدة - وفي كل قصة مما تعرضه الأفلام العربية - كل ما تحويه الأرض والسماء من الحوادث الضخمة الغليظة ، التي تكفي كل حادثة منها عشرين قصة حتى يتم تحليلها . . . فلا بد عند الكاتب الذي يكتب للسينما المصرية ، أن يكون في القصة الواحدة يتم وتشريد وزواج وطلاق وغدر وخيانة وتهتك في المراقص والملاهي بالنسبة للأغنياء ، وعفة وأمانة بالنسبة للفقراء ، فلا أذكر أني رأيت فلماً واحداً يخلو من شاب غني ذهب إلى مرقص فأحب راقصة بعد أن أراد العبث بها فردته عن العبث الحرام ، ولما أراد الزواج منها وقف له أبوه الغني حائلاً بينه وبين من أحب ؛ ثم لا بد أن تكون هذه الراقصة قد لجأت إلى رقصها عن طلاق أصاب أمها ، أو عن موت حرمها والدأ ، فاضطرت إلى الكسب عن هذا الطريق . . . وأنا أعيش في مصر كما يعيش هؤلاء الكتاب الذين يكتبون القصص للسينما المصرية ، ولا أعلم أين أجد ما يجدونه بهذه الكثرة من أمثال هذه الحوادث ؟ فكم رأوا من الشبان الأثرياء الذين تزوجوا من راقصات الملاهي رغم ذوبهم ؟ وكيف تقصوا أبناء هؤلاء الراقصات فعلموا أنهن جميعاً

لاجئيات من جوع وتشريد؟ وأن واحدة منهن لم تلجأ إلى الرقص عن
هواية وفن؟ لكن على رسلك! فإلى من توجه هذه الأسئلة؟ أتوجهها
إلى أصحاب القصص السينمائية العربية، زعمًا منك بأنهم أدباء يعلمون ماذا
يصنعون، وهم أنفسهم لا يدعون لأنفسهم هذا الذي تلصقه بهم رغم أنوفهم.
هل يعلم أصحاب هذه القصص التي تعرض على شاشة السينما، أنهم
يصورون بقصصهم أغلظ الأذواق الهمجية، إذ يقصرون تصويرهم على
الحوادث الصارخة التي تتلاحق تباعًا كأنها سيل من القنابل المتفجرة؟
فصاحب الذوق الهمجي البدائي وحده هو الذي يميل إلى هذا الصراخ كله
كي يصحو من نعاسه؛ وهو وحده الذي لا يطمئن في ألوانه المختارة إلى
المهادى، الخافت، ولا يطمئن في حديثه إلى الصوت الخفيض، ولا تكفيه
في حياته اللسات الخفيفة؛ أما من أصاب شيئًا من تحضر وتهذيب، فتراه
هادى، الطبع لا يرتاح إلى زعيق في الصوت أو ضجيج في الحركة أو صراخ
في اللون؛ وحسبه إشارة هامسة إذا أردت له يقظة والتفاتًا ولا أحسبنا من
همجية الذوق بهذه الدرجة كلها التي فرضها أصحاب الأفلام العربية.

إنه لا عجب أن نرى الأفلام العربية كلها صورة تكاد تكون واحدة
لا جديد فيها، صورة واحدة تتكرر، بحيث تستطيع أن تعلم في يقين أو شبهه
أى الحوادث أنت راء على الشاشة قبل أن تعرض القصة؛ لأن كل واحدة
من هذه القصص تحيط بحوادث الدهر كلها، لا تدع منها شيئًا إلى قصة
أخرى. . . وهل رأيت فلماً واحداً قد قصر نفسه على فكرة واحدة يعرضها

بظلالها وأضوائها ، كهذا الذى نشاهده فى الأفلام الأوروبية والأمريكية الجيدة ؟
لكن فىم هذا اللوم كله والنقد كله ؟ إنما ينصرف اللوم إلى أدبائنا
الذين جنوا على أدبهم وعلى الناس جناية كبرى ، إذ تركوا ميدان الشاشة
السينمائية لسواهم من غير ذوى الفهم الأدبى والذوق الفنى ؛ ولعلمهم تركوا
شاشة السينما لغيرهم ، لأنهم نفضوا أيديهم من القصة والمسرحية جملة
واحدة — إذا استثنينا حالات قليلة تمدّ على أصابع اليد الواحدة — إن
كبار أدبائنا يكتبون ويكتبون ، ولست أدري والله فىم يكتبون ، إذا
كنت تلتمسهم فى ميدان القصة والمسرحية فلا تكاد تعثر لأحد منهم على
أثر ؛ كأنما هم لا يعلمون — مع أنهم خير من يعلمون — بأن العالم كله
لا يكاد يعرف من الأديب الكبير إلا كلتباً للقصة أو منشئاً للمسرحية .
أدباؤنا الكبار فى شغل عن القصة والمسرحية بما يكتبونه للصحف
اليومية والأسبوعية من مقالات يذكرون فيها نتفاً ومجالات عن السياسة
والاجتماع ؛ وإذا قلنا إنهم فى شغل عن القصة والمسرحية فقد أوشكنا أن
نقول إنهم فى شغل عن الأدب .

كيف يجوز لأدبائنا الذين هم فى الطليعة ، أن يزعموا لنا أو لأنفسهم
أنهم يصورون آمالنا ومخاوفنا إن كانوا لا يخلقون لنا بأيديهم أشخاصاً
تتجسد فى سلوكهم هذه الآمال والمخاوف ؟ هل يجوز لأديب واحد من
هؤلاء الكبار أن يدعى بأنه قد صور الرجل من الطبقة الوسطى الفقيرة
بمثل ما صورته ممثل لم يكن ينتمى إلى طائفة الأدباء — وأعنى به المرحوم

نجيب الريحاني ؟ هل يجرؤ أديب واحد من أئمة أدبائنا أن يدعى ، أنه قد صور الفساد الذي كان والذي نرجو ألا يكون ، في شخص أو أشخاص أحسن خلقهم وتصويرهم ؟ .

أليست فضيحة ثقافية كبرى أن تسألني : ما أبرز السمات التي تميز الأدب الإنجليزي اليوم ، فأجيب ، وأن تسألني السؤال نفسه عن الأدب المصري فلا أستطيع الجواب ؟ . . . إنها فضيحة ثقافية لا لأنى أعجز عن تحليل أدبنا المصري المعاصر فأعجز عن إخراج سماته وخصائصه ، بل لأنى أبحث — حين أبحث — عن الأدب الممثل لنا اليوم في قصة أو مسرحية فلا أكاد أجد من ذلك شيئاً ، إنك إذا أردت تحليل الأدب الإنجليزي أو الفرنسي — مثلاً — لتستخرج خصائصه المميزة ، فلا تستعرض الصحف اليومية هناك التماساً لما تريد ، بل تستعرض كتباً وقصصاً ومسرحيات ؛ فما الذى أستعرضه هنا من كتب وقصص ومسرحيات لأخلص إلى الاتجاه العام الذى يشترك فيه كبار الأدباء عندنا ؟ .

إن أئمة الأدب فى شغل عن الأدب بما لست أدري ماذا ؛ وهيات لهم شاشة السينما مجالاً فسيحاً ، إذا أرادوا حقاً أن يتعقبوا حياتنا بالتصوير ، وأن يعرضوا على الناس قطعاً حية من نفوسهم وما يمتلج فيها من خواطر ومشاعر ؛ لكنهم أجمعوا فيما بينهم — أو كادوا يجمعون — على أن يتركوا هذا المجال الأدبى لغير الأدباء ، فجنوا على أنفسهم وعلى الأدب وعلى الناس جنابة لا يمحوها عنهم إلا غفران من الله ورحمة .

مطابع الشروك

بيروت ١ ص. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - ريفنا ناشروك - تليكن. SHOROK 20175 LE
القاهرة ١٦٠ شارع حوزاد حسي - هاتف ٧٧٤٨١٤ - برنينا شروك - تليكن. 03091 SHROK UN

